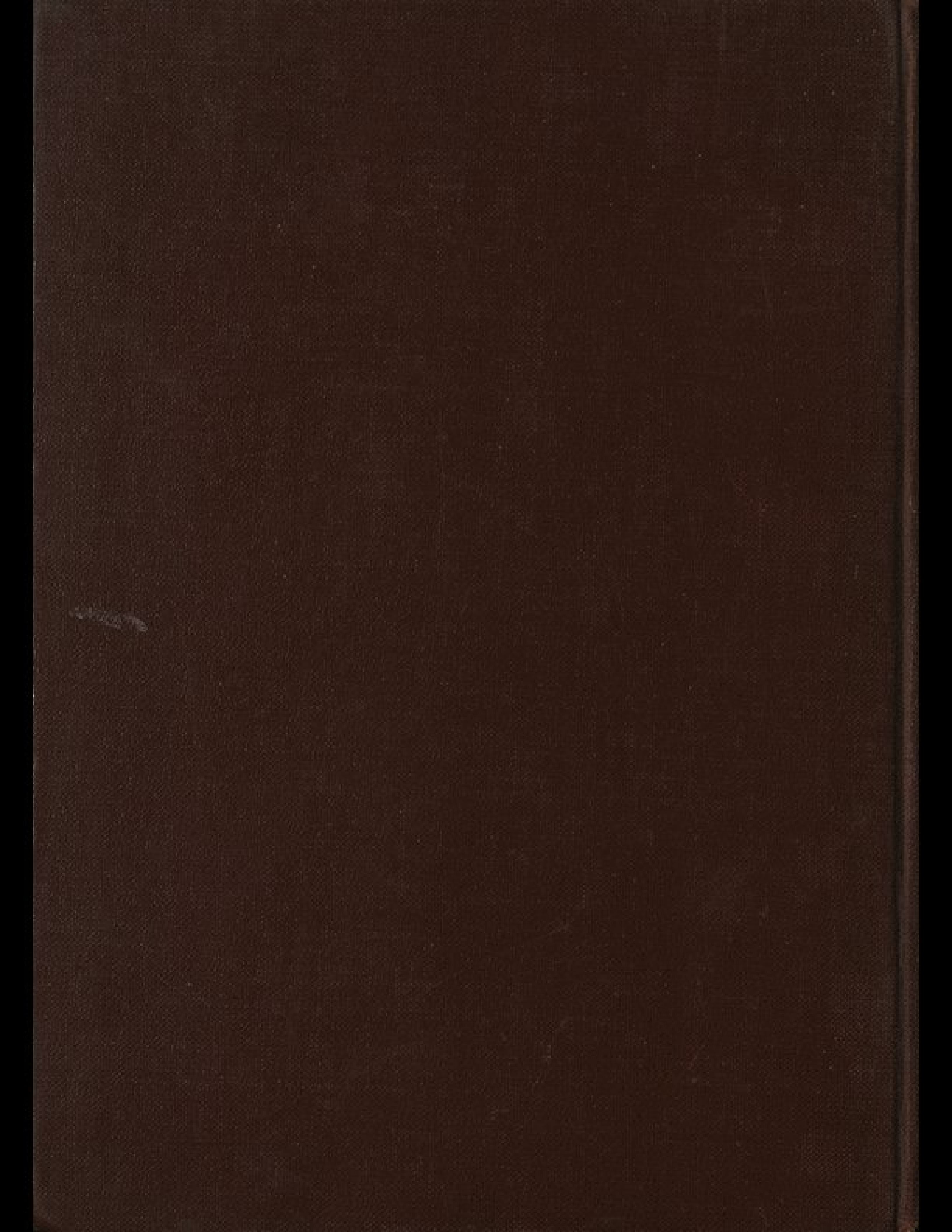
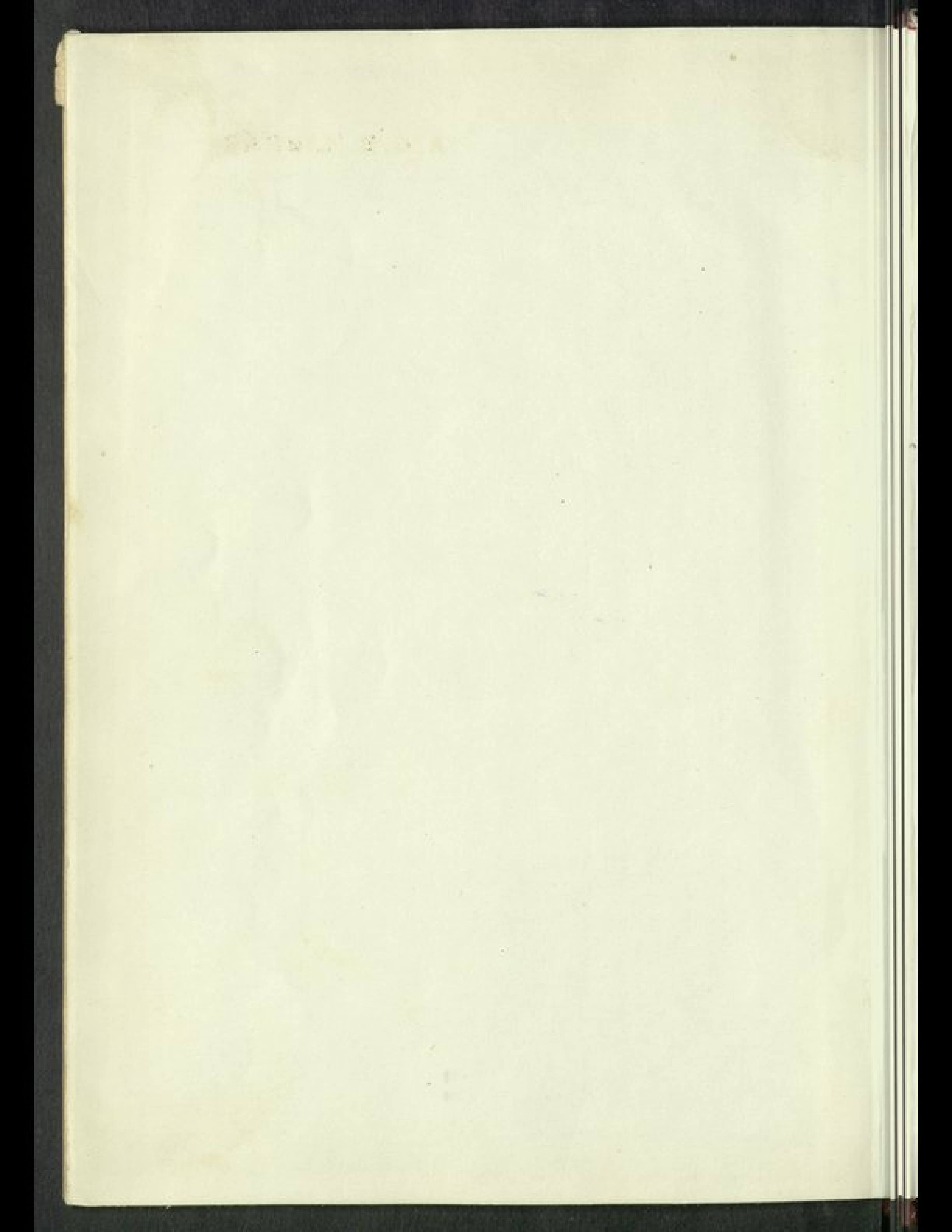
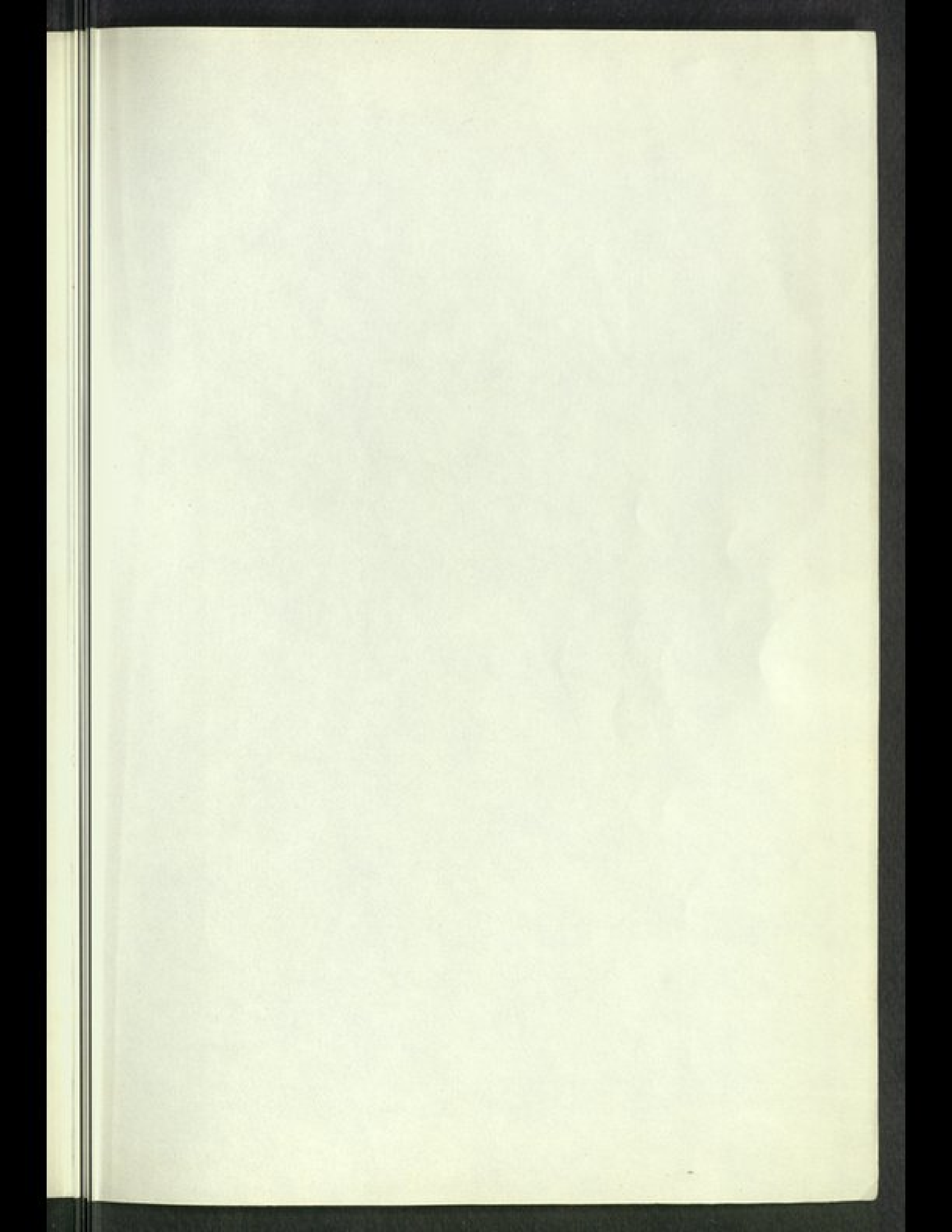
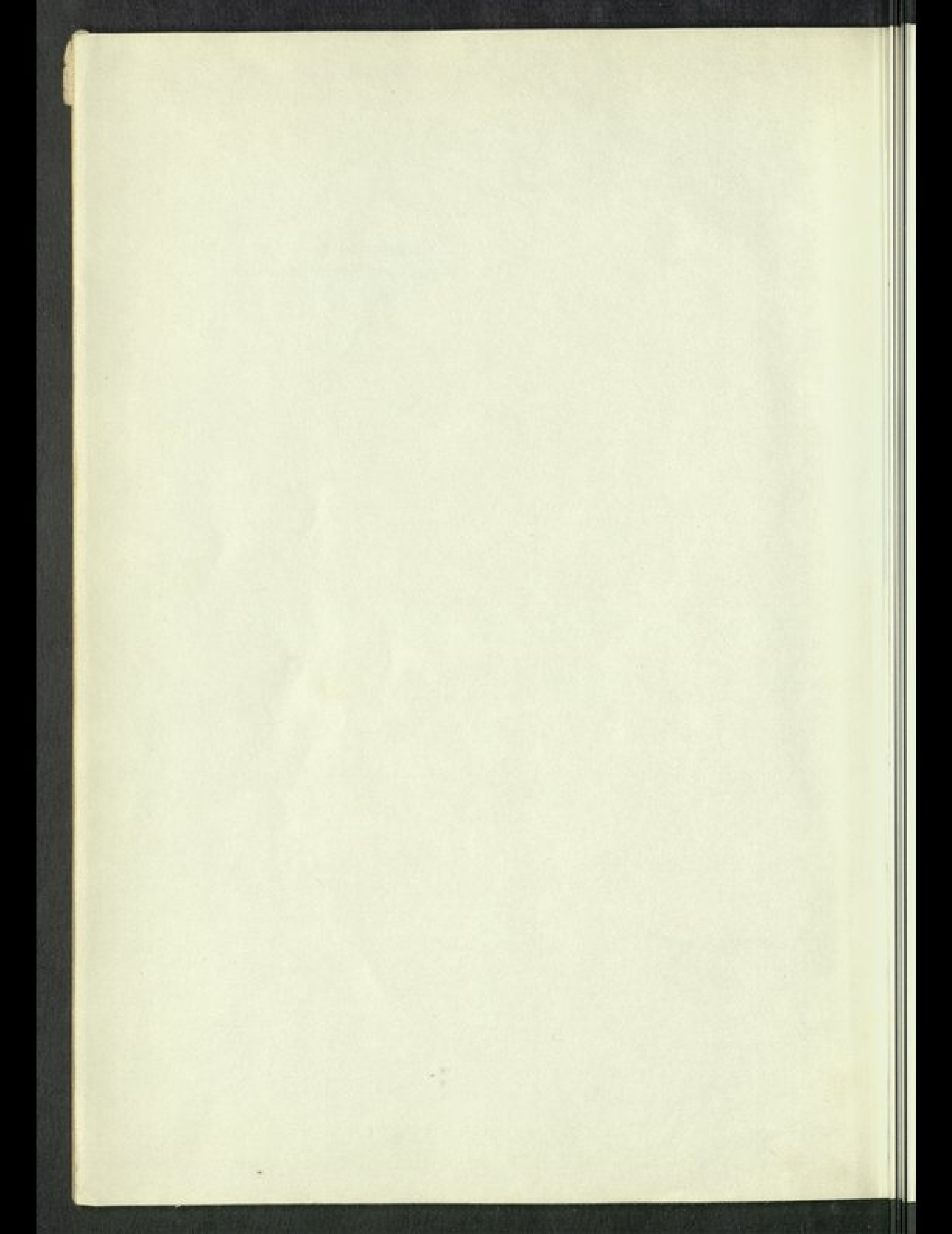
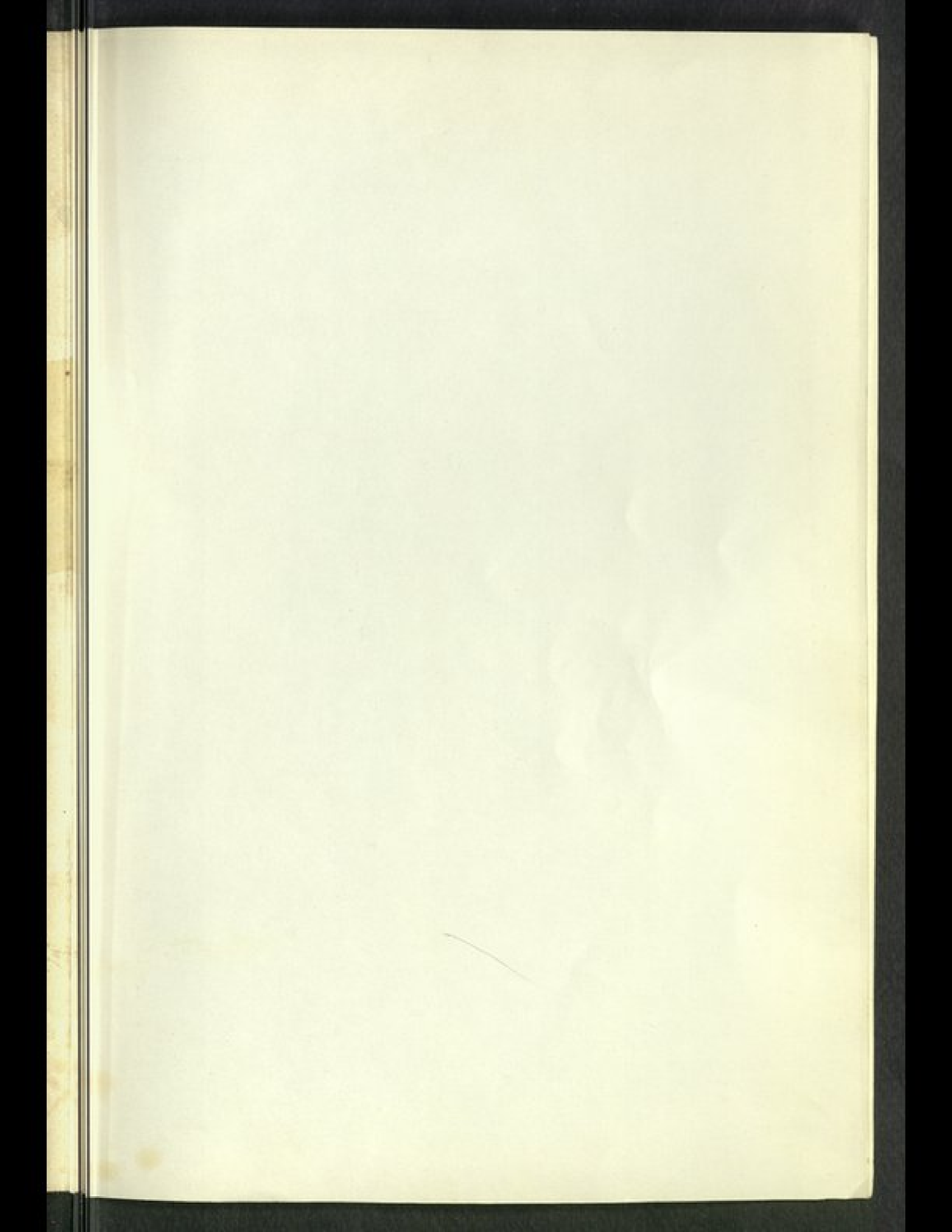
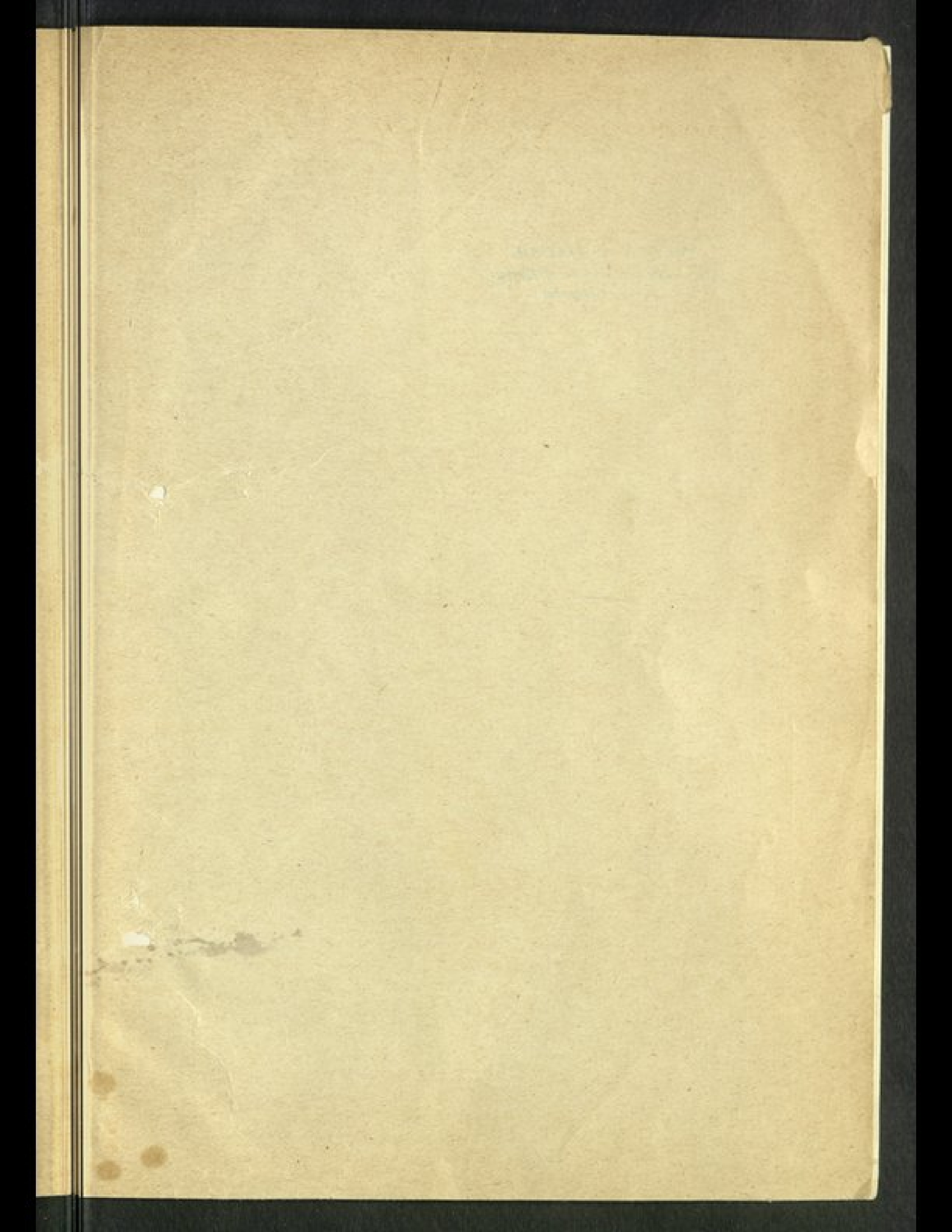












جامعة الدول العربية
الإدارة الثقافيـــة

انتصـــــار الحضارة

«تاريخ الشرق القديم»

بقــلم

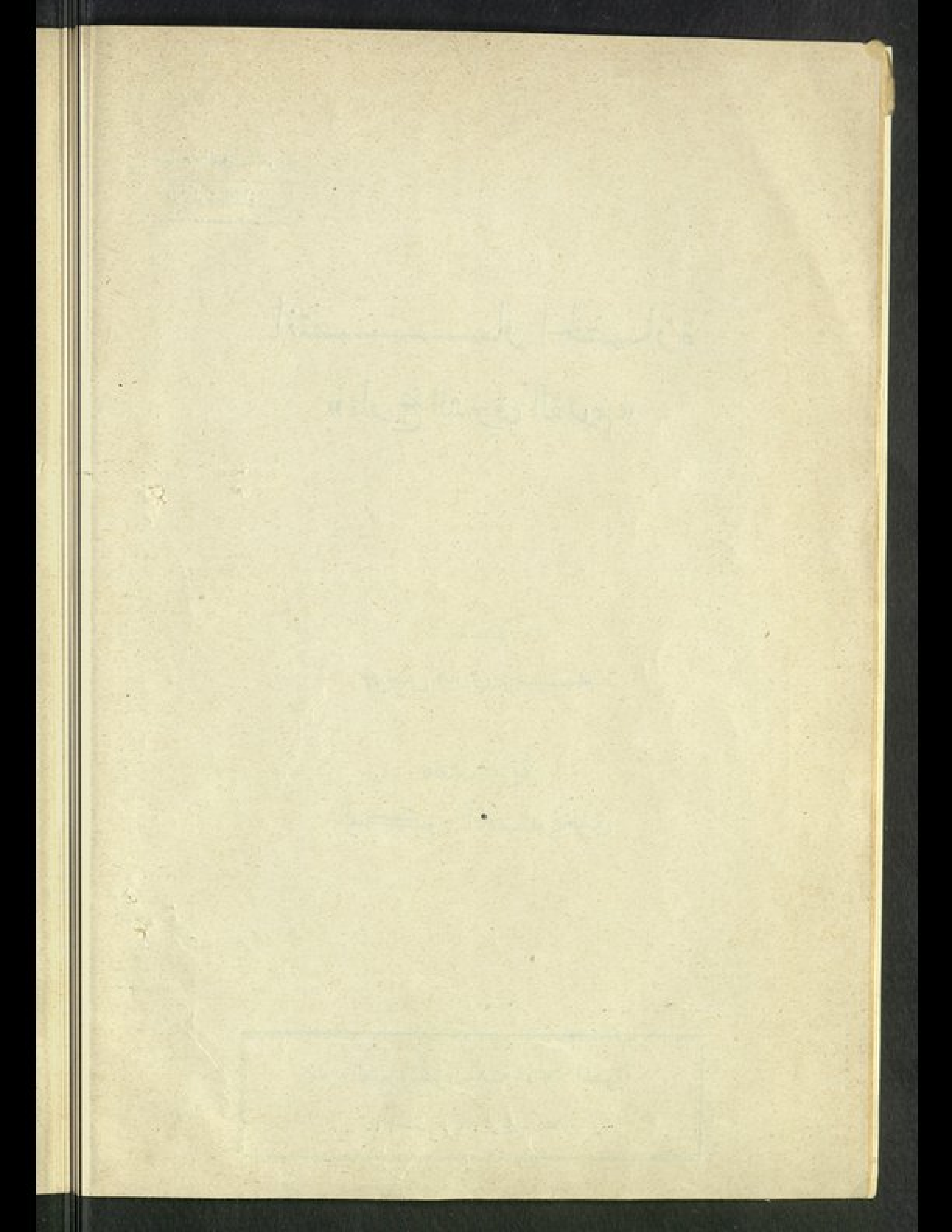
جيمس هنرى برســتد

نقله إلى العربية

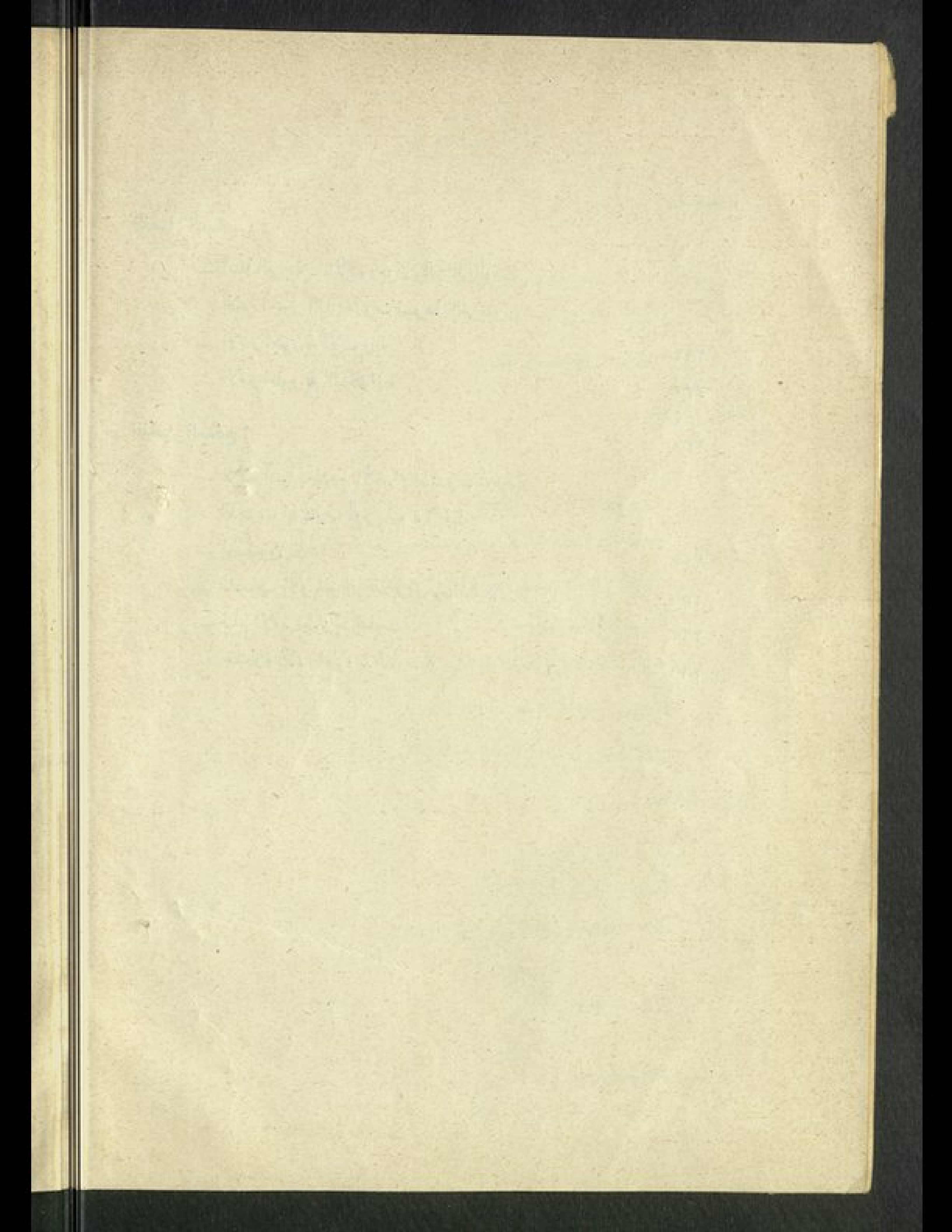
الدكتور أحمـــد فخرى

ملتزم الطبع والنشر : مكتبة الانجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد ـ مصر



محتويات الكتاب



تقديم

قابلت « برستد » للمرة الأولى فى حياتى فى أوائل عام ١٩٢٦ . وكنت إذ ذاك طالباً أدرس الآثار ، ورأى زملائى أن ندعو ذلك العالم الشهير إلى حفلة شاى صغيرة فى فندق الكونتننتال .

كنا جميعاً متشوقين لرؤيته ، وكثيراً ماسمعنا اسمه يتردد على ألسنة أساتذتنا ، وكانت مؤلفاته بين أيدينا منذ الأسبوع الأول فى دراستنا ، ولكن هذا الشوق لمقابلة برستد لم يكن لأجل لقاء عالم عظيم فحسب ، بل كان له مغزى آخر .

جاء برستد إلى مصر فى ذلك الشتاء ومعه عرض من الثرى الأمريكى چون روكفلر لتقديم مبلغ عشرة ملايين دولار إلى مصر لبناء متحف على أحدث طراز للآثار المصرية ومايلحقه من مكتبة ومن معامل لصيانة الآثار ووسائل المحافظة عليها .

ولم يشترط صاحب الهبة شيئاً أكثر من أن تقدم مصر الأرض اللازمة لإقامة المبنى عليها ، وأن تشرف على المتحف وملحقاته لمدة ثلاثين عاماً لجنة مكونة من ثمانية أشخاص يمثل اثنان منهم دولة من الدول الأربع : مصر ، وأمريكا ، وانجلترا ، وفرنسا . ثم يؤول بعدها كل شىء إلى مصر .

ولكن لأسباب لاداعى لذكرها رفضت حكومة مصر بعد مفاوضات دامت عدة شهور هذا العرض ، وانقسمت الصحافة بين محبذ وناقد ، ولكننا شعرنا ونحن طلبة حديثو السن أن مصر خسرت خسارة كبرى من هذا الرفض ، ولهذا أردنا أن ندعو الرجل إلى حفل بسيط لنعبر له عما نشعر به . وتحدث برستد إلينا مجملا ماحدث ، وشاكراً لنا ما أحسسنا به . وأظهرت الأيام بعد ذلك أن مصر خسرت كثيراً وأضاعت عليها فرصة كبيرة .

ودارت الأيام دورة أخرى وقابلت برستد مرة ثانية فى ربيع ١٩٣٥ عندما

كان فى آخر زيارة لمصر ، لم أره هذه المرة للحظة قصيرة ، أو استمعت إليه وهو يلقى خطاباً ، بل كان لى حظ لقائه مرات ، وكنت فى ذلك الحين مفتشاً للآثار فى الأقصر ، وكنت أكثر من الذهاب إلى مكتبة المعهد الشرقى التابع لجامعة شيكاجو للاطلاع ، فكان لى حظ لقائه والاتصال به ومصاحبته فى الذهاب إلى كثير من مواقع الآثار .

كان يحدثنى عن ذكرياته وهو طالب فى أمريكا وفى ألمانيا ، وكان يحب أن يحدثنى عن ذكرياته فى المناطق الأثرية وخاصة عندما زار آثار الأقصر للمرة الأولى فى عام ١٨٩٤ . وكان يحدثنى عن نتائج حفائر بعثات المعهد فى مختلف بلاد الشرق ، وكان يسألنى عن دراساتى وعن هواياتى ، وكنت أحس بعد كل مقابلة أن الرجل فتح عينى على حقائق لم أكن أعرفها . وكانت له شخصية تحبب الإنسان فى العلم والعلماء ، وكان يؤمن بعظمة مدنيات بلاد الشرق القديم . وبالرغم من أن اختصاصه الأساسى كان فى علم الآثار المصرية ، إلا أنه كان يؤمن إيماناً صادقاً أنه لكى نفهم دور الحضارة المصرية على الوجه الصحيح يجب أن يبدأ الطالب بدراسة حضارة الشرق القديم عامة .

لم يكن هذا رأى برستد فى عام ١٩٣٥ فقط أو أنه بدأ يؤمن به بعد أن اتسعت آفاق دراساته وأبحاثه ولكنه آمن به منذ أن كان طالبا فى شيكاجو ، وبدأ يدرس اللغة العبرية استعداداً لدراسة اللاهوت ليصبح رجلا من رجال الدين . وزاد إيمانه به يوم أقنعه أستاذه فى اللغة العبرية أن ينبذ فكرة دراسة اللاهوت لأنه خلق ليكون مستشرقا ونصحه بالاتجاه نحو الآثار المصرية . وكمل إيمانه عندما أتم دراسته فى أمريكا وسافر إلى برلين رغم كل الصعاب المالية ، وقرر أن يتخصص فى دراسة علم المصريات .

حصل برستد على الدكتوراه من برلين فى عام ١٨٩٤ ونشر أول أبحاثه بعد ذلك فى عام ١٩٠٠ عن الملك تحوتمس الثالث . وفى عام ١٩٠٣ نشر كتابا له عن

موقعة قادش التى خاضتها الجيوش المصرية فى سوريا ، ثم نشر بعد ذلك كتباً متعددة جعلت اسمه على كل لسان وخاصة كتبه عن تاريخ مصر .

وفى عام ١٩١٦ ظهر له كتاب جديد هو كتاب « العصور القديمة — Ancient Times » الذى لاقى نجاحاً لم يلقه كتاب من نوعه فى جميع الدوائر العلمية ، والذى انتشر بين أيدى الطلبة فى كل أنحاء العالم وهو الكتاب نفسه الذى نقحه ونشره بعد ذلك بعشر سنوات تحت اسم انتصار الحضارة The Conquest of Civilization والذى زاد عليه ونقحه مرة أخرى قبل وفاته ونشر بعد موته بثلاث سنوات ، وهو أيضاً الكتاب الذى نقلنا منه الفصول الثمانية الأولى إلى العربية ونشرناها فى هذا الكتاب .

وهناك قصة طريفة عن سبب قبول برستد وضع هذا المؤلف .

كان لبرستد جار صديق اسمه هيلتون من المساهمين الرئيسيين فى إحدى شركات النشر الكبرى ، حاول هيلتون كثيراً فى عام ١٩١٢ أن يغرى برستد بكتابة مؤلف عن التاريخ القديم ليكون فى أيدى طلبة المدارس الثانوية هناك ولكنه كان يرفض قبول كتابته رغم ما كان فيه من ضائقة مالية شديدة لأن ذلك سيضطره لتعطيل أبحاثه الخاصة مدى ثلاث سنوات على الأقل .

ولم ييأس هيلتون ، وعمد إلى حيلة بارعة إذ جمع الكتب التى كانت فى أيدى الطلبة عن التاريخ القديم وأرسلها إلى صديقه ليطلع عليها ويجيبه عما إذا كان ضميره يسمح أن تكون هذه الكتب مصدراً لثقافة الطلبة الأمريكيين . ويذكر شارل برستد ابن المؤرخ العظيم فى كتابه عن حياة أبيه أن تلك الكتب ظلت عدة شهور لدى أبيه دون أن يتمكن من فحصها ، فلما فعل كان أثر هذه الكتب فى نفسه هو ما أراده هيلتون . ورأى برستد أن كل هذه الكتب ماعدا اثنين أو ثلاثة كادت تهمل الشرق إهمالا تاماً وكأن الفضل كله يرجع إلى اليونان والرومان ، وفى تلك الكتب التى أشار فيها مؤلفوها إلى الشرق كانت كتاباتهم عنه قليلة وفيها

الكثير من الغموض بل والأخطاء الصارخة . وكتب برستد فى مذكراته اليومية فى ذلك التاريخ عن مؤرخى حضارات اليونان والرومان فقال أنهم يريدون قتل حضارة الشرق عمداً لأنهم يريدون إخفاء الحقيقة ، ورد على هيلتون قائلا : « إنى أقبل أن ألبى طلبك وأكتب كتاباً لطلبة المدارس عن التاريخ القديم على شريطة أن تسمح لى أن أخصص ثلث صفحاته للشرق القديم » ، وانقطع برستد نحو ثلاث سنوات لتأليف هذا الكتاب الذى صدر أخيراً فى يوم ١٤ أغسطس ١٩١٦ عندما كانت الحرب العالمية الأولى على أشدها .

آمن برستد أن الشرق القديم هو مهد المدنيات والحضارات وأنه كان المعلم الأول للبشرية ، وفى مختلف بقاعه بدأ الانسان يخطو خطواته الأولى نحو المدنية . لم يكن هذا الشرق صاحب الفضل فيما وصل إليه من كثير من أسس مدنيته المادية فحسب بل كان له فضل أعظم وأكبر من ذلك لأنه كان مبعث ذلك النور الروحانى الذى أضاء نفوس الناس وهذب من طباعهم ، فعلى ضفاف النيل بدأ الناس منذ آلاف السنين يؤمنون بالبعث ويدعون إلى حياة طاهرة ، ووصلوا منذ آلاف السنين إلى أسمى ما يفكر فيه الناس من دعوة إلى الخلق الكريم ، وكان فى مصر كما فى غيرها ديانات وأساطير وآداب انتشرت بين شعوب العالم القديم وتغلغت معانيها ومراميها فى النفوس ، وكان لها أثرها الكبير عندما أخذت تلك الشعوب ترقى سلم المدنية وقدر لها أن ينتشر دينها وأدبها بين غيرها من شعوب العالم .

وزاد إيمان برستد بأهمية حضارات الشرق بعد أن بدأ يجوب بلاده منذ عام ١٩٢٠ وأخذ يعد العدة لتحقيق حلم قديم له وهو إنشاء معهد للدراسات الشرقية فى شيكاجو والقيام بحفائر فى مختلف بلاد الشرق القديم ، فى مصر ، وفى العراق ، وفى فلسطين وفى سوريا ، وفى ايران ، وفى تركيا . وأخذت حفائر المعهد الشرقى تأتى بنتائج باهرة جديدة ، وزاد اهتمام العالم كله ببلاد الشرق القديم ، واهتمت حكومات البلاد الشرقية والمعاهد والمتاحف الأوربية بدراسة آثار الشرق وحضاراته ، فشهد العالم

بين أعوام ١٩٢١ ، ١٩٣٩ نهضة أثرية لم يكن للناس عهد بها من قبل ، وأدت بعثات المعهد الشرقى وعلماؤه واجبهم خير الأداء ، ونشروا أبحاثهم فى مئات من المقالات والكتيبات والتقارير والكتب ، وكان برستد شيخ المؤرخين حركة دائبة مستمرة بين شيكاجو وبلاد الشرق ، وكانت أعماله الادارية ومسئولياته كثيرة ولكن لم يمنعه ذلك من أن يفكر فى اصدار طبعات منقحة جديدة أو بعبارة أخرى يعيد كتابة بعض مؤلفاته . ومنها كتاب « انتصار الحضارة » الذى أعد له كثيراً من الزيادات والاضافات ، ولكنه مات فى ديسمبر سنة ١٩٣٥ وهو فى سن السبعين دون أن يقدمه للمطبعة ، فقامت بذلك مساعدته الدكتورة إديث وير Edith Williams Ware وظهرت الطبعة الأخيرة فى عام ١٩٣٨ تحمل اسم مؤلفها وعلى صفحتها الأولى كتب الناشر : « طبعة جديدة . أعيدت مراجعتها وترتيبها إعادة كاملة . تحوى نصا جديداً فيه استدراكات وملاحظات المؤلف نفسه » .

ولكن موت برستد لم يمنع معهده من الاستمرار فى تأدية رسالته ولم يمنع مساعديه وتلاميذه من السير بالأبحاث الأثرية إلى الأمام ، ونشر كثير منهم كتبا عدة فى تاريخ مصر وغيرها من بلاد الشرق القديم ولكن لم يكتب واحد منهم كتابا ليحل مكان كتابه عن « انتصار الحضارة » رغم مضى سبعة عشر عاما على ظهوره .

وانى مؤمن أشد الإيمان بأنه لن يمكن لأى طالب من طلبة التاريخ فى أى شعب من شعوب الشرق أن يفهم تاريخ بلاده القديم دون أن يدرس فى الوقت نفسه تاريخ الأمم المعاصرة لها ، ويعرف ما أخذته مدنية بلاده وما أعطته ، ويجب عليه أن يدرس أولا تلك الحضارة مجتمعة ثم يستزيد من أى واحدة منها كما يشاء .

وكتاب « انتصار الحضارة » من خير الكتب التى ألفت لمنفعة الطلبة ، لم يقصد به مؤلفه أن يكون للمختصين أو للمتعمقين فى البحث أو الذين يعنون بالتفاصيل

ولكنه مكتوب للطالب المبتدىء الذى يريد أن يعرف كيف تطورت المدنية وكيف ارتقى الانسان وماذا وصل إليه فى حضارته فى كل بلد من بلاد هذا الشرق . كتبه بلغة سهلة مقبولة ، وهو موضوع فى الأصل للطالب الأمريكى ، ولكنه صالح دون شك لكل طالب فى كل مكان .

ويحوى كتاب «انتصار الحضارة» ثلاثين فصلا ومجموع صفحاته ستمائة وخمسون لم يترجم منها فى هذا الكتاب إلا الفصول الثمانية الأولى ومجموع صفحاتها مائتان وأربع وثلاثون وهى التى تتناول شعوب الشرق القديم فقط اذ يبدأ تاريخ اليونان وغيرهم من شعوب العالم بابتداء الفصل التاسع .

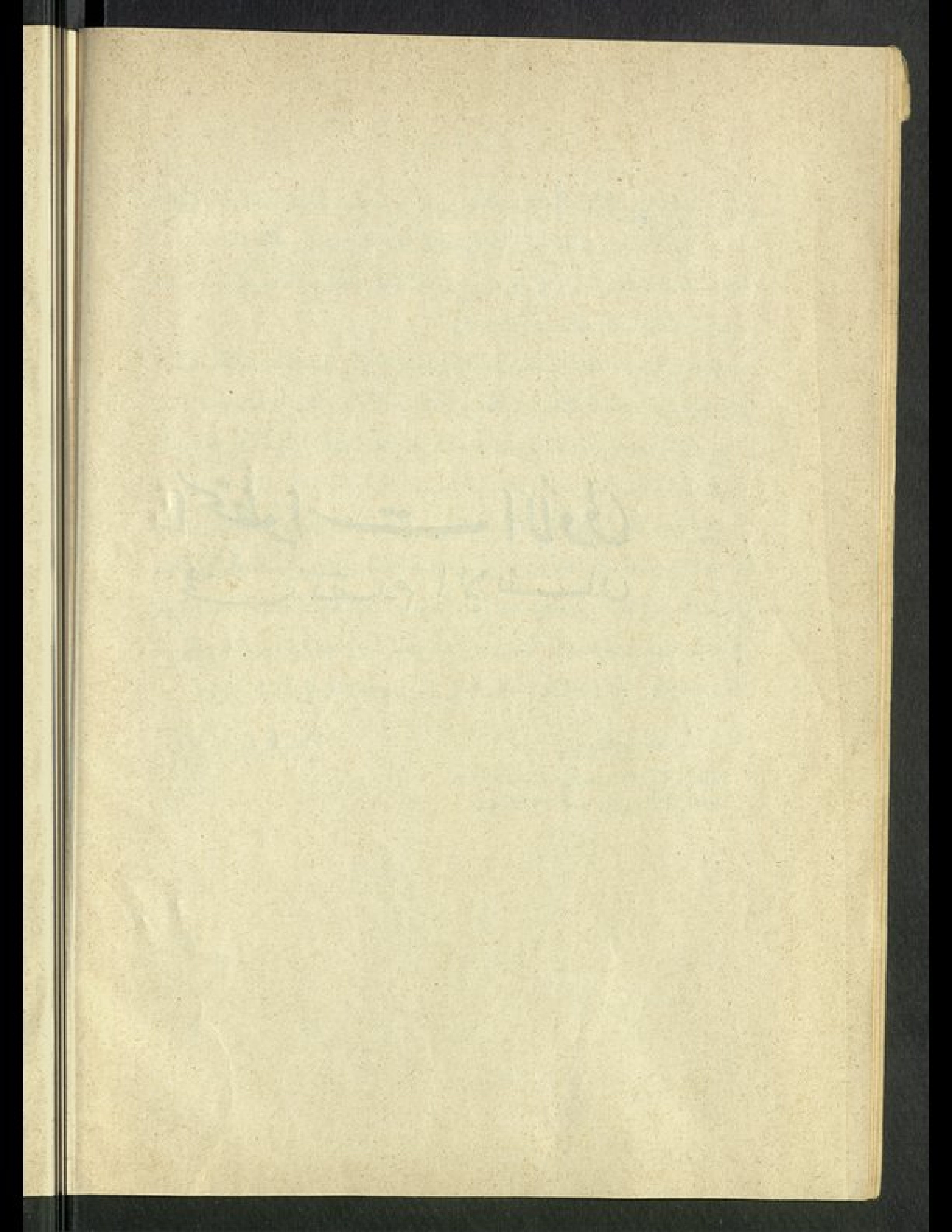
ولم اتردد كثيراً فى قبولى الاشراف على نقل هـــذه الفصول الثمانية إلى اللغة العربية لثقتى التامة بأن القارىء العربى وخاصة الطلبة فى مسيس الحاجة إلى مثلها ، وأسأل الله جل شأنه أن يستفيد منها أبناء الشعوب العربية ما استفاده زملاؤهم من الطلبة الغربيين . فانها فصول كتبها رجل عالم عظيم آمن بحضارة اجدادهم وظل إلى يوم وفاته يعمل بجد واخلاص لنشر فضل الشرق ومدنيته على البشرية جميعا .

والله ولى التوفيق　　　　　　أحمد فخرى

القاهرة فى ٢٩ شعبان سنة ١٣٧٤ هـ
الموافق ٢٢ ابريل سنة ١٩٥٥ م

الخطوات الأولى

فى تقدم الإنسان



الفصل الاول

كيف بدأ الانسان حياته جامعا للغذاء
أقدم أساليب المعيشة الانسانية ..

لم تمض غير قرون قليلة على الوقت الذى كان فيه منظر هجوم ذئب جائع من الغابة ليخطف طفلا من الطريق فى قرية من قرى شمال أوروبا أمراً عاديا ، بل وفى ايامنا هذه مازال النمر الآكل للبشر فى الهند ، والأسد المفترس فى أفريقيا، مستمرين فى قتل الانسان ونهش لحمه .

وانقرضت تدريجيا الحيوانات الكبيرة الثدية رغم قوتها العظيمة ، ولم تستطع مقاومة القوى الطبيعية التى استطاع الانسان أن يتغلب عليها ، إذ ربى الانسان فى نفسه المقدرة على مواجهة الحيوانات الثدية التى كانت تنافسه فى السيطرة على الأرض ، وبهذا أصبح تقدمه ساحقا لايعرف الرحمة، فاختفت الزرافة والفيل من شمال وادى النيل فى بداية العصور التاريخية ، على الرغم من أن الأسلحة التى استعملها الذين عاشوا فى عصر ما قبل التاريخ كانت أسلحة بدائية ، وكذلك تسبب الملوك المحبون للصيد فى بلاد الشرق القديم فى القضاء على الفيلة الآسيوية من سهول أعالى الفرات منذ بضعة آلاف من السنين .

وكلنا نعلم جيداً كيف تم القضاء على حيوان البيسون فى أمريكا وكذلك كيف أصبحت الفصائل الباقية من الغوريلا على وشك الاختفاء من أفريقيا ، مما جعل علماء التاريخ الطبيعى يرون أن تقدم صناعة الأسلحة فى الأجيال القليلة الماضية كاد يجعلنا نصل إلى آخر عصر الثدييات .

وليس هذا إلا مثلا واحدا واضحاً لانتصار الإنسان، فإن تفوقه لم يأت إلا بطيئاً

جداً ، وعلى مراحل تدريجية . واستطاع العلم الحديث أن يتتبع تطور تلك المراحل على مدى مئات الآلاف من السنين ، ونستطيع أن نرى بجلاء ، وخطوة بعد أخرى ، كيف ازدادت مقدرة هـــذا الإنسان فى الدفاع عن كيانه بين العناصر المتنافسة على الحياة ، وتحصين نفسه أمام قوى الطبيعة ، وقد ازدادت إلى حد كبير عندما أصبح هـــذا الانسان أول المخلوقات بل والوحيد من بينها الذى أمكنه صنع الأدوات .

ونحن نعرف عن بعض الحيوانات قدرتها على مسك العصا أو قطعة من الحجر واستعمالها كآلة فى يدها ، ولا شك أن السلف من أجدادنا الذين عاشوا فى أقدم عصور الانسانية فعلوا ذلك أيضاً ، ولكن هؤلاء السلف الأوائل خطوا خطوة إلى الأمام وكانت خطوة أساسية لم يستطع غيرهم من المخلوقات أن يخطوها . لاحظ الإنسان أن حجره الذى التقطه من الأرض لم يكن ملائما ملاءمة تامة لغرضه ، لقد فحص شكله ولم يرض عنه ، وعدم الرضاء عامل مهم فى التقدم بل أساسى له . وهكذا ربما خطر لأحد الرجال البدائيين والذى كانت لديه موهبة التفكير أكثر من غيره أن يضرب حجرا بآخر ، وهكذا تمكن من تحسين شكل الحصاة التى التقطها وجعلها أكثر ملاءمة للغرض الذى أراد أن يستعملها فيه ، وبهذا صار أول المخلوقات التى صنعت الأدوات . أصبح مخلوقا يستعمل ذكاءه لا لسد جوعه بما يجده من مواد غير حية فحسب بل يستعمل ذكاءه أيضاً لتشكيل بعض أنواع الجماد لتصبح أدوات تساعده كثيراً فى السيطرة على دنياه التى حوله وما فيها من كائنات حية أو غيرها .

وتقدمت خبرة هذا الانسان فى صناعة الأدوات والآلات وتدبير الحيل الآلية . ولم تقف هذه الخبرة عند الحد الأول بل استمرت وكان لها أعمق الأثر فى ارتقائه . وكانت مقدرته فى صناعة الأدوات السبب الرئيسى فى تطور مركز هـذا الانسان فى الحياة الانسانية .

ولكى ندرك هذا الأمر يجدر بنا أن نتلفت أولا حولنا ثم ننظر إلى الوراء

فإننا نعرف جميعاً أن أجدادنا لم يستمعوا فى حياتهم إلى جهاز الراديو أو رأو طائرة عندما كانوا فى سن الطفولة ، وأن قليلا جداً من بينهم من استقل سيارة فى يوم من الأيام.وعاش آباء هؤلاء أكثر أيام حياتهم بغير نور كهربائى أو تليفون فى منازلهم. وكان أجدادهم مضطرين لقطع مسافات شاسعة فى عربات السفر التى تجرها الجياد. ومن بين هؤلاء من مات دون أن تكتحل عيناه برؤية القاطرة . فقد اخترعت هذه الأشياء واحدة تلو الأخرى ووصلت إلينا ، وسنخترع أشياء أخرى وستؤثر فى حياتنا . وكل واحد من هذه الاختراعات يستند إلى ما كان قبله ، ولولاها لكان من المستحيل أن تتحقق إذا لم تسبقها أبحاث أقدم منها ، وإذا تعمقنا قليلا فى دراسة تاريخ الجنس البشرى فأنه يسهل علينا أن نتصور اليوم الذى عاش فيه الإنسان وكان من المستحيل عليه عمل عربة سفر أو أى نوع من العربات لأن العجلة لم تكن قد اخترعت بعد ولأن أحداً لم يذلل الجواد البرى .

وقبل تلك الأيام لم تكن هناك سفن ولم يكن هناك سفر أو تجارة عن طريق البحر ، ولم تكن لديه أدوات معدنية لأنه لم يكن هناك من رأى معدناً إذ ذاك . وكان من المستحيل أن تقام مبان جميلة أو أى أبنية من الحجر إذ لم يكن الإنسان قد عرف استعمال أدوات من المعدن لقطع الأحجار . ولم يكن ميسوراً لأحد من الناس أن يكتب شيئاً لأن الكتابة لم يكن قد اخترعها أحد ، وبالتالى لم تكن هناك كتب أو أى معرفة بالعلم .

فاذا ما تعمقنا أكثر من ذلك فى الالمام بقصة الانسان نجده همجياً ولكنه أرقى قليلا من الحيوانات التى حوله مهما كانت متقدمة ، إنه لم يكن يمتلك شيئاً غير يديه الفارغتين يستعملهما لحماية نفسه وإشباع جوعه وتأدية كل أغراضه الأخرى . ولاشك أنه كانت تعوزه القدرة على الحديث المنتظم ولم يكن فى مقدوره أن يشعل النار ولم يكن هناك من يعلمه شيئاً من ذلك . وهكذا كان أقدم البشر مضطرين لأن يتعلموا كل شىء بأنفسهم عندما بدأوا فى تلك الحالة . وكان سبيلهم

إلى ذلك التجربة البطيئة والمجهود الطويل . لقد مرت أجيال طويلة على هذا الإنسان وكان فى ذهنه الهمجى شىء من شعاع الذكاء ولكنه لم يحقق شيئاً من هــذه الاختراعات بل لم يفكر فى أنه فى استطاعة الإنسان أن يتمكن من إنتاجها . ثم جاء الوقت الذى أخذ فيه يخترع كل أداة من هـذه الأدوات مهما كانت بسيطة لأنه لم يكن هناك شىء منها . وهكذا نرى أن قصة تاريخ الإنسان هى — إلى حد غير قليل — قصة الانتصار على الموارد المادية باستعمال حيــل مختلفة وأدوات وأشياء آلية ، إذا ما أدخلنا فى حسابنا النتائج التى ترتبت على اختراع هذه الأدوات فى النواحى الاجتماعية والسياسية والفنية والدينية . لقد كانت قطعة الحجر التى استصلحها هذا الإنسان البدائى ليستعملها كسلاح فى قبضة يده رمزاً مميزاً للعصر الحجرى قبل مائتى ألف سنة مضت . كما أصبح البخار أو الاسطوانة الكابسة فى الآلات التى تدار بالبترول رمزاً على عصرنا الحاضر [١]

لم يعد يعيش على سطح الأرض أى قوم على الحــالة التى كان عليها يعيش أقدم البشر أى دون أن يكون لديهم أى علم بالأدوات أو الآلات . ولكن هناك بعض أقوام متأخرين يحيون حياة همجية وكانوا عند العثور عليهم يحيون حياة من أحط أنواع الحياة السائدة بين القبائل الهمجية ، ويكادون يشبهون أسلافنا البدائيين . ولنضرب مثلا لذلك بسكان جزيرة تسمانيا [٢] الذين انقرضوا الآن فقد كانوا عندما اكتشف الهولنديون جزيرتهم منذ أكثر من ثلاثمائة سنة يعيشون عراة الأجسام ولم يكونوا قد تعلموا بعد كيف يصنعون قوساً أو سهاماً ولم يعرفوا

---

١ ـ كان ذلك قبل الحرب العالمية الثانية صحيحا أما الآن فان الاختراعات تقدمت كثيرا وغطى استخدام الذرة على ما سبقه من اختراعات وأصبحت هى الرمز المميز للعصر الذى نعيش فيه ـ المعرب

٢ ـ جزيرة Tasmania تابعة لاستراليا وتقع الى الجنوب منها يفصلهما مضيق باس Bass Strait اكتشفها الملاح الهولندى الشهير أبل تسمان Abel J. Tasman فى عام ١٦٣٩ ـ وهو الذى يرجع اليه الفضل أيضا فى اكتشاف نيوزيلاندا وجزائر تونجا وجزائر فيجى ـ المعرب

صيد السمك إلا بوساطة استعمال الحربة . ولم يكن لديهم خيول أو حتى كلاب . ولم يسمعوا فى حياتهم شيئاً عن بذر الحب أو زرعه ليخرج محصولا من أى نوع . ولم يعرفوا أن الطين يصبح صلباً إذا وضع فى النار . وترتب على ذلك أنه لم يكن لديهم أوان أو أباريق أو أطباق من الفخار لحفظ الطعام . وبالرغم من أنهم كانوا عراة ولا مأوى لهم ، فقد تعلم هؤلاء التسمانيون كيف يؤدون القليل من حاجات الإنسان ، ومع ذلك فإن هذا القليل الذى تعلموه حملهم إلى الامام مسافة غير قليلة تفوقوا فيها على الحالة التى كان عليها أقدم أفراد الجنس البشرى . كان فى استطاعتهم أن يوقدوا النار التى كانت تدفىء أجسامهم فى أيام البرد ، وكانوا يطهون عليها اللحم . وتعلموا كيف يصنعون حرابا من الخشب كانت جيدة الصنع جداً ، ولكن لم يضعوا قطعة من المعدن فى آخرها لأنهم لم يكونوا قد سمعوا به . بل كانوا يضعون فى آخر هذه الحراب الخشبية قطعاً من الحجر بدلا من المعدن . وأحسنوا استعمال هذه الحراب ، وكانوا يقذفونها بدقة عظيمة فيصيبون صيدهم الذى كانوا يحتاجونه للطعام ويطاردون بها أعداءهم من الناس . وكانوا يعرفون أيضا كيف يأخذون حجراً مسنوناً ويشذبون أطرافه ويجعلونها رقيقة فتصبح سكيناً استعملوها رغم أنها كانت غير متقنة وبدائية الصنع لسلخ الحيوانات التى اصطادوها وتقطيع لحومها . وكانوا مهرة جداً فى صنع فناجين وأوانى وسلال من لحاء الشجر . لكن اهم من ذلك كله انه كانت لهم لغة بسيطة تحتوى على كلمات لجميع الأشياء العادية التى استعملوها أو فعلوها فى حياتهم اليومية .

عاش أقدم البشر عدة مئات من آلاف السنين حياة أقل حضارة من حياة التسمانيين ، وقد عثر العلماء على مخلفات هذه الحياة غير المتمدينة فى كثير من أرجاء أوروبا وآسيا وإفريقيا ، ولكن لا يعرف أحد فى أى مكان تمت جميع المراحل التى ساعدت على تكوين الإنسان كما نعرفه الآن ، أو بعبارة أخرى المكان الذى تمت فيه عوامل

ما نسميه الآن بالنشوء وهناك أدلة لا بأس بها تجعلنا نظن أن ظهور الانسان لأول مرة كان فى أفريقيا . كما أن هناك أدلة لا بأس بها أيضاً على أنه نشأ فى آسيا . وكان ظهور الانسان فى ذلك الزمن البعيد الذى يسميه الجيولوجيون باسم البليوسين Pliocene أى منذ بضع ملايين من السنين ، وكان فى نشأته الأولى لا يكاد يختلف عما حوله من الحيوانات الأخرى التى عاش بينها . كانت هذه الحيوانات أقل ذكاء منه ولكنه شابهها فى عدم تركه وراءه ما يبقى على مر الأيام ليدل على وجوده ، فقد كان التقدم الذى رفعه إلى مستوى أعلى من مستوى الحيوانات المنافسة له يكاد لا يحس به أحد فى البداية ، كان بطيئاً جداً ، إذ استغرق التقدم الذى أوصله إلى عتبة الحضارة ملايين السنين كما استمر هذا البطء أيضاً بعد أن خطا تلك الخطوة وبعدأن أسرعت به اختراعاته وأدواته التى صنعها بيديه منذ مليون سنة على الأرجح.

واستطاع الأثريون فى غرب أوروبا أن يجمعوا من مصادر متعددة ما مكنهم من كتابة قصة مفصلة جداً لحياة الإنسان قبل ظهور المصادر المكتوبة ، وجاءت الاكتشافات الحديثة فى إفريقيا وآسيا وشرق أوروبا فأيدت إلى حد كبير النتائج التى وصل إليها زملاؤهم العلماء الذين كانوا يعملون فى غرب أوروبا ، وهكذا أظهرت الأبحاث فى كل المناطق التى كانت ميدانا للبحث تشابها عاما فى تتابع مراحل التقدم الإنسانى نحو الحضارة . ولكن كيفما كان الأمر فمن الواضح أن مثل هـذا التقدم لا يمكن أن يحدث فى وقت واحد أو على وتيرة واحدة فى أمكنة مختلفة فى العالم . فثلا استطاع كل من سكان مصر وغرب آسيا من اختراع الكتابة قبل أن يعرف غربى أوروبا أية طريقة للكتابة بثلاثة آلاف سنة . وكذلك استعمل المصريون وسكان غربى آسيا الأدوات المعدنية وكانت لهم صلة تجارية بغيرهم من الأمم بوساطة السفن فى الوقت الذى كان فيه الأوروبيون مازالوا يبنون منازلهم مستعينين بأدوات من الحجر ، ولم يعرفوا على الأرجح أية وسيلة من وسائل الملاحة غير الزورق المنحوت فى

جذع الشجرة . ومع هذا فهناك أمر اتفق عليه جميع الباحثين وهو أن مراحل الحضارة القديمة التى كانت أساسا لحضارتنا الحالية لم تنشأ فى قارة أوروبا بل إنها تطورت فى الناحية الشرقية من البحر الأبيض المتوسط فى كل من مصر وغرب آسيا ، ولكنه من الأسلم بل ومن الافضل أن نتتبع قصة حضارة الإنسان فى أقدم عصوره فى كل بلاد البحر الابيض بدلا من تتبعها فى قطر واحد لان هؤلاء الناس عاشوا حول هذا البحر ثم انتشروا منه إلى داخل القارات فذهبوا شمالا إلى البحر الشمالى وعبروا إلى الجزر البريطانية وانتشروا جنوبا عبر إفريقيا فى المنطقة التى نسميها الصحراء الكبرى واتجهوا أيضا نحو الشرق حتى اجتازوا الخليج الفارسى .

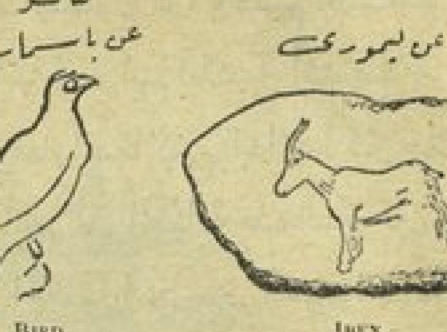
كانت أراضى منطقة البحر الابيض المتوسط عندما ظهر الإنسان مختلفة عما هى عليه الآن فكانت الغابات الشامخة على ضفتى مجارى الانهار فى أوروبا ، وكانت تملأ كثيرا من وديانها المتسعة ، وكانت تغطى أيضا أجزاء من هضبة الصحراء الكبرى التى كان أكثرها فى تلك الايام منطقة خضراء وفيها المياه الكافية . وكانت أفراس النهر ذات الحجم الهائل تتمرغ على شاطىء تلك الانهار ، وكان وحيد القرن الشرس الطباع يهاجم ما يعترض طريقه فى النباتات الكثيفة على جانبى الانهار . وكانت هناك فيلة ذات أنياب هائلة الحجم ترعى إلى جانب ما بقى إذ ذاك من حيوانات . أما فى أوروبا فإن أسلاف ماشيتنا الاليفة كانت ترعى فى المرتفعات ، وكانت أسراب الايائل تأوى إلى بعض أشجار الاماكن الفسيحة فى وسط الغابات . وكانت قطعان الخيل الوحشية تتجول هنا وهناك ووصل بعضها جنوبا إلى إيطاليا . وكانت بعض الثدييات الافريقية ذات الحجم الضخم تتجول كما يحلو لها فى كل مكان من أوروبا وإفريقيا ومن بينها الفيل الجنوبى (Elephas meridionalis) الذى كثيراً ما يعثر على عظامه الآن فوق المنحدرات العليا لنهر السين (Siene) أو وادى التيمس (Thames) وهذا يثبت أن أفريقيا كانت متصله بأوروبا فى عصر ما ، وأن هذه الحيوانات وصلت براً من الواحدة إلى الاخرى .

أما الناس فكانوا يضربون فى عرض غابات أشجار السـيكويا (sequoia) محترسين عراة الأجسام يجمعون قوتهم اليومى من بين جذور النباتات والحبوب والفواكه البرية حيثما يعثرون عليها ، ينصتون بحذر إلى صوت حيوانات الصيد الصغيرة التى عساهم يحصلون عليها بمساعدة عصيهم الخشبية البسيطة ، لأنه يجب أن نفترض أنهم استعملوا مثل هذا السلاح الخشبي لأن الغابات كانت ملأى بفروع الأشجار الجافة التى سقطت على الأرض .

وفى هذا العصر الخشبي الذى زالت كل ادواته وأسلحته أحس الانسان البدائى بأول دافع فى هذا الكون بأنه فى حاجة إلى تشذيب فروع الأشجار التى سقطت على الأرض ليجعل منها أداة أوسلاحاً لتأدية غرضه ، ومعنى ذلك أن أول مخلوق صنع الأدوات ولد فى ذلك العهد ، وكان بهذا الجـد الأكبر لكبار المخترعين أمثال « وات » Watt و « اديسون » Edison .

وفى فترة من فترات التطور البدائى لهـذا الانسان تطورت أيضا إشاراته الصوتية المعبرة عن الخوف أو الجوع أو العطش أو الأسى إلى أبسط نوع من أنواع الكلام . فكانوا إذا أحسوا بضجة الحيوانات الكبيرة فى الغابة أولمحوا قطعان الفيلة آتية من بعيد يفرون مذعورين وهم يتصايحون لينبهوا إخوانهم . وفى الليل كان الصيادون ينامون فى كل مكان أوصلهم إليه صيدهم ، ينامون بعد تقطيع لحم فريستهم بمدى من الخشب على الأرجح ويأكلونها دون طهى ، ولم يكونوا قد عرفوا النـار ليدرأوا بها الحيوانات المفترسة فكانوا يقضون ليلهم يرتجفون فى الظلام عند سماعهم لزئير النمر الكبير ذى الأنياب الحادة . وأخيرا عرفوا ما هى النار ، عرفوها على الأرجح فى الغابة عندما أصاب البرق شجرة فالتهبت ، ولابد أنهم تعلموا أيضا كيف يخافونها عندما كانوا يقفون بعيدا ويرون البراكين المخيفة مثل « إتنـا Etna » و « فيزوف Vesuvius » وكانت خطوة كبرى يوم عرف





SWAN
(After Tournier
and Costa de
Beauregard)

BIRD
(After
Passemard)

IBEX
(After Lemozi)

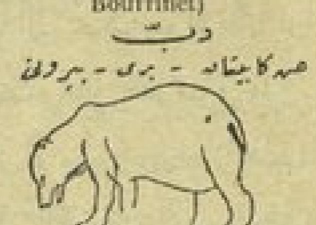


ASS AND FOAL
(After Frobenius-Obermaier)

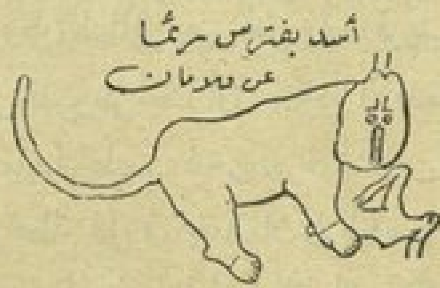
WILD CATTLE
(After Capitan-Breuil-Peyrony-Bourrinet)



BOAR
(After Obermaier-Wernert)



BEAR
(After Capitan-Breuil-Peyrony)



LION DEVOURING ANTELOPE
(After Flamand)



RHINOCEROS
(After Capitan-Breuil-Peyrony)

شكل ١ : حيوانات العصر الحجرى

تلك هي بعض الحيوانات التي نجدها في النقوش الملونة والرسوم التي تركها الانسان الذي عاش في العصر الحجرى . أنظر أيضا شكل ٦

هؤلاء الأوائل بعد وقت طويل كيف يشعلون نارا بأنفسهم ،فاستطاعوا أن يعدوا طعامهم ويدفئوا أجسامهم ثم جعلوا نهاية حرابهم الخشبية أشد صلابة بوضعها فى تلك النار . ولكن لم يستطيعوا أن يجعلوا سكاكينهم البدائية أكثر صلابة كما فعلوا بالحراب . وربما كانت نتيجة ذلك أنهم تعلموا صناعة هذه السكاكين من العظم ، وكثيراً ما التقطوا أيضا حجرا صغيرا مكسورا من حجر آخر واستعملوا حده غير المشذب فيما يستعملون فيه تلك السكاكين من أغراض . وفى يوم من الايام ـ وكان ذلك فى أغلب الظن قبل مليون سنة تقريبا — عرف الانسان كيف يهذب الحجر ليصبح ملائما لحاجته وصنع منه آلة بسيطة أو سلاحا ، وبهذا دخل فيما نسميه الآن العصر الحجرى (Stone Age).

كانت هذه الأسلحة والأدوات الحجرية خيرا مما سبقها فلم تتعفن ولم يقض عليها الزمن مثل مثيلاتها من الخشب والعظم ، وبقيت إلى الآن ، وأصبح فى ميسورنا أن نقبض بأيدينا على الأدوات الحجرية نفسها التى تمكن بواسطتها أوائل الناس من الاحتفاظ بوجودهم أثناء نضالهم المستمر ليحصلوا على القوت ويجدوا مكانا بين مناوئيهم من الحيوانات الضخمة التى كانت حولهم ، وأوضحت لنا هذه الأدوات الحجرية وبقايا أجسام الأوائل التى عثر عليها فى الطبقات الجيولوجية فى صورة لا تقبل الشك مدى الزمن الطويل الذى مضى على الانسان منذ ظهوره فى هذه الدنيا ، وكان من المفروض حتى وقت قريب أن التاريخ الانسانى كان قصيرا نسبيا . وكان من المفروض أيضا أن أجدادنا الأقدمين فى اوائل وجودهم على الأرض لم يخلفوا وراءهم مايدل عليهم . فنحن نعرف مثلا من خطاب مؤرخ فى عام ١٧١٤ أن صيدليا عثر على عظام فيل فى بقعة ملأى بالحصى على مقربة من لندن ، وإلى جانب هذه العظام وجد أيضا سلاحا من الظران . وقد نشر هذا الخطاب عقب الاكتشاف مع رسم لهذا السلاح الحجرى واستنتج الكاتب أن ذلك الحيوان لم يكن إلا فيلا من الأفيال التى كان يستعملها الرومان فى الحرب وأنهم أتوا به إلى تلك البلاد ، ولم يلق



شكل ٢ : جماعة من هنود أمريكا الشمالية يصنعون آلات الظران

يقوم الشخص الاخير فى الصورة بانتقاء حجر كبير ، وتلك هى المادة الاولية التى يأخذها الهندى الذى فى الوسط ليحطمها فوق صخرة الى قطع صغيرة . ويأخذ الهندى الثالث احدى تلك القطع بعد ذلك فى يده اليسرى ويضربها بحجر فى يده اليمنى ، فتتناثر شظايا الظران وقد برع ذلك الهندى فى عمله وأصبح من السهل عليه أن يشكل تلك القطعة الى فاس من الظران . وكانت هذه العملية ، وهى عملية تشكيل الظران بوساطة الطرق أو القرع هى أقدم الطرق واكثرها سذاجة ، وكانت لاتنتج الا الادوات الحجرية الخشنة الصنع

أحد بالا إلى هذا الاكتشاف وسرعان ما نسيه الناس . وفى مدى قرن من الزمان بعد ذلك تكرر العثور على أمثال هذا الاكتشاف سرا فى انجلترا أو فى القارة الأوروبية وكان مصيرها أيضا النسيان . وظل الأمر كذلك حتى عام ١٨٦٠ أى بعد مضى ما يقرب من قرن ونصف على العثور على هذا الاكتشاف . ففى ذلك الوقت فقط تفتحت عيون العلماء على حقيقة طول فترة وجود الانسان على سطح الأرض ، وعرف العلماء أن الانسان خلف وراءه كثيراً من تلك الأدوات الحجرية منذ مليون سنة [١] على الأرجح وعرفنا من دراسة هذه الأدوات كيف كان هذا الانسان يحسن وسائل حياته وذلك من تقدمه فى صناعة وتشكيل الأحجار واطراد التحسن فى الصناعات الأخرى التى بدأ يتعلمها . كانت أوروبا وخاصة فرنسا أولى البلاد التى بدأ فيها بحث العلماء عن أدوات ومخلفات الانسان الذى عاش فى العصر الحجرى . إذ ترك الصيادون الأوائل بعض آلاتهم الحجرية البدائية وأسلحتهم جنبا إلى جنب مع عظام الحيوانات الكبيرة التى قتلوها . وبقى كل ذلك فى الرمال والحصى على جوانب مرتفعات الوديان التى كانت تجرى فيها أنهار فرنسا قبل أن تعمق مجراها . وعثر الحفارون فى فرنسا على الكثير من مخلفات الحياة فى العصر الحجرى . وكانت كثيرة إلى حد جعلهم ينشئون مجموعات فى المتاحف لتلك الأدوات

---

١ ـ أثبتت ابحاث بعثة دراسات ما قبل التاريخ التى قام بها المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو فى مصر ان المرحلة الاولى التى بدا فيها الانسان يصنع الادوات ترجع الى فترة البليو بليستوسين (Plio-Pleistocene) اى الى العصر الذى يسبق مباشرة بداية البليستوسين او العصر الجليدى اما الجيولوجيون الامريكيون فيرون ان منطقة أعالى نهر المسيسيبى هى خير مكان فى العالم لدراسة العنصر الزمنى فى العصر الجليدى . وقد وصل الدكتور جورج كاى George F. Kay بعد دراسات طويلة متصلة وخاصة فى قطاعات فى ولاية ايوا (Iowa) الى القول « ويلوح انه امر محقق اذا قلنا ان عصر البليستوسين (اى عصر الجليد) استمر مليون سنة وربما ضعف هذا الوقت » (انظر خطابه كنائب رئيس الجمعية الجيولوجية الامريكية George F. Kay, Classification and Duration of the Pleistocene Period. فى مجلة Bulletin of the Geological Society of America, vol. 42 (1931) P. 466

ولكننا يجب ان نضع فى ذهننا ان ما وصلت اليه معلوماتنا فى البحث فى هذا الموضوع لا يكفى لوضع تاريخ محدد لايحتمل الشك

الحجرية ؛ وظهر بعد ذلك الكثير من أمثالها وبنفس الكثرة أيضا فى ممالك أوروبية أخرى ، وهكذا كان الأمر فى شمال أفريقيا إذ عثر الباحثون على آلات حجرية فى منطقة تبدأ من الجزائر إلى أسفل وادى النيل ، وفى آسيا أيضا على امتداد الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط .

وبالرغم من أن هؤلاء الأوائل من بنى الانسان كانوا على ما يظهر يموتون بكثرة نتيجة لحياتهم المحفوفة بالمخاطر فإنهم استمروا آلاف السنين فى كفاح مر لأجل البقاء ، وتحسنت أسلحتهم البدائية المصنوعة من الحجر ، وكان هذا التحسن بطيئا ، ومن المحتمل أنهم تعلموا أيضا كيف يصنعون أدوات أخرى من الخشب ، ولكن الأخيرة تعفنت واختفى أثرها ولم نعد نعرف شيئا عنها .

لم يكن هناك حيوان لم يجد فيه هؤلاء الصيادون عدوا لهم ، وكان عليهم أن يجردوا كلا من أسلحتهم الصغيرة ومكرهم ليحاربوا بها قوة الحيوانات ومكرها . لم يكن هناك حتى ذلك العهد كلب أو شاة أو طير يعطفون عليه ، إذ كان سلف هذا الكلب الأليف مازال حيوانا مفترسا شبيها بالذئب يعيش فى الغابة يثب على كل صائد لا يكون على حذر . وكانت أسلاف حيواناتنا الأليفة بوجه عام تتجول فى الغابات فى حالة وحشية . ولكن مع كل هذه الصعاب ورغم كل ما كان يعوق طريقه فى سبيل البقاء فقد كان ذلك الانسان الذى عاش فى عصر البليستوسين أسعد حظا من أخيه الذى جاء بعده ، وذلك أنه كان يعيش فى جو دافىء معتدل حيث كان جمع القوت أمراً سهلا ميسورا .

العصر الجليدى الكبير

والانسان فى العصر الحجرى القديم

كانت الأرض فى ذلك الوقت غنية بحيوانها ونباتها ولكنه كان مقدرا لها أن تمر بفترة من أحرج الفترات فى تاريخها . كانت هناك عمليات تكوين فى الجبال وحركات أرضية فى عصر البليوسين Pliocene ولما كانت هذه العمليات مرتبطة بتغيرات مناخية هامة تأتى على أثرها فإن نتائجها كانت دائما وخيمة العاقبة . ولم يكتشف الجيولوجيون والمناخيون حتى الآن السبب الذى جعل المناخ يصبح أشد برودة وأكثر رطوبة مما كان عليه منذ آلاف السنين ، وتساقطت الثلوج بكثرة وخاصة على قمم الجبال نتيجة لهذا التغيير وبدأت تلك الثلوج تتراكم وتنتشر حول مراكز سقوطها . وفى النهاية تكونت طبقات هائلة من الثلج فوق الأرض تقدر مساحتها على سطح الأرض بنحو ١٢ مليون ميل مربع . وفى العصر الذى بلغ فيه الثلج أقصاه يرى بعض الباحثين أن الثلج امتد عبر أمريكا الشمالية وجنوبا حتى جزيرة لونج (Long Island) وغربا حتى وديان أوهيو (Ohio) وميسورى (Missouri) وفى أوروبا وآسيا وصلت حواف الطبقات الجليدية الشمالية العظيمة إلى الساحل الجنوبى لإنجلترا وامتدت جنوبا وشرقا عبر أوروبا حتى خط عرض ٥٠ فى وادى الدنيبر Dnieper ، ومن هناك اتجهت شمالا وشرقا إلى جبال أورال . ويظهر أن مساحات أخرى من الثلاجات زحفت من جبال البرانس (Pyrenees) والألب وجبال الكاربات Carpathians والبلقان فى أوروبا ، ومن سواحل آسيا الصغرى ، ومن لبنان والقوقاز والزاجروس (Zagros) وغير ذلك من جبال ايران فى غرب آسيا ومن القمم المرتفعة فى وسط آسيا .

أما فى نصف الكرة الجنوبى فإن الثلاجات تركزت فى القارة المتجمدة الجنوبية .

وسنطلق على هـذا العصر الجليدى ، اسم « العصر الجليدى الأعظم » تفرقة له من عصور جليدية أخرى حدثت فى فترات سابقة من تاريخ الأرض .

ويعمل الجيولوجيون على تحديد حركات وامتداد طبقات الجليد من الآثار التى خلفتها . ومثل هذه الظواهر ـ ظواهر تحركات طبقات الجليد ـ توجد فى الوديان المتكونة من تآكل التربة . وتوجد مثل هذه الدلائل عن تحركات الغطاء الجليدى فى أماكن وجود الصخور المتنقلة ، وتوجد أيضا فى طبقات الطين المتراكمة فوق بعضها أو فى المستويات المتوازية المحفورة فى الصخور التى مرفوقها الغطاء الجليدى .

ومن النتائج التى وصل إليها العلماء فى دراسة مجارى الثلاجات ، القطع بوجود عدة عصور جليدية تفصل بينها فترات أدفأ عندما ذابت الثلوج تماما أو قلت نسبيا . ويختلف الجيولوجيون الآن فى تحديد عدد العصور الجليدية إلا أنهم متفقون فى وجود اختلاف فى المناخ أثناء العصر الجليدى الأعظم وماتلا ذلك خلال نحو مليون من السنوات عندما كانت الطبقات الجليدية تزحف وتتراجع مرات عدة . ومن الواضح أن المساحات المحيطة بالطبقات الجليدية كانت شديدة البرودة ، ولكن بالرغم من هذا فقد كانت هناك أجزاء كبيرة من فرنسا والنمسا والمانيا لم تكن مغطاة بتاتا بالثلوج وأن كثيرا من رواسب الفترات التى تخللت العصور الجليدية تحتوى على بقايا حيوانات مما تعيش فى المناطق المعتدلة أو النصف استوائية مثل فرس النهر والأسد فى إنجلترا والجمل وحيوان التابير (tapir) فى جنوب أمريكا الشمالية . وفى خلال الفترات التى فصلت بين العصور الجليدية كان مناخ أوروبا وأمريكا الشمالية دافئا كما هو الآن . وعلى هذا يمكننا القول بأن مساحات كبيرة من أمريكا الشمالية وأوروبا كانت آهلة بالسكان طوال العصر الجليدى الأعظم الذى يطلق عليه الجيولوجيون اسم پليستوسين Pleistocene

وكان زحف الجليد سببا فى جعل حياة الناس الأوائل شمال حوض البحر

الأبيض المتوسط شديدة قاسية ، ومن الجائز أن هؤلاء الاوروبيين الأقدمين تقدموا كثيرا فى ثقافتهم فى الفترات التى توسطت عصور الثلج ، وإذا فحصنا خريطة لشمال إفريقيا فإننا نرى أن فى المنطقة الواقعة جنوب البحر الأبيض المتوسط لاتوجد إلا مساحة واحدة من تلك المساحات التى كانت تغطيها الثلوج وهى التى تقع فى أقصى الغرب فى المنطقة المجاورة لجبال أطلس . ومن ثم لم تزحف الثلوج على الهضبة المستوية فى شمال إفريقيا وهى المنطقة التى نسميها الآن هضبة الصحراء الكبرى .

ومن المحتمل أن نفس الرطوبة الجوية التى كونت الثلاجات الهائلة على الجانب الشمالى للبحر المتوسط كانت هى العامل نفسه الذى سبّب سقوط أمطار غزيرة على الجانب الجنوبى فوق تلك الهضبة ، وكان من أثرها نمو المراعى والغابات والأحراش فى أجزاء كثيرة منها . ومن المحتمل أن الصيادين تتبعوا الحيوانات عبر هذه الأراضى الخصبة فى شمال إفريقيا كما هو الحال الآن فى الهضاب الواقعة فى وسط جنوب إفريقيا. وكان هؤلاء الصيادون الأوائل يسيرون وراء الحيوانات إلى المجرى الذى حفره نهر النيل عبر الحد الشرقى للصحراء . وكان النيل فى ذلك العهد أوسع بكثير مما هو عليه الآن . وكان مثل نهر الميسورى (Missouri) يغير مجراه ولا يرجع إلى مجراه القديم مرة أخرى . وقد كشف البحث منذ وقت غير بعيد عن أحد المجارى الجافة لهذا النيل القديم الذى يبلغ طوله أكثر من ٥٠ ميلا موازيا لمجرى النهر الحالى . وعند الحفر فى تراب مجراه إلى عمق أكثر من ١٨ مترا وجد الأثريون بعض أسلحة حجرية للصيادين الأوائل من الهضبة المستوية (الصحراء الكبرى) فقدوها أثناء بحثهم عن الحيوانات على ضفاف النهر ، وكان ذلك منذ مليون سنة على الأرجح .

وتسمى أقدم الآلات التى صنعها الإنسان باسم الباليوليتية Paleoliths ويسمى الأثريون الوقت الذى صنع فيه الإنسان هذه الأدوات بالعصر الباليوليتى أو العصر الحجرى القديم . وإذا أردنا تحديد مكان هذا العصر بين العصور الجيولوجية

من تاريخ الأرض فاننا نرى طبقات البلايستوسين Pleistocene strata في الطبقات الباليوليتية Paleoliths في جميع الأراضي الواقعة حول البحر الأبيض المتوسط . وعلى هذا فان العصر الحجرى القديم للإنسان اتفق مع كثير من فترات العصر الجليدى الأعظم ، وتلك الادوات الباليوليتية مصنوعة من الظران ، وكانت تهذب لتأدية الشكل المطلوب بطريقتين : أولاهما وأقدمهما طريقة الطرق أى شظف قطعة بضربات من قطعة أخرى ، وثانيتهما الطريقة الاحدث وهى الضغط وذلك باستعمال قطعة صلبة من العظم أو القرن لتهذيب جانب واحد ثم يلى ذلك تهذيب الجانبين معا[1]. ومن أهم الادوات التى تميز أدوات العصر الباليوليتى نوع من الفؤوس هو أقدم الآلات اليدوية الثقيلة . وهذا النوع هو ما اصطلح الأثريون على تسميته باسم « قبضة اليد » (Coup de poing) وقد وجد الكثير من الفؤوس فى الحصى فى كثير من المناطق حول البحر الابيض المتوسط كما وجدت أيضا فى كثير من الاجزاء الاخرى فى الكرة الارضية . وكانت فؤوس قبضة اليد أوسع اختراعات الانسان انتشاراً . وهناك أدوات أخرى مصنوعة من الظران صنعها الانسان الباليوليتى واستعملها كمخارز ومكاشط ونصال وسكاكين وأسنة (ربما كانت تستعمل ليرموا بها ما يريدون صيده) ومقاطع ومطارق .

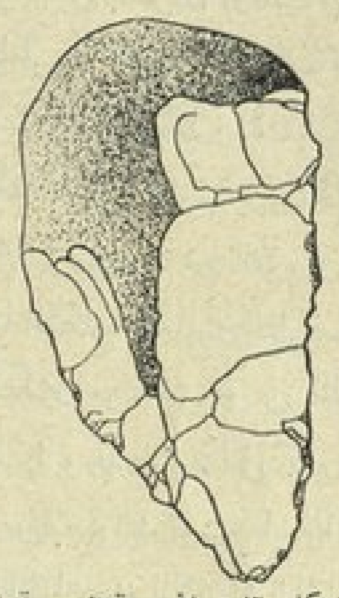
وإذا أردنا دراسة حالة الإنسان الباليوليتى من الناحية الاجتماعية أو الصناعية نجد أنه ينتمى إلى المجموعة التى يطلق عليها علماء الاجناس البشرية اسم « جامعى الغذاء » . وهم البدائيون الذين يأخذون ما تهبهم الطبيعة ولا يعملون شيئا ليزيدوا الانتاج الذى يأتيهم من الطبيعة . وكان الرجال يجلبون إلى بيوتهم اللحوم التى حصلوا عليها من الصيد ، أما النساء فكن يجمعن الفاكهة والحبوب التى يجدنها نامية . وبالرغم

---

١ — عند اكتشاف جزيرة تسمانيا كان سكانها يصنعون أدواتهم كما كان يصنعها الذين عاشوا فى العصر الحجرى القديم

من أن مثل هؤلاء الناس لم يكونوا يعيشون فى أماكن ثابتة ويتجولون عادة لجمع القوت من مكان لآخر بعد أن يستنفدوا مافيه من قوت ، إلا أنه من الطريف أن نجد فى أوروبا الپاليوليتية بعض أماكن إستمر الإنسان فى سكناها عصراً بعد عصر

هذه الآلة كان يقبض عليها باليد من الناحية الاكثر سمكا ولم يكن لهذه الفاس يد بالمرة . والفاس التى تبدو فى الصورة يبلغ طولها نحو ١٨ سنتمترا . وقد عثرت عليها بعثه المعهد الشرقى التابع لجامعه شيكاغو



شكل ٣ : فاس قبضة اليد وجدت فى مجرى قديم من مجارى نهر النيل

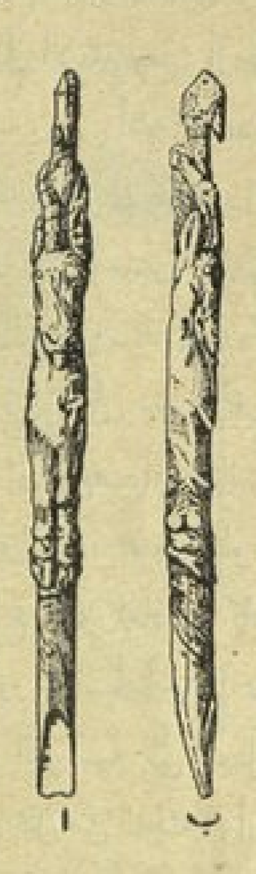
وإذا أردنا معرفة السبب الذى جعل هؤلاء الناس يعيشون فى تلك الأماكن فإننا نرى أن السبب الرئيسى ربما كان البرد الشديد وقلة الكهوف والمآوى الصخرية الدافئة الجافة . كما أن هناك سبباً آخر لاستمرار وجود أمثال هؤلاء الناس فى أماكن معينة هو وجود الظران الذى يصنعون منه أدواتهم ، وهكذا أصبحت بعض الكهوف والمآوى الصخرية سجلا لتقدم الإنسان الذى عاش فى ذلك العصر ، وذلك عند حفر طبقات تلك الكهوف ودراسة ما تركه ذلك الإنسان منذ اليوم الذى تمكن فيه من تشكيل أدوات الظران .

وفى هذه الأماكن الپاليوليتية وجدت مدافن تحوى بقايا آدمية وأدوات شخصية للزينة وأسلحة أو آلات ـ وربما كانت هذه الأخيرة لأجل الحياة الأخرى

بعد الموت . وترينا هذه المدافن أن الرجل الپاليوليتى لم يكن حيوانا مفكرا وحسب بل أن بقايا عظامه ترينا أيضاً بعضا من خصائصه الجثمانية ، إذ ثبت لنا من قامته القصيرة (من ١٤٢-١٦٠سم) ومن وضعه المنحنى ورأسه إلى الامام ومن أرجله القصيرة وجبهته المتراجعة ، ومن البروزات الظاهرة فوق عينيه ، ومن أنفه العريض وفكه البارز أنه كان صورة الإنسان فى مرحلة من مراحل تقدمه ، تلك هى صورة إنسان النياندرتال (Neanderthal Man) الذى أخذ تسميته من إحدى المناطق الألمانية حيث عثر على مثل من أحسن الأمثلة التى تحمل طابعه فى سنة ١٨٥٦ . عاش رجل النياندرتال آلاف السنين وتطورت حياته بالتدريج إلى أن جاء الوقت الذى نجد فيه رجل الأوريجانس (Aurigancian Man) نسبة إلى كهف أوريجانس فى فرنسا حيث عثر على سبعة عشر جثة منه تختلف فيما بينها ولكنها جميعاً أطول قامة وأكبر من النياندرتاليين ولكن واحداً من هذه الأنواع الأوريجانسية كان غير طويل القامة إذ لم يزد عن ١٦٧ سم بينما نجد نوعا أوريجانسياً آخر إسمه «كرومانيون» (Cro-Magnon Man) نسبة إلى المغارة الفرنسية التى تحمل هذا الاسم ، تصل قامته أحيانا إلى ١٩٥ سم وليس هناك أى ظل من الشك فى أن هؤلاء الأوريجانسيين أقرب إلى الانسان كما هو الآن .

كان الصيادون الاوريجانسيون أكثر حنكة ومهارة ممن سبقهم من النياندرتاليين. عرفوا كيف يشظفون أدواتهم المصنوعة من الظران بإتقان وتناسب أكثر من ذى قبل . وكانت نصال سكاكينهم الصوانية ذات الحواف المشطوفة حادة لدرجة تكفى لتقطيع وتشكيل العظم والعاج وخاصة قرون أيل الرنة (Reindeer) . وأمد حيوان الماموث (Mammoth) هؤلاء الصيادين بالعاج ، وعندما احتاجوا للقرون وجدوا قطعاناً عظيمة من الرنة دفع بها الجليد نحو الجنوب ، وهكذا أصبحت الرنة فى ذلك الوقت من أكثر الأشـياء التى اعتمدعليها الإنسان ، إذاستعمل الجلد للملبس واللحوم للطعام والقرون والعظام للأسلحة مما حدا ببعض

الباحثين لأن يطلق على هذا العصر «عصر الرنة». واستطاع الصيادون أن يصنعوا أسنة ذات شعب بفضل ما كان لديهم من أدوات . وكانوا يربطون خطافات الصيد



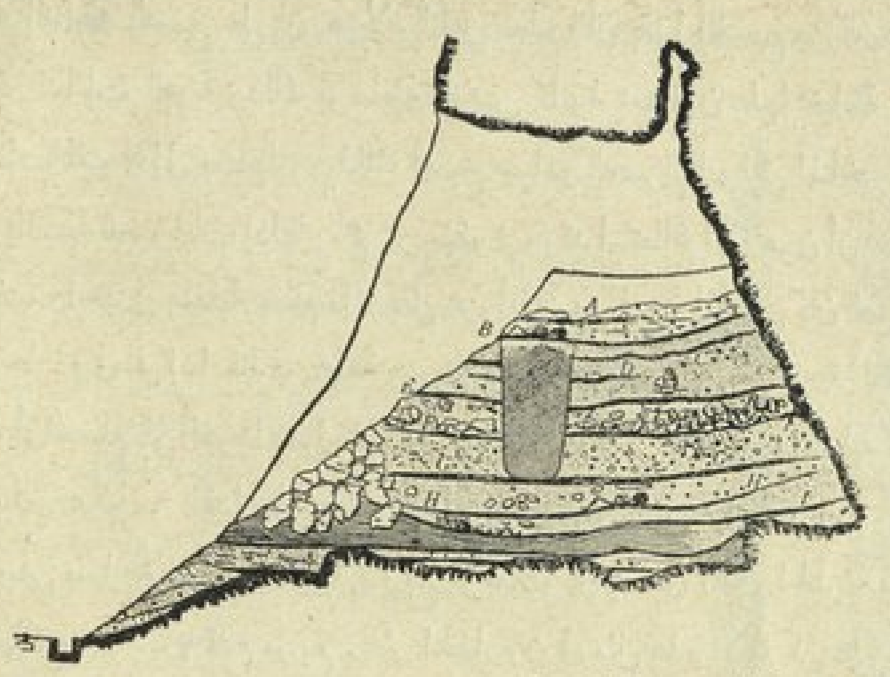
شكل ٤ : منظران لرامية حراب واحـــدة ، لان يستعملها صياد باليوليتى

ا ـ كما ترى من الامام ب ـ كما ترى من الجنب وهى محفورة من قرن الرنة وفيها الرأس والارجل الامامية لتيتل Ibex · لاحظ الخطاف فى قمة ب لامساك الهدف الذى تصـوب نحوه الحربة · ورامية الحـربة والقوس همـا أقدم مخترعـات الانسان لقذف أسلحته بسرعة

إلى حراب خشبية طويلة ، وكان يحمل كل فرد منهم حول وسطه خنجر ، حاداً من الظران . وفى تلك الفترة اخترع الإنسان القوس والسهم أيضاً لأننا نجد رسوماً على الصخر تصور الصيادين وهم يستعملونها ، وتوصلوا بذكائهم إلى صناعة ما يمكن أن نسميه مقدم الحربة ، وكانت من قرن الرنة ، وكانت تستعمل لضمان عدم تقوس الحراب أو السهام . وتوصلوا أيضاً إلى اختراع ناجح يوم تمكنوا من صناعة أداة من القرن أو العاج مكنت الصائد من رمى حربته الطويلة إلى مسافة أبعد وقوة أكثر من ذى قبل . وتدلنا شصوص الصيد والخطاطيف على أن رجل العصر الحجرى بدأ يكون صياداً للسمك كما كان صياداً للحيوانات . وتدلنا الإبر

العاجية الدقيقة الصنع على أن هؤلاء الناس تعلموا أن يقوا أنفسهم من البرد ومن أشواك النباتات البرية وذلك بوساطة ملابس كانوا يحصلون عليها بخياطة جلود الحيوانات المقتولة إلى بعضها . وبذلك أصبح صيادو العصر الباليوليتى المتأخر أعداء أقوياء بالنسبة للحيوانات إذا قارناهم بمن سبقوهم . وقد استطاع الأثريون أن يخرجوا من كهف واحد فى صقلية عظام مالا يقل عن ألفين من فرس الماء التى كان الصيادون قد قتلوها . وفى فرنسا قتلت جماعة من هؤلاء الناس خيولا برية كثيرة لطعامهم لدرجة أن العظام التى ألقوها حول محلة نيرانهم تجمعت فى أكوام ، وفى النهاية كونت طبقة يبلغ سمكها ٦ أقدام فى بعض الأماكن ، وتغطى مساحة قدرها ٤٠٠٠٠ قدم مربع وهى مساحة مساوية تقريباً لأربع مربعات فى إحدى المدن الحديثة مساحة كل منها ٥٠ × ٢٠٠ قدم مربع . عثر الحفارون فى مثل هذه الأماكن على البوق الكبير الحجم الذى كان يستطيع الصياد بواسطته أن يعلن عودته لأسرته الجائعة التى تنتظره فى الكهف . وعند وصوله إلى هناك كان يجد مسكنه وقد أحاطت به أكوام كريهة من النفايات . ووسط الروائح الكريهة المتصاعدة من اللحوم المتعفنة كان هذا الأوروبى المتوحش يزحف داخل الكهف الذى كان يتخذه مسكناً بالليل ، غير مدرك أنه على عمق عدة أقدام تحت أرضية مغارته تتجمع بقايا أجداده طبقة فوق طبقة بفعل آلاف السنين .

وبالرغم من الظلام والوحشة اللذين كانا يكتنفان حياتهم اليومية فإن هؤلاء الصيادين البدائيين كانوا على وشك اقترابهم من الشعاع العظيم الذى ينير النفوس . فعندما كان كل واحد منهم يستلق ليلا فى مغارته كان يستطيع أن يغلق عينيه ويرى فى مخيلته صورة الحيوانات الهائلة التى كان يتبعها طول النهار . وبالمثل كان يستطيع أن يسترجع فى ذهنه صورة أشجار غريبة تذكره أشكالها بحيوان من الحيوانات . أو كان يرى وهو يتقلب صورة كتلة بارزة من الصخر فى مغارته تشبه فى هيئتها شكل الحصان . وهكذا ظهرت فى عقله فكرة المشابهة تدريجيا (الحيوان والشجر التى تشبهه



شكل ٥ : قطاع يبين طبقات الرديم
والبقايا الانسانية فى كهف من العصر الباليوليتى

وهذا الكهف فى جريمالدى Grimaldi على الساحل الايطالى للبحر الابيض المتوسط . يوجد المدخل فى اليسار والجدار الخلفى فى اليمين ونرى الارضية الصخرية الاصلية فى القاع وفوقها طبقات الرديم التى يبلغ عمقها ٣٠ قدما وتمثل الخطوط السوداء التى بين I, A طبقات الرماد و...الخ . وهى مخلفات تسعة أماكن نيران تعاقبت وراء بعضها ، ولابد أن الاهالى استعملوا كل واحد منها سنين طويلة وتتكون الطبقات الاكثر سمكا (المظللة تظليلا خفيفا) من عظام الحيوانات والنفايات والصخور التى سقطت من سقف المغارة على مر السنين . وتحوى الطبقات السفلى (تحت I) عظام الكركدن (وهى تدل على المناخ الحار بينما احتوت الطبقات العليا على عظام الرنة (وهى تدل على مناخ بارد) . وقد عثر المكتشفون على خمسة مدافن فى الطبقات B, C, H, I احتوت الطبقة C على جثتين لطفلين . وكان المدفن الذى فى أعمق طبقة (فى I) على عمق ٢٥ قدما من سطح الرديم فى الكهف . وبعد أن نشر المكتشفون هذا الرسم حفروا أمام الكهف فوجدوا على عمق ٦٠ متراً تحت السطح الاصلى للرديم أدوات من الظران وغير ذلك مما خلفه الناس الذين عاشوا هناك

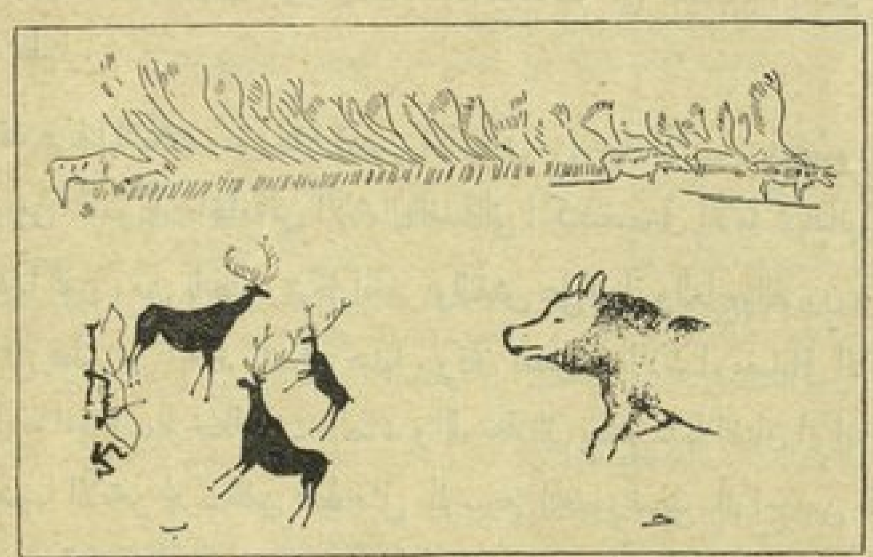
(عن ديشليت Déchelette)

والجواد والصخرة المستديرة التى تماثله). واستمر هذا التفكير وبدأ يلاحظ أنه يجب عليه أن يعمل على زيادة مشابهة الصخرة البارزة بيديه لتصبح أكثر مشابهة للحصان. ثم استطاع أن يقلد شكل شيء معين بتشكيل شيء آخر يشبهه. وبهذه الطريقة أمكن لعقله أن يعي التقليد، وفى هذه اللحظة ولد الفن، ودخلت نفس الانسان فى عالم جديد جميل مملوء بنور لم يضىء حياته من قبل. كان جسده يتطور منذ عصور، ولكن هذا الاكتشاف الجديد الذى وصل إليه وهو أنه يستطيع أن يخلق أشكالا جميلة مستوحاة من الصور التى فى ذاكرته جعلت عقله يرتفع إلى مستوى عال جديد.

ومن الأشياء التى عثر عليها الباحثون بعض رسوم على أحجار صغيرة صنعها أناس مبتدئون محاولين أن يتعلموا الرسم. وهذه الرسوم السريعة تشبه التمرينات الحديثة التى تعلم فى الاستديوهات، وما زالت التصحيحات التى خطتها يد أستاذ متمرن ظاهرة عليها.

وقد عرفنا الكثير عن هذا العصر الانشائى من حياة الانسان فى عصور ماقبل التاريخ، من المجموعات الهامة من الأعمال الفنية التى اكتشفت فى الأماكن الپاليولية. يتخذ هذا الفن، من ناحية، شكل الحفر والنقش على العظم والعاج والقرون وكذلك الرسم على قطع من الحجر يمكن حملها. وكان بعض هذه الأشياء مفيداً فى الاستعمال مثل رامية الحراب وخطاطيف الصيد واللوحة التى يضع عليها الفنان الوانه، بينما كان بعضها الآخر لمجرد الفن فقط مثل الرسوم المحفورة على ألواح من الحجر الجيرى أو قطع متفرقة من العظم أو العاج. وتبدو النقوش والرسوم الكبيرة التى تزين جدران الكهوف والمساكن الصخرية فى فرنسا وأسبانيا وإيطاليا أجمل مظهراً ولكنها ليست أكثر أهمية من الأشياء الأخرى. وقد ذكر بعض الباحثين أنه توجد على الصخور التى فى الهواء الطلق فى شمال أفريقيا من الجزائر عبر الصحراء شرقا إلى أعلى النيل رسوم مماثلة. وكل هذه الرسوم غاية فى الجمال ولكن يضارعها

فى الروعة معرفة الرجل الپاليوليتى للالوان . فقد استعمل منها الأحمر والأصفر والأسود . وكانت الألوان الجافة المسحوقة (البودرة) تحفظ فى أنابيب صغيرة مصنوعة من العظام المفرغة عثر على بعض منها فى الكهوف . ومن ضمن الأشياء التى وصلت إلى أيدينا ، وكانت مما استعمله الفنان الپاليوليتى فى عمله ، مدقات لسحق الألوان ولوحات لوضع الألوان عليها ، وحفّارة من الظران يظهر أنها تركت فى مكانها الأصلى إلى جانب نقش على جدار الكهف ، وترينا كل هذه المخلفات إلى أية درجة عالية من المهارة فى الاسلوب وصل الانسان الپاليوليتى بعد أن مر بمراحل التطور ، وترينا كذلك كيف ساعدته مهارته على أن يشعر بجمال الحياة أكثر من قبل . ولكن الانسان الپاليوليتى ذهب فى حضارته إلى أبعد من ذلك ، إذ أنه عندما اعتدل المناخ فى أوروبا اختفى الانسان الپاليوليتى واختفت معه صناعاته .

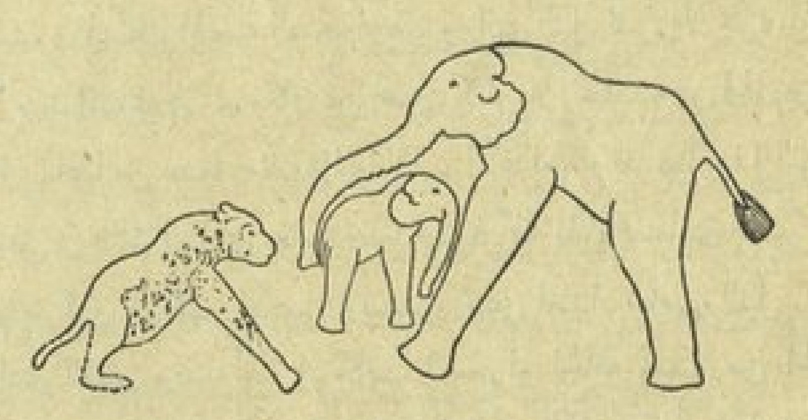


شكل ٦ : امثلة من فن العصر الحجرى

وجد قطيع الرنة المرسوم فى أ منقوشا على عظمة من جناح صقر . وهذا الرسم يبين لنا ان الفنانين الاوائل كانت لديهم فكرة عن التكوين فى الفن ، وكانوا قادرين على رسم مجموعة من الحيوانات تشعرنا بعدد ضخم وبطريقة تقرب من الطريقة الحديثة فى الرسم . وفى ب يمثل منظر صيد رسمه الانسان الباليوليتى على ماوى منحوت فى الصخر بعد أن اخترع القوس . أما رسم الذئب فى حـ فانه منقول عن منظر فى كهف فى فرنسا

(عن برى Breuil)

ومن الجائز أن الحضارة تقلصت بعد فترة تقدم عظيم كما حدث بعد ذلك مرات عدة فى التاريخ . و من ناحية أخرى نرى أن تغير المناخ سبب تغيرا فى الحيوانات والنباتات ، فنى أوروبا تراجعت الرنة والحيوانات الاخرى التى تعيش فى البرد نحو الشمال وامتلأت غابات البلوط الكثيفة بمجموعة مختلفة تماما من الحيوانات كالايائل والثور الوحشى والخنزير البرى ، وأصبح الصيد بدون شك أكثر صعوبة ، ومن الجائز أن ذلك العصر كان عصر هجرة كثيرة ، وأخذ الپاليوليتيون يتجولون بعيدا عن مساكنهم ليبدأوا الحياة فى أى مكان يصلون إليه قبل غيرهم . وكيفما كان الحال فإن الآثار الحضرية لهذا العصر الذى جاء مباشرة بعد العصر الجليدى فى أوربا ، تدعو إلى إلى الأسف فهى تكشف لنا عن حياة فقيرة لمجموعات متفرقه من الناس كان أكثرهم يتعيشون من صيد السمك أكثر من صيد الحيوانات . وربما كان أكثر مايدعو إلى الاهتمام هو آثار حياة هؤلاء الأوائل فى اسكنديناوه حيث نجا الجزء الجنوبى منها



شكل ٧ : رسم على صخر فى شمال افريقيا يمثل انثى فيل تحمى صغيرها من هجوم نمر

الفيل الام تلف خرطومها حول صغيرها لتبعد عنه النمر الذى يتاهب للانقضاض عليه . ولم يكن مثل هذا الموقف يدوم أكثر من ثوان قليلة ولكن عين الصياد الافريقي الشمالى التقطت المنظر ، ومن الجائز أن يكون قد رسم رسما سريعا له ثم رسمه كبيرا بعد ذلك على احدى الصخور الهائلة فى جنوب الجزائر . ووجود مثل هذا المنظر فى أكثر مناطق الصحراء جدبا يعتبر دليلا على أن الهضبة الصحراوية كانت منذ آلاف السنين منطقة خصبه تتمتع بامطار غزيرة

(عن اوبرماير وفروبنيوس Obermaier-Frobenius)

من الغطاء الجليدى الشمالى وكان صالحاً لإقامة الناس قبل ١٠٠٠٠ سنة تقريباً[1] .

وبينما نحن نفترض حدوث عصر هجرة بين أقوام أوروبا بعد العصر الجليدى ، فإننا نملك الدليل القاطع على أن الأقوام الذين عاشوا جنوب البحر الأبيض المتوسط اضطروا لأن يهاجروا من الهضبة التى اتخذوها مكانا لهم ليبحثوا عن مقام جديد وأساليب جديدة للمعيشة . وفى وقت ما فى العصر الجليدى بدأت الأمطار التى طالما سقطت بكثرة على شمال إفريقيا تتوقف عن الهطول . وبالرغم من أنه لم يعرف بعد السبب الحقيق فى قلتها وندرة سقوطها فإن نقصان سقوط المطر كان سبباً فى جفاف هضبة الصحراء الكبرى بالتدريج .

واختفت تدريجيا بعد ذلك نباتاتها التى جفت . وبعد بضعة آلاف من السنين تحولت الهضبة الأفريقية الشمالية إلى الصحراء الجرداء التى نعرفها الآن .

وكان وادى النيل فى هذه الفترة ذا منفعة حيوية لهؤلاء الصيادين الذين كانوا يعيشون فى تلك الهضبة الصحراوية . ووادى النيل ليس إلا مجرى أو شقا بين جبلين لا يزيد اتساعه فى أى مكان عن خمسين كيلومترا تحف به من الجانبين صخور يختلف ارتفاعها من بضعة مئات إلى آلاف الأقدام . وقد هيأ هذا النهر العظيم الذى يتدفق فى ذلك الوادى مقاما جديدا تتوفر فيه المياه لصيادى العصر الحجرى مما جعلهم يتركون موطنهم الأصلى ويستقرون على امتداد شاطىء النيل ، وأصبح هذا الوادى العظيم وطنا آمنا إذ كانت الصحراء الجافة تحميه من الجانبين ، ولم تكن الثلوج وموجات البرد الشديد شمال البحر الأبيض المتوسط تصل إليه ، وعاش السكان فى هذا الوادى ، وسرعان ما تقدموا ومن ثم تحولوا من جامعين للغذاء إلى منتجين له .

---

١ ـ أحصى البارون جيرارد دى جير العالم الجيولوجى السويدى وتلاميذه طبقات الطين التى أرسبتها الطبقة الجليدية أثناء تقهقرها نحو الشمال عبر اسكنديناوة فى نهاية العصر الجليدى . ويعتقد أن كل طبقة تمثل الطين الذى أسقطه طرف الغطاء الجليدى فى كل صيف ، وبهذه الكيفية حصلنا على تقدير عشرة آلاف سنة

الفصـــل الثانى

منتجو الغذاء والعصر الحجرى الحديث

سكان وادى النيل يصبحون منتجى غذاء

كان قاع مجرى النيل مغطى بطبقات من الطمى والرمل التى كان يحملها تيار النهر ؛ ولم يكن صالحاً إذ ذاك لنمو مزروعات كثيرة . ومن الجائز أنه فى نهاية العصر الپاليوليتى بدأ النهر يجىء بكمية كبيرة من التربة السوداء من مرتفعات الحبشة . وفى كل فصل عندما تملأ أمطار الصيف ، الآتية من جبال الحبشة ، النيل الأعلى ، كانت المياه تعلو فوق ضفتيه ؛ وتنتشر هذه المياه المحملة بالطمى على جانبى مجرى النهر وتترك طبقة دقيقة من الطمى أو التربة السوداء المخصبة ، وأصبح هذا الطمى فى النهاية طبقة سميكة هى أرض وادى النيل الخصبة التى كونت شريطاً على كل من ضفتى النهر وكان هذا الشريط يلتوى ويدور مع اتجاه النهر سواء إلى اليمين أو إلى اليسار . وفى أيامنا هذه لا يزيد اتساع هذه الطبقة السوداء أى نهر النيل وما على ضفتيه من أرض فى أكثر الحالات عن ستة عشر كيلو متراً .

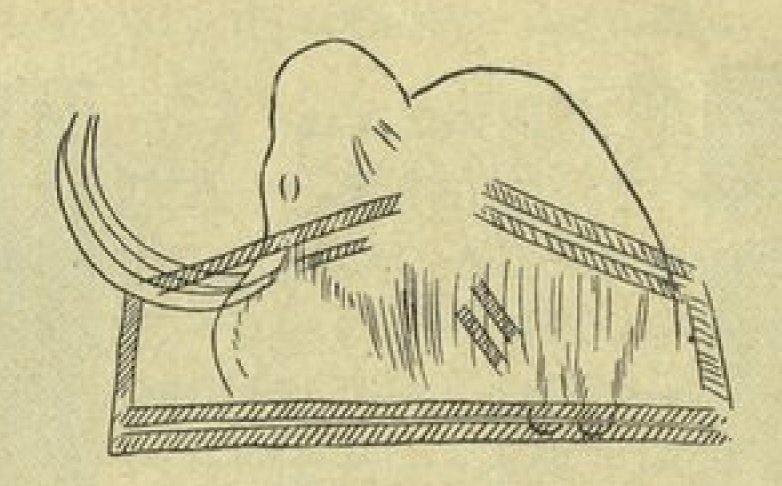
وفى هذه الارض المزروعة المحمية ، استطاع رجال العصر الپاليوليتى الذى أوشك على نهايته أن يحسنوا طريقة معيشتهم ومهدوا لبدء عصر جديد نطلق عليه اسم العصر النيوليتى ، (الحجرى الحديث) وليس فى استطاعة أحد أن يحدد بالضبط بداية العصر النيوليتى ، ففى أراضى البحر الابيض المتوسط كان يوجد بعض أقوام يتطورون فى حياتهم نحو الحياة النيوليتية بينما كان فى نفس المنطقة آخرون يشكلون بمهارة الدبابيس النحاسية . فمثلا انتهى العصر النيوليتى فى مصر والعراق قبل أن يحدث ذلك فى الشمال الغربى لاوروبا بحوالى ٢٠٠٠ سنة . وإذا درسنا الثقافات النيوليتية

نجد أن الآثار المصرية تعطينا صورة حسنة لهذا النوع من الحياة فى عصور ما قبل التاريخ . لقد اضطرت الحيوانات التى عاشت زمنا طويلا فى الهضبة أن تفعل ما فعله الصيادون فالتجأت هى الأخرى إلى وادى النيل تنشد القوت والماء .

وكان وادى النيل مليئا بالمستنقعات والأحراش فاصبح خير ملجأ لأسراب كثيرة من الطير البرى و لقطعان هائلة من الحيوانات الضخمة مثل فرس النهر والفيل التى كانت تعيش فى شمال البحر الأبيض المتوسط ، وكذلك فعلت أنواع مختلفة من الآرام والماشية الكبيرة البرية (Bos Primigenius) والخرفان والماعز والحمير . ولم يكن إذ ذاك من بين تلك الحيوانات ماهو أليف أو مستأنس بل كانت فى حالتها الوحشية . وعلى الجانب الشمالى من البحر الأبيض المتوسط عرف الصيادون كيف يصنعون الفخ حتى للحيوانات الكبيرة مثل الفيل .

ولم يكن فى وادى النيل متسع كبير لمثل هذه الحيوانات كى تمرح كما كانت تفعل فى أوروبا أو فى الهضبة من قبل فوجدت نفسها فى موقف لم تكن قد عرفته فى أوروبا أو آسيا ، إذ وجدت نفسها مرغمة على أن تكون على مقربة من الانسان الذى وجد أنه أصبح من الميسور له أن يوقعها فى قبضته .

ويمكننا أن نتصور جماعة من الصيادين تدفع بالقطعان الكبيرة من هذه الحيوانات المتوحشة إلى بعض الفجوات العميقة بين صخور وادى النيل ثم يتقدمون نحوها من الجانب المفتوح ويقتلونها . وعلى مر الزمن راق لهؤلاء الصيادين أن يغلقوا مثل هذه الفجوة بسياج ليست به سوى فتحة واحدة ، أو يبنوا سياجا ذا جوانب أربعة ، أو يصنعوا شبكة محيطة لها مخارج من جانب واحد . وبذلك أصبح وجود الحيوانات المتوحشة فى مكان مسور مصدرا قيما جدا للقوت على مقربة من الناس وفى أى لحظة يشاءون . وبعد زمن طويل تخلصت بعض أنواع من هذه الحيوانات من خوفها من الانسان وتعلمت تدريجيا كيف تعيش معه . ومن الطريف أن نلاحظ



شكل ٨ : رسم في كهف يمثل الماموث وقد وقع في فخ من كتل الخشب في جنوب فرنسا

يرينا هذا الرسم المرحلة الاولى لقدرة الانسان على اسر الحيوانات وكانت المرحلة التالية هي استئناس الحيوانات

كيف أدى جفاف الصحراء المتزايد إلى جمع الإنسان بالحيوانات المتوحشة ، حتى أن الثور والضأن والماعز والحمير التى كانت كلها حيوانات وحشية تخلت عن حياتها الطليقة وأصبحت حيوانات مستأنسة تخدم الإنسان ، وفى هذه الأثناء تمكن سكان النيل من الوصول إلى طريقة جديدة أصبحت مصدرا دائما للغذاء . فمن المحتمل أن النساء اعتدن لمدة آلاف السنين أن يجمعن حبوب بعض الحشائش البرية ويطحنها لتؤكل . وفى النهاية اكتشف شخص ما أن هذه الحشائش لو زرعت وسقيت بالماء فإنها ستنمو أحسن من ذى قبل وتنتج كمية أكبر من الحبوب الصالحة للأكل . وإلى جانب ذلك فإنهم كانوا يستطيعون أن يبذروا الحب بالقرب من مساكنهم المؤقتة وبذلك يوفرون على النساء الوقت والجهد الذى يبذل فى البحث عن الأعشاب البرية ، وبدأ هؤلاء الزراع الأوائل يفكرون فى إيجاد طرق لتخزين الحبوب لاستعمالها بين فصل حصاد وآخر ، وقد عثر فى منخفض الفيوم غرب وادى النيل على ٦٣ حفرة من المحتمل أنها حفرت لتستعمل شونات للغلال. وكان عدد من هذه الحفر ملطوسا بالطين ومغلفا بالقش . وكان فى بعض هذه الشونات



شكل ٩ : رسم مصرى قديم يبين حظيرة صيد مملوءة بالحيوانات

هذا المنظر مرسوم على جدار فى مقبرة من عصر الدولة الوسطى تهدمت بعض أجزائه · ونرى فى هذا المنظر بعض الحيوانات البرية وقد دفع بها الصيادون الى حظيرة مصنوعة من الشباك · ونرى هؤلاء الصيادين منهمكين فى اغلاق طرف منها (فى الطرف السفلى) بوساطة أعمدة مربوطة بحبال طويلة ، ولكن الطرف البعيد لم يبق فى الرسم · ونرى أربعة رجال مزودين بالاقواس والسهام منهمكين فى قتل بعض الحيوانات للحصول عليها فى وقت قصير · وهناك رجال آخرون فى الصف الاول والثانى يستعملون الحبال لامساك الحيوانات وهى حية

(عن نيوبرى Newberry)

كميات صغيرة من القمح والشعير[١]. وكان فى البعض الآخر سلال وأوعية وكذلك المنجل الذى كان يستعمل فى الحصاد .

وهكذا عرف سكان النيل كيف يخزنون حصاد غلالهم ويحفظون الحبوب لبذرها فى العام القادم ، وتعلموا كيف يربون الحيوانات فى الحظائر ثم عرفوا بعد ذلك كيف يحتفظون بحيوانات معينة للتكاثر ، كما عرفوا كيف يحتفظون بالماشية لدر الألبان . وهكذا أصبحوا منتجى غذاء بدلا من جامعين له ، وعندما رأو أنفسهم قادرين على انتاج القوت على مقربة من أماكن إقامتهم وجدوا أنه لم يصبح من الضرورى اللازم أن يظلوا صيادين يعيشون على قتل الحيوانات الوحشية . وبدأت جماعات من العائلات فى تكوين قرى صغيرة ليستطيعوا رعى قطعان الماشية ويرووا حقول الحبوب . وفى النهاية أصبح معظم الصيادين زراعاً ومربى ماشية وأصبحت قراهم الصغيرة مساكن ثابتة لإقامتهم .

وكانت الأدوات والأسلحة لاتزال تصنع من الحجر فى ذلك العصر ، ولكن الرجال تعلموا كيف يستعملون أحجارا مثل الحجر الرملى لسن أسلحتهم أو لتهذيب أطراف أدواتهم . وتحسنت الأدوات المصنوعة من الظران كثيراً نتيجة لهذا التقدم ، بل وزادوا على ذلك أنهم عرفوا أنهم يمكنهم أن يحصلوا على نصل حاد

---

١ ـ من المحتمل أن القمح والشعير كانا أول الغلال التى زرعها الانسان ، وكذلك الذرة فانها زرعت أيضا فى وقت مبكر . وليس من المستبعد أن يكون انسان ما قبل التاريخ قد زرع الشوفان وغيره من الحبوب . وقد قام كثير من العلماء بدراسات كثيرة للمناطق التى ينمو فيها الآن الشعير البرى والقمح البرى لتحديد المكان الذى بدأت فيه زراعة القمح . واهتم علماء النبات والأثريون بتحديد أقدم أنواع القمح التى زرعها الانسان . ومن الجائز أن أنواع القمح التى تستعمل فى صنع الخبز الآن طورها الانسان عن طريق الاختبار لانه لم يكتشف أصل برى للقمح الذى نستعمله الآن فى صنع خبزنا العادى (Triticum Vulgare) لأن نوع القمح الذى اكتشف فى شونات الغلال المصرية القديمة هو من نوع (Triticum dicoccum) الذى مازال ينمو كنبات برى فى أجزاء مختلفة من العالم القديم . وفى وقتنا الحالى لايزرع هذا النوع من القمح Emmer لاجل الخبز ولكنه يستعمل أحيانا فى صنع بعض أغذية الافطار فى الصباح



شكل ١٠ : علف الآرام والضباع نصف المستانسة مع الماشية

كانت الحيوانات الوحشية التى تصاد حية من حظائر الصيد (شكل ٩) تعلف في حظائر ويحاولون استئناسها ولو الى حد ما · الماعز (١) والغزلان (٤) فى الطرف الشمالى والغزال العربى (Addax) (٤ فى الوسط) وغزال الاوريكس (Oryx) (فى الطرف الايمن) والتيتل (٤ فى الشمال) ونراها كلها فى هذا المنظر وهى تاكل فى مذاودها فى الاصطبلات مع الماشية الكبيرة (٢) كانت هذه الماشية الكبيرة قد استانست قبل أن يرسم هذا المنظر بالاف السنين وأصبحت أسلافا لماشيتنا الاليفة الآن

فى هذا الرسم مايثبت أن المصريين عرفوا تربية أنواع ممتازة من الماشية منذ تاريخ مبكر جدا · كان المصرى يحافظ على فصيلة الماشية عديمة القرون (٢ فى الطرف الشمالى) أو على الاقل يعمل على ابقاء نسلها · فى أسفل (٥) الضباع الماسورة وهم يعطونها الطعام فى فمها · وكان المصريون اذ ذاك استانسوا تماما الماعز والماشية الكبيرة التى ترى هنا فى (١ ، ٢ ، ٣) · أما الاخرى فى (٤) فلم يكونوا قد استانسوها الا الى حد ما ، وهى لاتوجد الان الا فى حالة وحشية وخاصة الضباع (٥)

من أحجار أقل تعرضاً للكسر من حجر الظران ، وبعبارة أخرى عرف الإنسان أنه من الميسور له أن يصنع أدواته من مواد أفضل من الظران ، وفى الوقت عينه يسهل الحصول عليها لأنه لم يكن من السهل العثور على طبقات من الظران فى كثير من المناطق . وهكذا أصبح استعمال حجر المسن من أول المكتشفات العظيمة فى العالم ، وهو اكتشاف مازال يستعمله الإنسان بشكله البسيط كما كان يفعل منذ عصور ماقبل التاريخ . كان ذلك ذا فائدة عظيمة جداً للإنسان ، ونستطيع أن نقول أنه ساعد كل رجل فى أن يصبح معتمداً على نفسه فقط . واستطاع رجال العصر



شكل ١١ : شونة غلال غطيت جدرانها بالقش وهى من العصر النيوليتى وجدت فى الفيوم بمصر

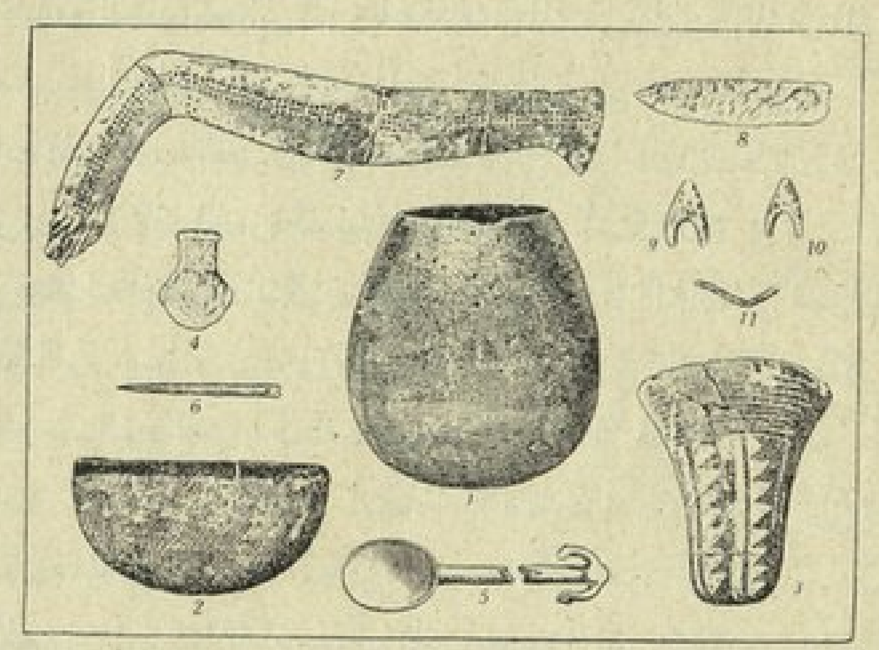
يبلغ طول المنجل الخشبى (A) الذى يرى ملقى فى قاع المخزن حوالى قدمين .
(عن الآنسة كيتون تومسون (Miss G. Caton Thompson))

الحجرى الحديث (النيوليتيون) أن يقطعوا الأشجار وأن يصنعوا بعض أشياء من الخشب، واستطاع هؤلاء الزارعون الأوائل الذين عاشوا فى وادى النيل أن يبتكروا صناعات مختلفة . وكانت هناك فيلة يمكن صيدها بسهولة ، وكان العاج الذى يؤخذ منها يستعمل فى صنع الأوعية والملاعق والأمشاط ، وكان الغاب الذى ينمو فى المستنقعات التى على امتداد النيل يضفر ليصنع منه الحصير والسلال ، وكانت الأطباق والأوانى والأوعية تصنع من الطين المحروق الذى يأتون بترابه من الهضبة أو من الطمى النيلى . وكانت هذه الأوانى الفخارية تشكل باليد ومع ذلك فإن رقة جدرانها وجودة خامتها والأثر الفنى الذى يتركه سطحها المتموج ظلت دائما كما هى ولم يستطع المصرى فيما بعد عندما اخترع دولاب الفخار أن يدخل تحسينا على صناعتها . وقبل ذلك بوقت قصير اكتشف المصرى فائدة خيوط بعض النباتات البرية مثل الكتان ، وتعلمت النساء كيف تزرع هذه النباتات، وعرفن كيف يغزلن هذه الخيوط ثم عرفن أيضا كيف ينسجنها ليصنعن منها أقمشة للملابس .

حدث هذا كله منذ زمن بعيد جدا لدرجة أن آثار هذه المساكن النيلية المبكرة أصبحت مدفونة تحت أمتار من التربة السوداء التى يجلبها النهر منذ ذلك الوقت ، ومع ذلك فقد اكتشفت بقايا قليلة لبضعةقرى صغيرة كانت مقامة على أرض عالية فوق مستوى مياه فيضان النيل، وكان الموتى يدفنون على امتدادحافة التربة السوداء على طرف الصحراء . وقد فحص كثير من هذه المقابر . ونعرف أن الجثة كانت توضع على حصيرة وتحاط بأوانى الطعام والأسلحة والأدوات وأدوات الزينة الخاصة بصاحب القبر . وهكذا كان الميت قد هيأ نفسه للحياة الثانية ، وكان الوجه متجها ناحية الغرب ، وقد عثر فى أحد هذه المقابر على دبوس نحاسى (شكل ١٢) وهو أقدم أداة من المعدن اكتشفت فى حفائر الآثار . ومن المستحيل أن نحدد بالضبط تاريخه ، ولكنه لايمكن أن يكون متأخرا عن الألف الخامس قبل الميلاد . أى أن عمر هذا الدبوس مابين ستة وسبعة آلاف سنة . ويمكننا أن نصور لأنفسنا

ذلك المصرى الذى اكتشف المعدن ، قبل أى شخص آخر ، عندما كان يتجول فى شبه جزيرة سيناء حيث توجد أقدم مناجم النحاس المعروفة . وربما حدث أنه كان يريد أن يضع بضع أحجار حول النار التى أوقدها فالتقط لهذا الغرض بضعة قطع من النحاس وجدها ملقاة حول الأرض .

وعندما امتزج الفحم الناتج عن الخشب الذى يشعل به النار بالقطع الساخنة من المعدن التى وضعها حول النار لحمايتها من تأثير الريح ، فإن هذا المعدن أخذ



شكل ١٢ : مجموعة من الادوات عثر عليها فى جبانة مصرية من العصر النيوليتى المتأخر

تحتوى هذه الادوات التى كانت توضع مع الموتى على أوان فخارية للاستعمال المنزلى (١ ـ ٣) وأوان من العاج لحفظ عطور الزينة (٤) وملاعق (٥) وابر من العظم (٦) وأسلحة من الخشب أو الظران (٧ ـ ١٠) ويدل شكل (٧) على عصا للرماية ربما كانت سلف عصا الرماية المستعملة فى أوستراليا . أما الدبوس النحاسى (١١) فانه يدل على أول استعمال للمعادن
(عن برنتن)

يتضح عنصره ، أى أن النحاس بشكله المعدنى قد تخلص من أخلاط العناصر الأخرى التى كانت مختلطة به ، وفى الصباح عند ما كان المصرى يحرك بقايا النار

وجد فى الرماد قطعاً لامعة تصلبت وتحولت إلى قطع متكورة لامعة من المعدن . ونستطيع أن نتخيله وهو يلتقطها ويقلبها باعجاب وهى تلمع فى أشعة شمس الصباح . ولم يمض وقت طويل عندما أعيدت هذه التجربة حتى اكتشف أن هذه الخرزات اللامعة الغريبة أتت من قطع الحجر الموجودة حول ناره ، وبدون أن يقصد أو يعلم كان هذا الرجل على أبواب عصر جديد وهو عصر المعادن . ولو كان قدر لهذا المصرى المتجول أن يعلم الغيب لأدرك أن الخرزة النحاسية الصغيرة اللامعة التى التقطها من الرماد ، تعكس له رؤيا عظيمة من المستقبل بما فيه من المبانى المصنوعة من الصلب والكبارى الرائعة ، والمصانع الضخمة التى تضج بأصوات آلاف الماكينات المعدنية ، والقضبان الطويلة الممتدة التى تسير عليها القاطرات التى تنهب الأرض . ولولا هذه الخرزة الصغيرة من المعدن التى أمسكها المصرى فى يده لأول مرة ، وقد تولته الدهشة ، لما كانت تحققت جميع ما فى دنيانا الحالية من اختراعات .

كان هذا اليوم يوما مشهودا فى تاريخ البشرية ، ولم يصل الانسان إلى اكتشاف أعظم منه منذ اليوم الذى اكتشف فيه كيف يوقد النار قبل ذلك ببضعة آلاف من السنين . كان هذا الاكتشاف انتصارا للانسان على مواد الأرض التى يعيش فيها . وكان ذلك حوالى عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد على أقل تقدير أى منذ ٧٠٠٠ سنة ، ولكن المصريين لم يعرفوا تماما قيمة هذه المادة الجديدة إلا بعد عدة قرون . واستمروا يستعملون أدواتهم وأسلحتهم الحجرية ، ولم يستعملوا النحاس فى أغلب الأحيان إلا فى صنع أدوات الزينة مثل العقود النحاسية التى كان يتحلى بها النساء ، ولم يعم استعمال الأدوات والأسلحة النحاسية إلا بعد ٢٠٠٠ سنة تقريباً من اكتشاف النحاس ، وفى خلال هذا العصر الطويل — وبعده بمدة من الزمن — استمرت حياة الانسان فى العصر الحجرى الحديث وكأن المعدن لم يكتشف .

العصر النيوليتي في أوربا

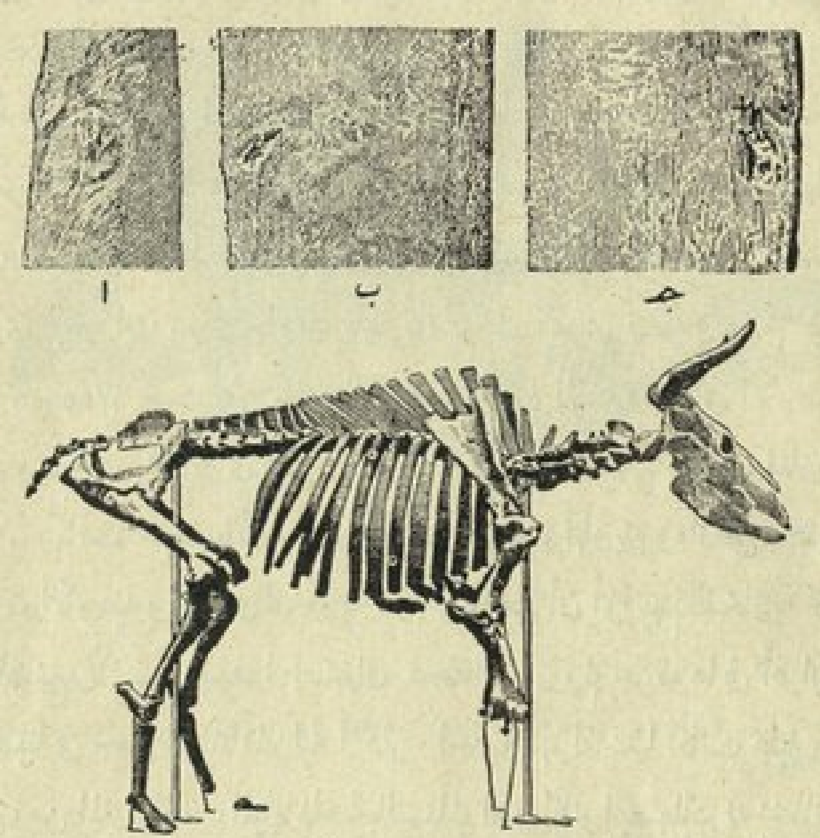
بينما كان سكان جنوبى البحر الأبيض المتوسط فى العصر الحجرى يتقدمون فى أساليب حياتهم كان زملاؤهم على الجانب الشمالى يمرون بتجارب أخرى أقل منها . عاش أوربيو عصر ما بعد الجليد حياة بائسة فى عالم غريب مفزع فترة من الزمن . وكانت البرارى المملوءة بغابات البلوط والحيوانات التى لم يكونوا قد عرفوا بعد كيف يصطادونها تحيط بهم دائما . ولما كان هؤلاء الناس ما زالوا يعيشون من جمع غذائهم فمن المحتمل أنهم كانوا فى كثير من الأوقات أقرب إلى الموت جوعا. وكان بعضهم يعيشون فى كهوف ولكن أكثرهم كان يعيش بالقرب من الأنهار وشاطىء البحر حيث يستطيعون صيد السمك . وكانوا يأكلون التوت والجوز مع السمك بقصد التنويع فى طعامهم ، وبين حين وآخر كانوا يقتلون حيوانا صغيرا . أما صناعة الظران فكانت فقيرة جدا ولم يكن هناك ذوق فنى . ويكاد يكون مؤكدا أن مؤثرات تقدمية غريبة عنهم وصلت إلى أوروبا وغيرت طرق المعيشة البدائية لهؤلاء الناس جاءت بعض هذه المؤثرات دون شك من شمال إفريقيا ، ومن المحتمل أن جماعات من سكان النيل ، ممن تأصلت فى نفوسهم الرغبة فى التجول أكثر من غيرهم تجولوا عبر شمال إفريقيا ، ثم وصلوا عن طريق جبل طارق إلى اوروبا . ولو كان هذا هو ما حدث فعلا فانهم يكونون قد جلبوا بالطبع معهم أفكاراً وعادات أقوام منتجين للغـــذاء .

كما أنه من الجائز أيضا أن مؤثرات تقدمية أخرى أتت إلى أوروبا من الشرق . فقد كانت جماعات منتجى الغذاء فى العصر النيوليتى تنتخب أماكن إقامتها بجوار الأنهار ومجارى المياه بوجه خاص حيث توجد تربة خصبة ومراع شاسعة. وأهم أودية الأنهار

الأوروبية فى ذلك العصر هو وادى الدانوب . وفى نهايته يمتد الوادى إلى مانسميه الان السهول الخصبة فى المجر، أو الدانوب الأسفل ، وهى المنطقة التى تمتد فى اتجاه غرب آسيا الصغرى وقد انتقلت الحياة النيوليتية فى غرب آسيا عبر هذه السهول إلى شرق أوروبا جالبة معها تربية الماشية وزراعة الحبوب . ومن الجائز أن تكون حقول الغلال والمراعى الواسعة فى المجر أقامت أود الجماعات الكبيرة فى أوروبا عندما هجر الكثيرون من الناس حياة الصيد واستقروا فى مساكن ثابتة .وكذلك انتقلت حياة المراعى والزراعة من فلاحى الدانوب عبر النهر العظيم إلى قلب اوروبا إذ تكشف لنا بقايا المساكن النيوليتية التى انتشرت فى ذلك الوقت من المجر نحو الغرب عن تحسنات كبيرة فى أساليب المعيشة .

ومن المحتمل أن أولى البيوت فى تلك القرى الصغيرة كانت مجرد أكواخ من الأغصان غطيت جدرانها بطبقة من الطين أو ببعض الحشائش المجدولة . وعلى أى حال فقد كانت الادوات الحجرية ، المسنونة الأطراف من الأسباب التى سهلت بناء البيوت الخشبية لأننا لو فحصنا أدوات الصناع النيوليتيين لوجدنا أنها تحوى مجموعة من الأدوات تقرب فى كالها من أدوات النجارة فى عصرنا الحالى . فكان لديهم الفؤوس وكانوا يستعملون أزاميل وسكاكين ومثاقب ومناشير ومسنات مصنوعة فى معظم الأحيان من الظران . وفى بعض الأحيان كانت تصنع من أحجار صلبة أخرى . ولقد تعلموا كيف يربطون يدا خشبية حول رأس الفأس أو يشكلون رأس الفأس بحيث توضع فى مقبض مصنوع من قرون الغزال أو يثقبون ثقبا فى رأس الفأس ويدخلون فيها يدا ، وإذا فحصنا هذه الآلات وجدنا أنها قد صقلت من جراء استعمالها . ومن الخطأ القول بأنه لم يكن فى استطاعة الانسان أن يعمل أشياء متقنة وبسرعة بمثل هذه الادوات الحجرية ، فقد أجريت تجربة حديثة فى الدانمرك إذ أعطوا فأسا حجرية لأحد العمال الميكانيكيين ، وبالرغم من أنه لم يكن متعودا على استعمال هذه الادوات الحجرية إلا أنه استطاع فى ظرف ١٠ ساعات من العمل أن يقطع ٢٦ شجرة صنوبر يبلغ قطر الواحد منها ٢٥ سنتيمترا . وبعد ذلك قطعها إلى

كتل . وفى ظرف ٨١ يوما أتم العامل قطع الألواح والكتل الخشبية وبناء المنزل بأدواته الحجرية . وعلى ضوء هذه التجربة يمكن القول بأنه من المحتمل أن يبنى رجال



شكل ١٣ : هيكل عظمى لثور برى يحمل أثر سهام الصياد الذى قتله فى غابات الدانوب منذ تسعة آلاف سنة تقريبا

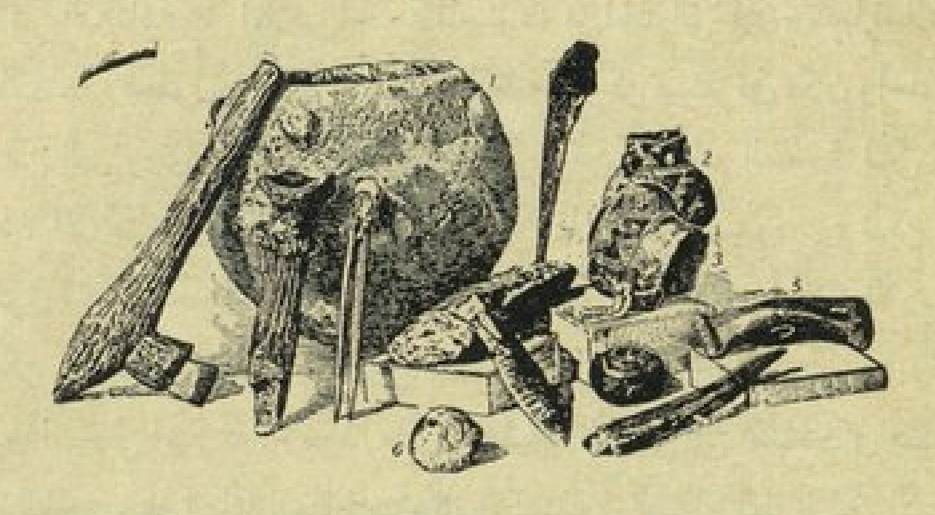
لقد أصابه صياد من العصر الحجرى المتأخر فى ظهره بالقرب من العامود الفقرى (انظر الحلقة البيضاء فى الجزء العلوى من الهيكل العظمى) والتأم الجرح مخلفا ندبة فى الضلع (ا فوق) ٠ وبعد ذلك أصابه صياد آخر وفى هذه المرة اخترقت أحشاءه عدة سهام واصطدم احدها بضلع (انظر الخاتم الابيض السفلى على الهيكل العظمى) وانكسر فيه ٠ ونرى فى الرسم جانبى هذا الجرح الذى لم يلتئم محشوا برأس السهم الظرانية المنكسرة فيه (فوق فى ب ، حـ) ومات هذا الثور المجروح بينما كان يحاول أن يسبح عبر بحيرة مجاورة ، وغرقت جثته الى القاع وعندما وصل الصياد الذى كان يتتبعه الى البحيرة لم يجد اى اثر له ٠ وعلى مر آلاف السنين بدأت البحيرة تجف تدريجيا وحلت الاعشاب الجافة محل الماء الذى كان عمقه أكثر من ثلاثة أمتار ٠ وكان لهذه الاعشاب نفس العمق ، وغطت هيكل الثور العظمى ٠ وعثر عليه فى هذا المكان فى سنة ١٩٠٥ ، وعثر معه على رؤوس السهام الظرانية التى قتلته ٠ وقد نقل هيكله العظمى الذى مازال يحمل علامات رؤوس السهام الظرانية ا ، ب ، حـ الى متحف كوبنهاجن حيث وضع هناك

العصر الحجرى الحديث مساكن مريحة ويعيشوا فيها حياة أرقى بكثير من الهمجيين

وتوجد فى سويسرا أكثر بقايا المساكن الخشبية الأولى فى الأهمية فى أوروبا. فقد بنت هناك جماعات من العائلات فى العصر النيوليتى قراهم المكونة من المنازل الخشبية على أماكن مرتفعة ممتدة فى صفوف طويلة على طول شواطىء البحيرات السويسرية [١]. وكانت هذه المنازل تقام فوق سطح من الخشب تحملها دعائم خشبية مثبتة فى الأرض. وهذه القرى أو مجموعات المساكن المقامة فوق الدعامات تسمى عادة قرى البحيرات. وفى حالات قليلة كانت هذه القرى تنمو وتصبح كبيرة كما فى وانجن Wangen حيث عثر على مالا يقل عن ٥٠ ألف دعامة فى الأرض لتثبيت القرية. وعاش سكان قرى البحيرات حياة سلام ورخاء . وكانت منازلهم مأوى مريحة . وكانت مجهزة بالأثاث وأدوات خشبية وأباريق وملاعق خشبية ومعها الأطباق والأوعية والأوانى الفخارية. وبالرغم من أن أوانيهم الفخارية كانت غير دقيقة الصنع لأنهم لم يعرفوا إستعمال عجلة الفخار ولم يحرقوها فى أفران إلا أنها كانت سببا فى جعل الحياة المنزلية أكثر راحة وسهولة مما كانت عليه من قبل. وبالقرب من المنزل كانت المياه غاصة بالسمك الذى كانوا يصطادونه بخطاطيف من العظم أو شباك من حبال الكتان الذى كان يزرعه سكان قرى البحيرات.

وكانت سفوح التلال التى تطل على قرى البحيرات مخضرة بحقول القمح والشعير والذرة، وكان هذا المصدر الجديد للغذاء كافيا لهم، ووجد الحفارون أكثر من ١٠٠ كيلة من الحبوب فى قاع البحيرة تحت قرية وانجن Wangen من قرى البحيرات

١ – عثر لاول مرة على بقايا قرى البحيرات السويسرية سنة ١٨٥٤ عندما انخفض مستوى المياه فيها جدا بعد فصل جفاف غير عادى ، واتضح الان ان هذا المستوى المنخفض للمياه كان نفس المستوى الاصل عندما بنيت هذه القرى . ولهذا أقامها أهلها على الارض الجافة بجانب البحيرة وليس فوق الماء كما كان يعتقد قبلا. وارتفع مستوى البحيرات السويسرية فى خلال آلاف السنين وغطى الشواطىء القديمة ومعها بقايا القرى القائمة على أعمدة ، ومن هنا جاء الرأى الخاطىء وهو انها بنيت فوق الماء وثبتت الاعمدة فى قاع البحيرة . وبين هذه الاعمدة القائمة وجدت كميات كبيرة من الادوات وأثاث المنازل والآلات والزوارق المنحوتة فى الشجر وكذلك شباك صيد السمك وبعض القمح والشعير وعظام الحيوانات الاليفة والكتان المنسوج وغيرها



شكل ١٤ : أشياء وجدت فى مساكن البحيرات السويسرية
نرى هنا ثلاثة اختراعات هامة تمت خلال العصر النيوليتي

أولا : الاوعية الفخارية مثل ٢ ، ٣ ذات زخارف غير معتنى بها — وهى أقدم طين محروق فى أوروبا — وفى ١ وعاء ضخم كان سكان البحيرات يطبخون فيه طعامهم

ثانيا : الادوات ذات الحد المشذب مثل ٤ وهو أزميل حجرى مركب فى مقبض من قرون الغزال كالمطرقة ، أو مثل ٥ وهى فأس حجرية بها ثقب لتثبت فيه يد الفاس

ثالثا : أما ثالث الاختراعات فهو النسيج كما يرى فى ٦ حيث نرى آلة غزل من الطين المحروق وهى أقدم جهاز للغزل · وكانت تعلق فى خيط خشن من الكتان طوله من ٤٥ الى ٥٠ سنتيمترا ثم يدفعها فتدور فى الهواء ، وهكذا تبرم الخيط الذى تعلق به · وعندما يبرم الخيط الى الحد الكافى كان يلف ويؤخذ خيط بالطول السابق من الكتان غير المنسوج ليبرم بهذه الطريقة

المندثرة . وانتشرت كذلك حقول الكتان الصغيرة بجانب الحبوب النامية على سفوح التلال ، وكان النساء يجلسن أمام ابواب مساكنهن يغزلن . وقد حلت الملابس الكتانية محل الملابس الخشنة المصنوعة من الجلد التى كان يرتديها أسلافهن. وكانت هذه الحقول من ضمن الاسباب لإقامه مساكن مستقرة فى مكان واحد لانه كان من الضرورى للفلاحين أن يبقوا بالقرب من حقولهم الصغيرة لكى تفلح نساؤهم الأرض . وكان القمح يحتاج إلى عناية فاذا مانضج حصدوه . ولم تكن تلك الحقول مملوكة لأحد فى أول الأمر ولم يكن أحد يعرف شيئا عن امتلاك الأرض ، ولكن بعد مضى وقت أصبح لكل بيت الحق فى زراعة حقل معين . وفى النهاية أصبح لهم حق امتلاكه . وهكذا ظهرت ملكية الأرض التى أصبحت فى مستقبل حياة الناس مصدرا دائما للمضايقات وكانت السبب فى الصراع الطويل بين الأغنياء والفقراء ـ وهو صراع لم يكن معروفا من قبل عندما كانت الأرض مباحة للجميع ـ وبدأ عدد كبير من أوروبى العصر الحجرى الحديث فى هذا الوقت يملكون مساكن مستقرة داخل القرى وحولها.

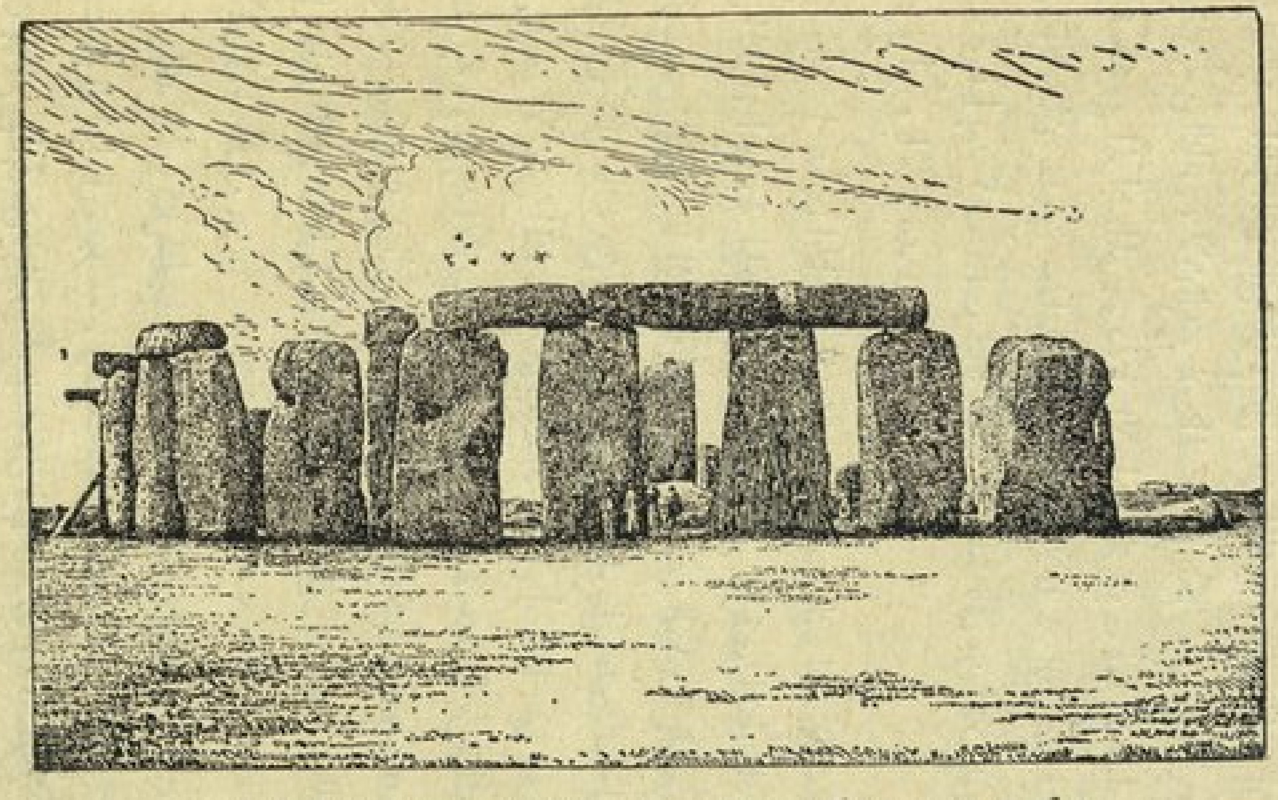
ومن ناحيه أخرى نرى أن امتلاك الحيوانات التى تعيش على العشب وتستطيع أن تعيش فى المراعى قد خلق طبقة من الناس الذين كانوا مضطرين ليعيشوا حياة غير مستقره . ولم تكن المراعى خصبة فى كل مكان إلى الحد الذى يسمح بابقاء الماشية دائما فى مكان واحد ، وكان رعاتها يضطرون إلى البحث عن المرعى فى أى مكان آخر ، وهكذا أصبحوا يحيون حياة تجوال يقودون قطعانهم ويرعونها فى أى مكان به أرض معشبة تمـــدها بالقوت . وبينما مكث الفلاحون مستقرين فى أراضيهم الزراعية الغنية ، امتلك البدو الأراضى المعشبة الممتدة من الدانوب شرقا حتى شمال البحر الأسود ومن ثم بعيدا حتى آسيا . وبقيت حياتهم دائما أقل تحضرا وأكثر خشونة من الحياة المستقرة فى القرى ،

وهكذا خلقت الحبوب والماشية طريقتين من طرق المعيشة استمرتكل

منهما بجانب الأخرى ، الحيـاة الزراعيه المستقرة التى تقوم على زراعة الحبوب ، وحياة البدو الجوالين التى تقوم على رعى الماشية . ومن المهم أن نفهم حياة هاتين الطبقتين من الناس ، لأن البدو غير المستقرين يتكاثرون جداً فى وقت من الاوقات فلا تكفيهم المراعى الموجودة فى الاراضى التى تنبت فيها الأعشاب ، وكانوا فى مثل هذه الأحيان يفدون جماعات إلى المدن والأماكن الزراعية فيتغلبون على أهلها . وسنرى فيما بعد كيف كانت قبائل البدو الوافدة تأتى من الاراضى المعشبة فى الشرق لتغزو أوروبا مرة بعد مرة .

وأخيرا بدأت الجماعات المستقرة فى العصر النيوليتى تخلف وراءها شيئا أكثر من المنازل الخشبية الهشة والاكواخ . فى الوقت الذى كاد فيه هذا العصر أن يقترب من نهايته بدأ الزعماء الاقوياء فى القرى الكبيرة يقيمون لانفسهم مقابر مبنية من كتل هائلة من الحجر ما زالت توجد على حدود ساحل أوروبا الغربى ، من البحر الأبيض المتوسط على امتداد ساحل أسبانيا حتى شواطىء اسكنديناوة الجنوبية ، ويوجد الآن مالا يقل عن ٣٤٠٠ مقبرة حجرية من ذلك العصر فى جزيرة سيلاند Sealand (التابعة للدانيمرك) وكثير منها ذوحجم غير صغير . وتوجد مثل هذه المقابر فى فرنسا وتمتاز بعددها الكبير وأحجامها العظيمة ، وكذلك الأمر فى إنجلترا .

ولقد كانت كتل الحجارة الضخمة تترك بدون تهذيب كما هى ، وعند قطعها كانوا يستعملون أزاميل حجرية . ولا يمكننا أن نعتبر هذه الاحجار بمثابة مبانى لانها لم تبن بقطع مهذبة من الحجر أو يستعمل فيها الملاط ولا نستطيع كذلك أن نعتبرها من أعمال العمارة فذلك شىء لم يكن قد حدث فى أوروبا . وتدلنا تلك الآثار التى أقيمت فى العصر النيوليتى على وجود أقدم المدن فى أوروبا ، فبالقرب من كل مجموعة كبيرة من المقابر الحجرية كانت توجد مدينة يقيم فيها السكان الذين بنوا تلك المقابر . وقد



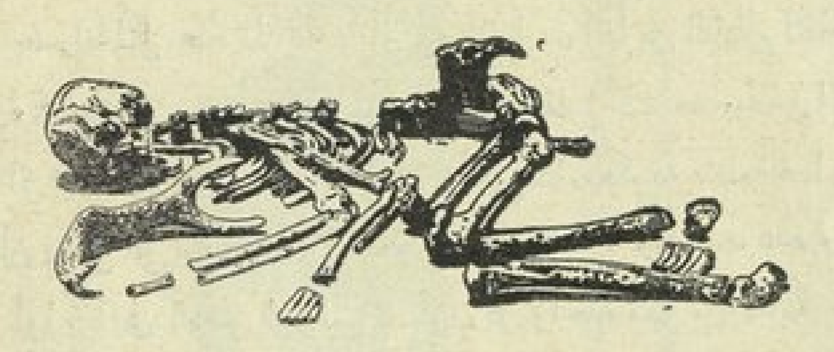
شكل ١٥ : دوران كبير من الحجر فى ستونهنج Stonehenge بانجلترا
يبلغ قطر الدوران حوالى ١٠٠ قدم ، ويصله بالمدينة المجاورة التى يرجع
تاريخها الى العصر الحجرى طريق طويل لايزال آثره باقيا · ويعتقد البعض ان
ستونهنج Stonehenge كانت مكانا لدفن بعض الزعماء فى العصر الحجرى

اكتشفت بقايا بعض هذه المدن وأزيل عنها الركام الذى كان يغطيها وهى ترينا أن الناس تعلموا كيف يعيشون معا وأن عددهم كان كثيرا وكانوا يعملون متعاونين على نطاق واسع .

وكان لابد من وجود سيطرة تامة على الرجال وإدارتهم بحزم حتى يستطيعوا أن يقيموا جدرانا لمثل هذه المدينة ، أو ليصنعوا ٥٠ ألفا من الدعائم لتقام عليها قرية البحيرة فى وانجن Wangen فى سويسرا ، أو لينقلوا كتلا ضخمة من الحجارة لبناء مقابر الزعماء ، وكانت هذه الأعمال بشائر إنشاء حكومة منظمة لها زعيم . ونستطيع أن نطلق على مثل هذه الحكومة اسم ولاية . وقد نمت عدة ولايات صغيرة فى أوروبا فى العصر النيوليتى تتكون كل واحدة منها من مدينة مسورة بجدران وتحيطها الحقول ويحكمها زعيم . ومن أمثال هذه البدايات تسير الأمم فى طريق التكوين . تلك المنشآت الحجرية تعطينا لمحات جميلة عن الحياة فى المدن النيوليتية ، وشكل بعض هذه الآثار يجعلنا نفترض أن جماعات كاملة كانت تأتى من المدن فى أيام الأعياد وتسير إلى أماكن مثل الدوران الحجرى العظيم فى ستونهنج Stonehenge . وهناك رأى آخر وهو أنهم كانوا يتبارون فى هذه الأماكن فى مسابقات وألعاب رياضية داخل هذه الدورانات الحجرية تكريما لذكرى الزعيم المدفون تحتها . ومن المحتمل أن مواكب هذه الاحتفالات سارت فى الطرقات الطويلة التى تحدوها الأحجار الضخمة . أما اليوم فان هذه الطرقات ساكنة مهجورة ، وتمتد عدة كيلو مترات عبر حقول الفلاحين لتذكرنا بأفراح الانسانية التى نسيت ، وبعادات قديمة وعقائد طالما احترمها القوم الذين عاشوا يوما ما فى أوروبا فى العصر الحجرى .

وإذا كانت هذه المدافن آثاراً باقية لعقائد دينية حسب رأى البعض أو لنشاط اجتماعى كما يرى البعض الآخر فان هناك آثاراً أخرى ، تكشف لنا عن حياة الناس

اثناء عملهم . بدأ الناس فى ذلك العهد فى اتخاذ حرف فكان بعضهم يعمل فى صناعات الخشب ، وكان آخرون يصنعون الفخار ، وبقى البعض الآخر فى أعمال المناجم . وقد حفر هؤلاء العمال القدماء فى أعماق الأرض كى يصلوا إلى أجود طبقات الظران



شكل ١٦ : هيكل عظمى لاحد عمال المناجم فى العصر الحجرى المتاخر

وجد هذا الهيكل العظمى ملقى على أرضيـــة منجم ظران في بلجيـكا ، تحت الصخور التى انهارت وسحقته . ونرى أمامه المعول ذا الطرفين المصنوع من قرن الغزال والذى كان يستخرج به قطع الظران من مهدها الطباشيرى . والمعول لايزال فى موضعه عندما سقط من يده فى اللحظة التى انهار فيها الكهف

ليصنعوا منها أدواتهم الحجرية . وفى السراديب القديمة التى حفرها عمال مناجم الظران القدماء فى براندون Brandon بانجلترا عثر منذ وقت غير بعيد على ثمـانين معولا باليا مصنوعة من قرون الغزلان . وفى أحد الأماكن تقوض السقف وسد ممرا فى المنجم . وهناك عثر الأثريون وراء الصخور المتساقطة على معولين من قرون الغزال وكان على هذين المعولين طبقة من غبار الطباشير مازال ظاهرا به بصمات أصابع العامل الذى تركها هناك لآخر مرة منذ آلاف السنين .

وكان هناك تعامل واتصال بين القرى ، بل إن الحقيقة أن التجار الأوائل كانوا

يحملون البضائع مسافات بعيدة وإلى أماكن كثيرة . ومن الأمثلة الظاهرة التي تدل على ذلك عثور الباحثين على أنواع من الظران الفرنسي الجيد مبعثرة فى أجزاء عديدة فى أوروبا حيث دل عليها لونها . كما انتقل الكهرمان الذى كان يجمع على شواطىء البلطيق من يد إلى يد حتى وصل جنوباً إلى البحر الأبيض المتوسط . وعثر فى الجزائر التى حول أوروبا على أدوات حجرية تثبت لنا أن بعض الناس فى ذلك العصر كانوا يملكون قوارب قوية إلى الحد الذى يكفى لحملهم إلى تلك الجزر . ووجدت عدة زوارق منحوته فى الأشجار استعملها سكان البحيرات . وجدت هذه الزوارق فى قاع البحيرة وسط القوائم الخشبية ، إذ لم تكن السفن ذات الشراع قد عرفت بعد فى أوروبا . أما الأعمال التجارية فى مثل هذا العصر فقد كانت بالطبع بسيطة جداً .

لم تكن هناك معادن أو نقود . وكان البيع والشراء يتم بمقايضة نوع من البضائع بنوع آخر . ولم يكن للكتابة وجود فى كل أوروبا ، بل لم تخترع أية طريقة للكتابة فى أى مكان فى القارة الأوربية . ولكن الاتصال بين هذه القرى القديمة فى أوروبا لم يكن دائماً سلمياً . فإن الأسوار الترابية والسياجات الخشبية التى أقاموها حول المدن لحمايتها تثبت لنا أنه كثيراً مادوى صوت نفير الحرب الخاص بالزعيم ليدعو القوم لصد الأعداء . وما زالت هناك آثار محزنة لبعض هذه الحروب القديمة فى أوروبا . ففى مقبرة من ذلك العصر فى السويد عثر على جمجمة وفيها رأس سهم من الظران ما زال مغروزاً فى إحدى حفرتى العين ، بينما عثر فى فرنسا على أكثر من عظمة آدمية مغروز فيها رأس سهم من الظران . وفى مدفن اسكتلندى عثر على تابوت بداخله جثة رجل ضخم الحجم وإحدى ذراعيها تكاد تنفصل من الكتف نتيجة ضربة فأس حجرية ، وفى عظام الذراع المصاب علقت قطعة من الحجر كسرت من حد الفأس .

هكذا كانت حياة النيوليتيين على الجانب الشمالى للبحر الأبيض المتوسط عندما اقترب هذا العصر من نهايته حوالى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد . لم يتقدموا تقدما كبيرا بعد تحولهم من حياة الصيد إلى الحياة المستقرة على مقربة من حقول حبوبهم ومراعيهم، ولم يعرفوا الكتابة حتى يستعملوها فى تدوين أمور تجارتهم وحكومتهم ، واستمروا بدون معادن(١) فلم يصنعوا منها الأدوات التى عساها تمكنهم من التقدم فى صناعاتهم، ولم يكن لديهم سفن شراعية تحمل تجارتهم ، وبدون هذه الأشياء لا يستطيع الانسان أن يتقدم كثيرا .

---

١ ـ ادخلت المعادن فى الجنوب الشرقى لاوروبا حوالى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد وانتشرت كموجة بطيئة متحركة تدريجيا غربا وشمالا عبر أوروبا . ومن الجائز انها لم تصل بريطانيا حتى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد تقريبا . ومن هنا وضعنا النصب الحجرية الضخمة الخاصة بغرب أوربا ضمن دراستنا للعصر الحجرى فى أوربا . وقد أقيمت تلك النصب بعد أن عرف جنوب شرقى أوربا المعادن بوقت طويل ، ولكن قبل ان ينتشر استعمال المعادن فى غرب أوربا

ربع الكرة الأرضية

الذى نمت فيه الحضارة وتطورت

رأينا فيما سبق كيف تطورت حياة القدماء فى حوض البحر الأبيض المتوسط، واهتممنا اهتماماً خاصاً بالمناطق التى فى شماله وفى جنوبه حيث عثر رجال الآثار على أدوات كثيرة درسوها دراسة وافية، وتشهد مجموعات آثار عصر ماقبل التاريخ على أن القدماء عاشوا فى جميع الأراضى المحيطة بالبحر العظيم وفى الأراضى التى تحيط به. وهكذا كان البحر الأبيض المتوسط مركز التقدم فى الحياة وهو الأمر الذى بدأ منذ أول ظهور الإنسان. ولندرس الان ربع الكرة الأرضية الذى يشغل فيه هذا البحر الأبيض المتوسط جزءاً هاماً. كانت الحياة الحضارية المبكرة فى الجانب الأفريقى من البحر الأبيض المتوسط على هيئة شريط ضيق يمتد بامتداد الشاطىء (لأن الصحراء الكبرى كانت تقع خلفه) وتمتد جنوباً فى خط ضيق بامتداد نهر النيل. وأما فى الجانب الأوروبى من البحر الأبيض المتوسط فإن القوم المتحضرين اتجهوا تدريجاً نحو الشمال، وفى وقت ما وصلوا إلى البلطيق والبحر الشمالى والجزر البريطانية، وفى الطرف الاسيوى من البحر العظيم توغلت الحياة المتحضرة كثيراً فى الداخل، وفى النهاية وصلت شرقاً حتى الهند والصين.

فإذا بدأنا بالبحر الأبيض المتوسط نجد أن حدود شواطئه الثلاثة، الجنوبى الشمالى والشرقى والأراضى الواقعة خلفها، كونت العالم الذى تطورت فيه حياة الإنسان فى ثلاث قارات. وإذا أخذنا هذه المناطق كوحدة، فانها تكون مثلثاً يدخل فيه جزء كبير من الربع الشمالى الغربى لنصف الكرة الشرقى. هذا المثلث الذى سماه البعض الربع الشمالى الغربى العظيم، قاعدته هى الحدود الجنوبية للصحراء فى إفريقيا

وآسيا ، أو على وجه التقريب خط عرض ٢٠ شمالا . وضلعه الشرقى عبارة عن خط يتجه من الشمال إلى الجنوب محاذياً جبال الأورال تقريباً وينطبق على خط الطول ٦٠ شرقاً . وإلى الغرب من هذا الخط وشمال خط العرض ٢٠ يمتد الربع الشمالى الغربى العظيم حتى يصل إلى المحيط الاطلنطى والمتجمد الشمالى وهما يكونان حدوده فى الشمال والغرب .

وفى هذا المثلث العظيم تطورت الحضارة التى ورثتها الآن كل من أوروبا وأمريكا. ومن الناحية الجغرافية يتكون هذا الربع المتسع من ثلاث مناطق من الشرق إلى الغرب . فهناك أولا منطقة المرتفعات التى تتضمن الجبال ، وتمتد على طول الجانب الشمالى من البحر الأبيض المتوسط ثم تتجه شرقاً إلى قلب آسيا وراء الضلع الشرقى المثلث السابق ذكره . وإلى شمال منطقة المرتفعات توجد الأراضى المستوية الشماليه التى تمتد كذلك شرقاً حتى قلب آسيا . وإلى الجنوب من منطقة المرتفعات توجد أراضى السهول الجنوبية التى يشغلها من الغرب حوض البحر الأبيض المتوسط . ومن المهم أن نلاحظ أن أكثر الأراضى المستوية الجنوبية ليست إلا صحراء تمتد من شمال أفريقيا شرقاً عبر البحر الأحمر ثم تتوغل فى آسيا .

أما سكان الربع الشمالى الغربى العظيم فأنهم كانوا جميعاً من الجنس الأبيض منذ أن ظهر الإنسان فى عصر ما قبل التاريخ . ولكنهم يختلفون اختلافاً بيناً فى بين الخصائص الجسمانية . ففى أراضى السهول الشمالية نجد قوماً ذوى شعر أشقر ورؤوسهم مستطيلة مثل الاسكنديناويين الذين يسمون أحياناً الجنس الشمالى (Nordic) . أما جيرانهم فى الجنوب فكانوا ذوى رؤوس مستديرة ويسكنون فى منطقة المرتفعات ومن هنا يسمون غالباً الجنس الالبى (Alpine) أو الأرمنى . وفى الأراضى المستوية الجنوبية كان يسكن أناس شعرهم أسود ، رؤوسهم مستطيلة يعرفون الآن باسم جنس البحر الأبيض المتوسط . وهذه

الأنواع الثلاثة تكوّن جميع سكان الربع الشمالى الغربى ، وكان أسلاف الذين يسكنون الآن فى تلك المناطق هم الذين خلقوا الحضارة التى ورثناها . وإذا دققنا النظر خارج ذلك الربع الشمالى الغربى العظيم نجد فى الاقاليم المجاورة جنسين مختلفين فقط — المغول فى الشرق والزنوج فى الجنوب ويشغل هؤلاء الناس مكاناً هاماً فى عالمنا الحديث ، ولكن يظهر أنه لم يكن لهم أثر مباشر على الحضارة المبكرة فى الربع الشمالى الغربى .

وقد سكن المغول ، وهم جنس ذو شعر أسود مستقيم كالسلك ورؤوس مستديره لا لحية لهم وجلدهم أصفر ، سكن هؤلاء المغول الهضاب المنفردة فى داخل آسيا والتى نسمها بآسيا المرتفعة High Asia . ومن بين أقوام هذا الجنس استطاع الصينيون أن يكوّنوا لهم حضارة ذات طابع ممتاز [1] وخرجت أقوام من الصفر مهاجرة من موطنها فى مرتفعات آسيا فى جميع الاتجاهات ولكنهم لم يصلوا إلى الربع الشمالى الغربى إلا بعد أن تطورت فيه الحضارة لدرجة كبيرة . وقدهاجرت جماعات من الرحل الآسيويين — من الجائز أنهم كانوا من المغول — إلى أقصى شمال شرقى آسيا ، وهناك رأى يقول أنهم ظلوا فى اتجاههم حتى عبروا ألاسكا ، وربما تجولوا أبعد من ذلك ووصلوا إلى أمريكا وهكذا أصبحوا أسلاف الهنود الأمريكيين الشماليين .

وفى جنوب الربع الشمالى الغربى تقع أفريقيا التى تعج يسكانها السود كما هى الآن ، والتى فصلتها الصحراء الكبرى عن الجنس الأبيض . وكان وادى النيل هو الطريق الوحيد الذى يقطع الصحراء الكبرى من الجنوب إلى الشمال ، وكثيراً ماتجول السود

---

١ — اظهرت نتائج الحفائر فى الصين ان ماوصل الى أيدينا من أدوات يرجع تاريخها الى العصر الباليوليتى او النيوليتى تثبت أن بعض الاشياء الاساسية فى الثقافة الصينية يرجع أصلها الى عصر ما قبل التاريخ . اما عن العصر التاريخى فان الدكتور H.B. Creel يقول فى كتابه The Birth of China ص ٥٣ « من الناحيتين الاثرية والعلمية يرتفع الستار عن تاريخ الصين عندما كانت اسرة شانج تعيش فى انيانج Anyang فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد »

فى قلب أفريقيا واتجهوا شمالا فى هذا الطريق حتى وصلوا مصر ولكنهم كانوا يأتون فى جماعات صغيرة فقط . وهكذا قدر لهم أن يظلوا وحدهم بسبب الحاجز الصحراوى ، وبقى هؤلاء السود غير متأثرين بالحضارة التى فى شمالهم ولم يضيفوا إليها شيئا ذا نفع . ولذلك سنقتصر فقط على ظهور الحضارة فى الربع الشمالى الغربى .

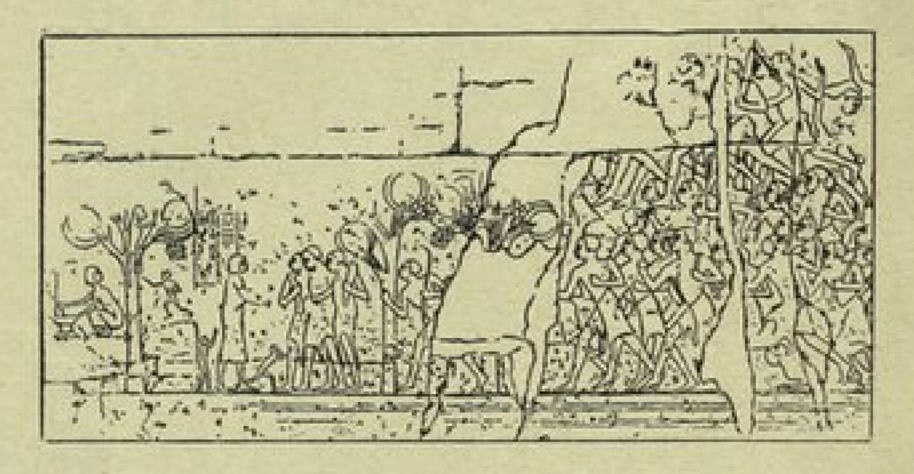
لقد رأينا كيف عاش رجال العصر النيوليتى وكان ينقصهم الكتابه والمعادن والسفن الشراعية كما كانت تنقصهم أشياء أخرى ضرورية لكى يعيش الانسان حياة أفضل من حياة البدائيين ، ولم تكتشف أو تخترع هذه الأشياء فى أوروبا وإنما على الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط فى مصر وآسيا الغربية أى فى البلاد التى يطلق عليها الآن اسم « الشرق الأدنى [1] . وتشبه هذه البلاد حدوة حصان كبيرة ، غير منتظمة ، فتحتها نحو الغرب وسميكة جدا فى الوسط ، وهكذا تجمعت بلاد الشرق الأدنى حول الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوسط وإلى شمالها آسيا الصغرى وإلى الجنوب منها شمال شرق أفريقيا [2]

بدأ سكان الشرق الأدنى يبنون حضارتهم قبل ٤٠٠٠ سنة ق . م . وخلال الالف سنة التالية من ٤٠٠٠ – ٣٠٠٠ ق . م . تقدموا فى بناء تلك الحضارة العظيمة وبدأوا العصر التاريخى أو العصر الذى ابتدأ عندما كتب الانسان لأول مرة مستنداته ، تلك المستندات التى تقص علينا فى كلمات مكتوبة شيئا عن حياة الانسان وما مر عليه من أحداث .

---

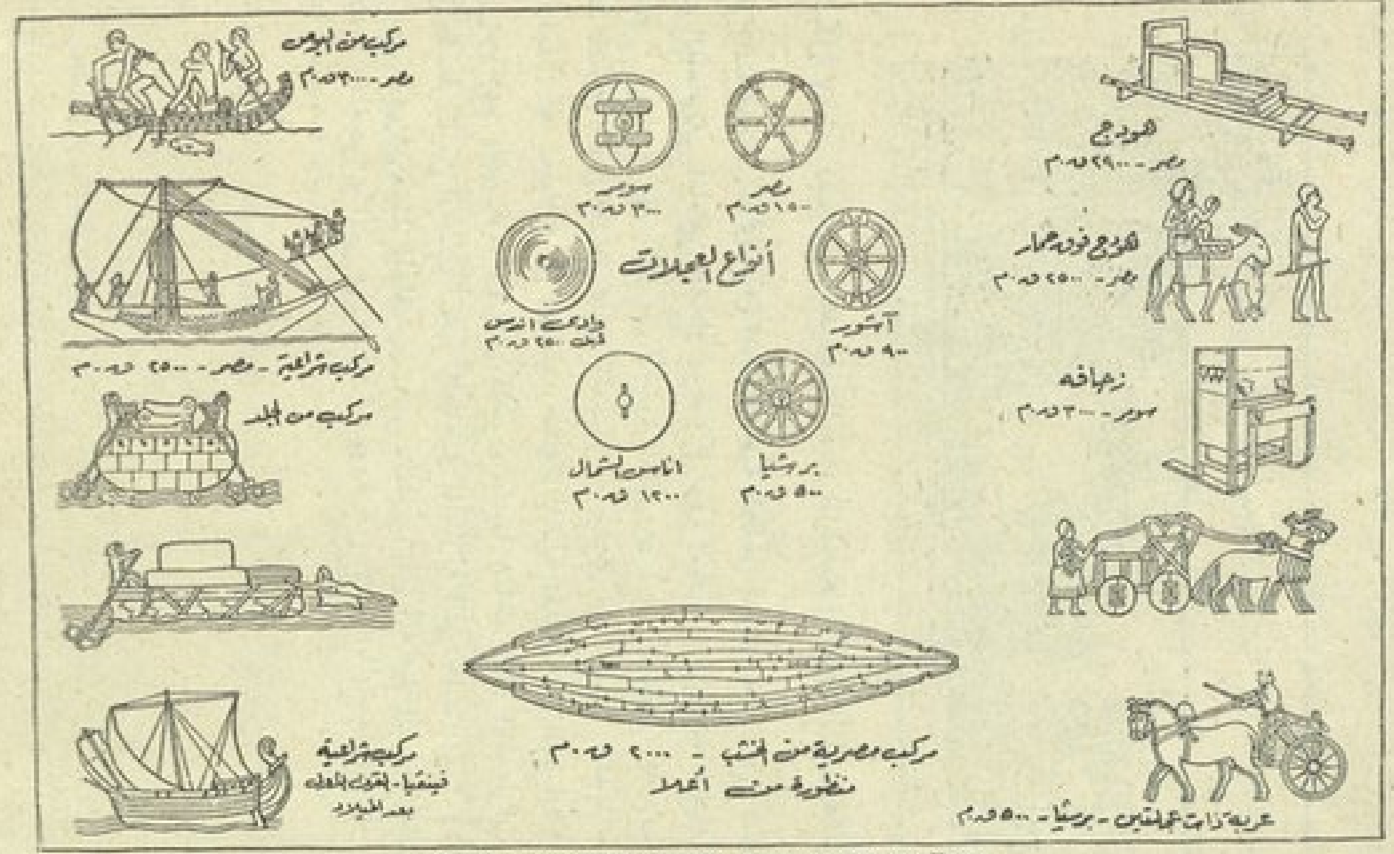
١ – يستعمل اصطلاح « الشرق الاقصى » ليدل على الصين والهند والجزر الباسيفيكية وخاصة اليابان . واصطلاح « الشرق الادنى » هو الآن أصلح اسم للاراضى المجتمعة حول الطرف الشرقى للبحر الابيض المتوسط .

٢ – ظهر منذ الحرب العالمية الثانية اصطلاح « الشرق الاوسط » وهو يضم جميع البلاد التى نسميها الشرق الادنى ويضمون اليها مناطق أخرى مثل تركيا والسودان وشمال أفريقيا وغيرها . ولكنها تسمية سياسية وضعت فى ظرف خاص لغرض معين ولا يمكن ان تحل محل اصطلاح الشرق الادنى عند حديثنا عن التاريخ – المعرب



شكل ١٧ : أقدم رسم معروف للحياة الزنجية (القرن الثالث عشر ق٠م)

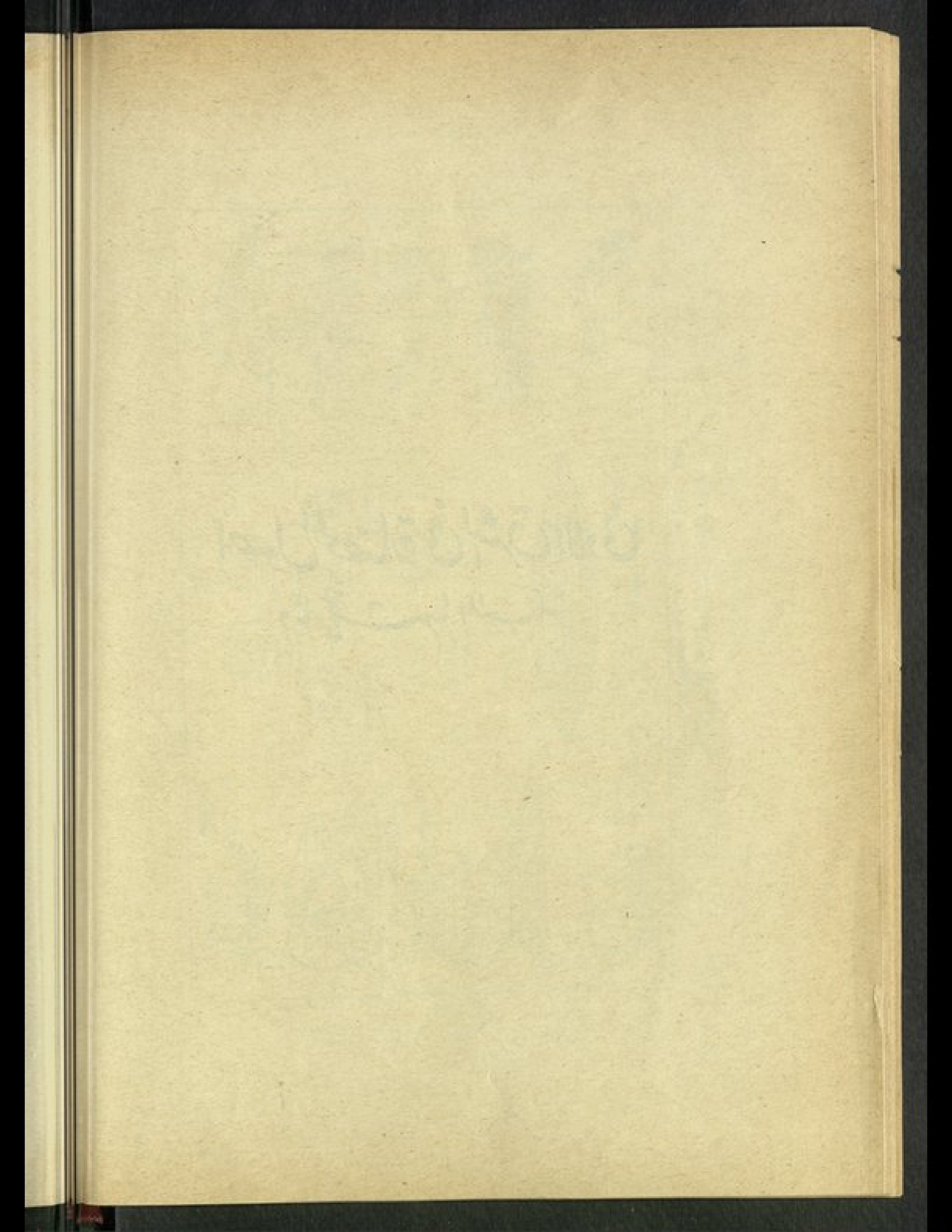
في الناحية اليسرى نرى امرأة زنجية تجلس تحت نخلة (من شجر الدوم) تقلب الطعام في اناء من الفخار موضوع فوق النار ٠ وفي هذه الاثناء حدثت ضجة عظيمة ٠ وجاء فريق كبير من الجنود المنهزمين (الى اليمين) يفرون أمام هجوم الملك المصرى الذى اقتحم عليهم المعسكر ٠ ونرى في اليسار جنديا جريحا يستند على رفيقين له يحملانه الى زوجته وطفله اللذين يتقدمان من اليسار ٠ وعلى النخلة التى بجانبهم يقفز قرد ويتقنق بجنون عندما شاهد ذلك الاضطراب ٠ ويندفع طفل مضطرب من الخلف ليخبر الطاهية بالكارثة التى حلت بهم ٠ وهذا الرسم على أحد جدران معبد للملك رمسيس الثانى ، أى أنه من القرن الثالث عشر قبل الميلاد ٠ والفجوات التى فى هذه الصورة هى الاجزاء المهشمة فى الرسم الاصلى ٠



TRANSPORTATION IN THE ANCIENT NEAR EAST

طرق المواصلات فى الشرق الادنى القديم

أصول الحضارة في الشرق الأدنى
وتاريخها المبكر



الفصـــل الثـالث

قصة مصر

أقدم الحضارات وعصر بناة الأهرام
بدء التنظيم الإدارى فى مصر

وإذ نعود الآن لنستأنف الحديث عن التقدم الإنسانى فى العصور المبكرة فى الشرق الأدنى فأننا نبدأ بمصر ، فنحن نذكر كيف تتبعنا صيادى شمال أفريقيا وهم يهبطون إلى وادى النيل عندما أخذت الهضبة فى الجفاف ، ونذكر أيضاً كيف بدأ هؤلاء الصيادون فى الانتقال إلى حياة مستقرة وأخذوا يربون الماشية ويزرعون الأرض .

ولما كان الماء أساسياً لنمو الحب فى الحقول ، ومصر بلد يتعدم فيه المطر ، فإن المصريين الأوائل كانوا مضطرين لعمل جهاز بسيط ليرفعوا المياه به من النهر أو من القنوات التى تستمد مياهها منه حتى تظل الجداول فى الحقول ملأى بالمياه ويجىء اليوم الذى ينضج فيه ما فيها من حبوب . وما زال المصريون فى الوقت الحاضر يستعملون هذه الآلة لرفع المياه وهى الآلة نفسها التى ورثها أجدادنا نحن معشر الأمريكيين ، وكانت تستعمل كثيراً من الأوقات فى نيوانجلاند (١) لنزح آبار المياه .

إن التربة السوداء التى يأتى بها النيل من هضبة الحبشة عظيمه الخصب ، وكان النيل فى كل صيف يرتفع فوق مستوى شاطئيه ويغطى الأرض المستوية ويظل فترة كافية لترسيب طبقة من تلك الرواسب . وجاء اليوم الذى ملأت فيه تلك الرواسب أيضاً الخليج الكبير الذى كان فى آخر النهر وكوّن ما نسميه الآن بدلتا نهر النيل .

---

١ — الولايات التى على الشاطىء الشرقى من الولايات المتحدة الامريكية .



شكل ١٨ : الشادوف المصرى — أقدم أنواع الاجهزة لرفع مياه الابار — يستعمل لرى الحقول ·

يقف الرجل الذى فى اسفل الصورة فى الماء ممسكا بدلوه المصنوع من الجلد (أ) فى الصورة ونرى فوقه قائم الشادف (ب) وفى نهايته كتلة كبيرة من الطين لتثقيله وايجاد التوازن · وهناك قائم آخر لتثبيت الشادوف فيه (د) · ويرفع هذا الرجل المياه ليضعها فى حوض صغير من الطين (هـ) · ونرى فى الصورة أيضا رجلا آخر يرفع المياه بنفس الطريقة من الحوض (د) الى حوض أعلى (و) · وفى أعلى الصورة رجل ثالث (ر) يرفع المياه من الحوض الاوسط الى الحوض الاعلى (ح) الى جانب الجزء العلوى من الشاطىء ومنه تسير المياه فى القنوات المتفرعة فى ارجاء الحقول ·

ويحدث ذلك أثناء انخفاض المياه ويستمر أمثال هؤلاء الناس يرفعون المياه من أسفل الى أعلى على ثلاث درجات ، يعملون ليلا ونهارا دون انقطاع مدى مائة يوم فى كل عام

وفى هذه الدلتا ومعها باقى الوادى حتى الشلال الأول ، اثنى عشر ألفا ميلا مربعاً من الأرض الصالحة للزراعة ، أى مايعادل مساحةولايتى ماساشوستس وكونيتيكت مجتمعتين تقريباً (١) ولكن المساحة التى كان من الممكن زراعتها فى العصر النيوليتى كانت أقل من هذه المساحة بكثير لأن الوادى كان فى تلك الأيام مليئاً بالمستنقعات . ولم يكن من الميسور زراعة بعض المحاصيل إلا فى أراض متفرقة هنا وهناك تفصلها تلك المستنقعات ، وكانت سرعة تيار النهر وقوته من العوامل التى جعلت زراعة شواطىء النيل عملا صعباً ، ولكن الأمر كان يختلف فى الدلتا ، فهناك تفرع نهر النيل إلى نهيرات صغيرة تيارها بسيط . وكان من السهل استصلاح المستنقعات لتصبح أرضا زراعية .

ومع مضى الزمن كان سكان الدلتا أسبق فى الحضارة من سكان الصعيد ، وكان هذا السبق فى الدلتا سبباً فى تنظيم أهلها لأنفسهم وتعاونهم فيما بينهم . وانتهى الأمر بأن أصبحت لهم حكومة بعد أن مضى عليهم وقت غير قليل عندما أحس السكان بحاجتهم إلى زعيم ، لأن الناس عادة يحسون بضرورة وجود من يتزعمهم عندما يحتاجون إليه ليعاونهم فى تنظيم الدفاع عن أنفسهم إذا ما هاجمهم عدو . ولكن زعامة مثل هذا الرئيس المحارب لم تضمن دائماً حسن الإدارة ، لأنه من الأفضل لمثل هذه الجماعة أن تجد زعيما ليحاسب من عينهم ليعنوا بأمر جداول الرى والترع ويرشدهم إذا احتاجوا إلى إرشاد . فإن فيضان النيل كان يملأ الترع بالطمى ، وكان من الضرورى على سكان أى مجموعة من القرى أن يتعاونوا فيما بينهم ويذهبوا لحفر تلك الترع وتطهيرها ، فإنهم يعلمون أنهم إذا أهملوا ذلك امتنع جريان الماء

---

١ — ولايتان من ولايات شرق أمريكا ومن أهم ولايات نيو انجلاند وأكثرها فى الأهمية الصناعية والتعليم . وتبلغ مساحة كونيتيكت Connecticut ٥٠٠٠ ميل مربع وعدد سكانها ٢٫٠٠٧٫٢٨٠ نسمة . وتبلغ مساحة ماساشوستس Massachusetts ٨٢٣٧ ميل مربع وعدد سكانها ٤٫٧٠٥٫٠٠٠ نسمة (المعرب)

إلى الحقول التى يعتمدون عليها فى الحصول على الحبوب ولن يكون هناك محصول ، أى أنه لن يتيسر لهم الحصول على الخبز . وكان الإشراف على مثل هذا العمل محتاجاً إلى زعيم ليس محارباً فحسب بل تتوافر فيه صفات كثيرة ، وانتهى الأمر بأن شخصاً ذكياً شجاعاً أصبح فى مكان الزعامة بين كل مجموعة من قرى الدلتا .

ذلك ما كان يحدث قبل سبعة آلاف عام على وجه التقريب ، ومن الجائز أن واحداً من زعماء مجموعات القرى فى الدلتا أصبح زعيما محليا وأصبح مشرفا على أعمال الرى فى منطقة كبيرة . وكان الناس فى تلك المنطقة مجبرين على أن يقدموا له فى كل موسم جزءاً من الحبوب أو الكتان الذى جمعوه من الحقول ، وإذا ما قصر أحدهم فى ذلك فإن الزعيم يأمر بمنع جريان المياه إلى حقله ، بل وربما حدث أكثر من ذلك وهو أن بعض رجال الزعيم يذهبون إلى هذا الممتنع لوضع الأمور فى نصابها ، وهكذا بدأت أقدم مظاهر الضرائب وهى النواة الأولى فى وجود الحكومة .

ويكاد يكون من المحقق أن كثيراً من أمثال هذا الزعيم وطدوا سلطانهم فى الدلتا إلى أن تمكن واحد منهم فأخضع الزعماء الآخرين الذين كانوا يتنافسون فيما بينهم وجعل الدلتا كلها مملكة واحدة ، وهى ما نطلق عليها اسم مصر السفلى لأنها واقعة فى آخر مجرى النيل . وحدث بعد ذلك أن قامت مملكة أخرى فى الجزء الواقع جنوبى الدلتا وشملت وادى النيل أى من قمة الدلتا حتى الشلال الأول وهى منطقة تمتد أكثر من ٥٠٠ ميل وتطلق عليها اسم مصر العليا .

كانت هاتان المملكتان قائمتين منذ سبعة آلاف عام أى حوالى عام ٥٠٠٠ ق . م . ، وظلتا متجاورتين عدة قرون . وكانت الحياة إذ ذاك شبيهة إلى حد ما بحياة الهنود فى أمريكا ـ قبل أيام خرستوف كولومبوس ـ الذين كانوا يعتمدون اعتماداً تاماً على الزراعة فى حياتهم .

وكان الملك يعيش فى كل من هاتين المملكتين فى عاصمة ملكه ، ولكن تلك المبانى التى أقامها الملوك كانت بسيطة وأقل من أن تقاوم الزمن فزالت ، ولم يصبح لها أثراً . وكان النـــاس يعيشون فى قرى على طول النهر لا تزيد عن عدد من الأكواخ والمنازل الصغيرة المبنية من الطين شبيهة بما كان قائماً منها قبل ذلك العهد . وقد زالت أمثال هذه المبانى بالطبع ، ولكن هؤلاء الناس اعتادوا أن يدفنوا أمواتهم على حافة الصحراء خلف القرى التى كانوا يعيشون فيها . كانوا يدفنون هؤلاء الموتى فى حفر غير عميقة . وأثبتت الحفائر التى قام بها الأثريون فى تلك الجبانات أن المعدن لم يستعمل إلا قليلا . وذلك يرجع إلى أن صناعة التعدين لم تكن معروفة لهم ، ولهذا لم يستطيعوا الحصول على كميات كبيرة منه . ومن ناحية أخرى لم يكن هناك أحد يعرف كثيراً عن صناعة شىء من ذلك المعدن . ومن المعروف أن المعدن لا يلعب دوراً هاماً فى حياة الإنسان اليومية ، إذا اقتصر استعماله على صنع بعض أدوات صغيرة مثل دبابيس الزينة أو بعض حبات تتخذ لصناعة عقود النساء أو صنع أزميل من وقت لآخر ، ولذلك استمر الناس يستعملون الأدوات والأسلحة المصنوعة من الحجر كما كانوا يفعلون من قبل .

ومن المحتمل جداً أن الصلة التجارية كانت كبيرة بين المملكتين لأن النيل يوحد بينهما ، ومن المحتمل أيضاً أنه حدثت فترات قامت فيها الجفوة مكان الود ، وأخيراً حوالى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد قام ملك قوى من ملوك الوجه البحرى (مصر السفلى) وخرج إلى الوجه القبلى (مصر العليا) غازياً وانتصر على ملكه . ولسنا نعرف حتى الآن اسم هذا الملك الذى تم على يديه تحقيق أول مملكة تجمع بين شمال مصر وجنوبها ، ولسنا نعرف الاسم الذى أطلقه على تلك المملكة الجديدة ولكننا نسميها اصطلاحاً باسم « الاتحاد الأول » ومن الجائز أن تلك المملكة

استمرت بضع قرون من الزمان ، حكم أثناءها كثير من الملوك كانوا يعيشون فى هليوبوليس ، مدينة الشمس ، التى كانت العاصمة الأولى لمصر الموحدة . كانت هذه المدينة بحكم موقعها مركزاً وسطاً بين المملكتين وظلت دائماً أكثر المدن المصرية تقديساً وأهمية .



شكل ١٩ : قبر مصرى فى عصر الاتحاد الاول

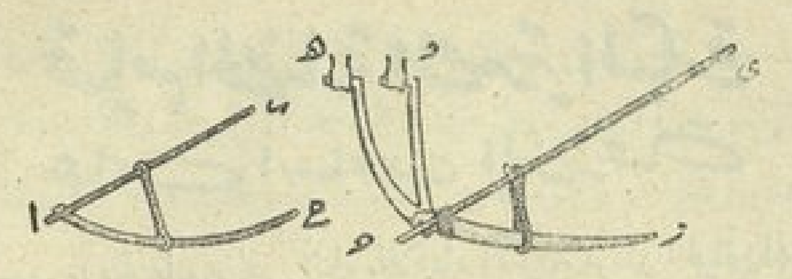
كانت المقابر على شكل حفرة عمقها خمسة أو ستة أقدام . وكان الميت يوضع فى وسطها تحيط به أوانى الفخار التى كانت تملأ بأنواع المآكل والمشروبات

قيام الحضارة المصرية المبكرة على أساس الزراعة

أصبحت مدينة هليوبوليس أثناء «الاتحاد الأول» مركز الحياة زاهرة لم تعرفها من قبل ، وبدأ الناس يكوّنون ثروات منقولة لاعهد لهم بها. كانت هذه الثروة هى الحبوب التى تدفقت على العاصمة من الحقول الكثيرة التى لم يعرف الانسان لها مثيلا قبل ذلك اليوم ، وهى حقول انتشرت فى أكثر أرجاء مصر وسهل عليهم زراعتها لاختراعهم للمحراث بعد أن كانوا لا يعرفون غير الفأس . وكان حرث حقل من الحقول بفأس خشبية عملا مضنياً وبطيئاً مما جعل مساحة الأرض التى استطاع هذا الانسان زراعتها بالحبوب محدودة ، وأخيرا جاء اليوم الذى أدرك فيه أحد المصريين المهرة أنه إذا أطال يد الفأس طولا كافيا يمكنه أن يربط طرفها إلى قائم يثبته بين رأسى ثورين ، فإذا أضاف إلى تلك الآلة الجديدة قائمين عموديين فإنه يستطيع أن يحرك هذا المحراث الجديد ويوجهه كما يشاء عندما يجره الثوران أمامه فى الحقل ، ومنذ ذلك الوقت تطورت حياة هذا الفلاح من ثقافة الفأس إلى ثقافة المحراث .

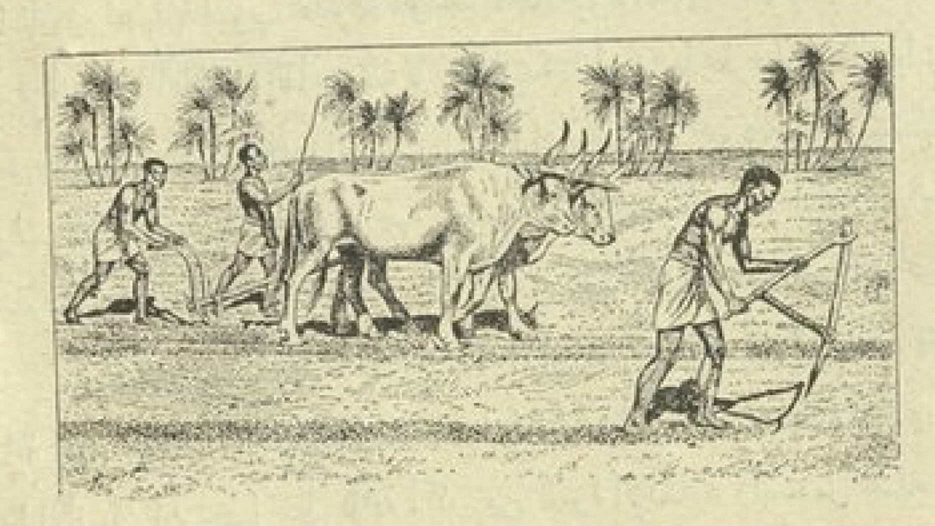
ويمكننا أن نسمى هذا الاختراع بأنه أول اختراع ميكانيكى للزراعة . فقد كان بداية لعصر جديد . وأصبح الإنسان قادرا على تسخير الحيوان ، وبعبارة أخرى أمكن لهذا الإنسان أن يحصل على طاقة أكبر من القوة الإنسانية واستعمل هذه الطاقة للمرة الأولى فى زراعة الحقول .

وكان من أثر هذا الاختراع المؤدى إلى إنماء مقادير الغذاء بين الأقدمين شبيها باستعمال الآلات الميكانيكية الحديثة وأثرها فى إنماء الثروة وتقدم الأمم فى العصر الحالى وخاصة فى القارة الأمريكية. ويمكننا أن نشبه توسع مصر فى إنتاجها فى عهد «الاتحاد الأول» بما حدث فى الولايات المتحدة عندما توسعت وزادت فى أراضيها



شكل ٢٠ : الى اليســار فاس مصرية من الخشب · والى اليمين المحراث الخشبى الذى تطور منها

اطال المصرى يد فاسه (ا ـ ب) فاصبحت ذراعا للمحراث (ج ـ ى هـ) وكان يربط الطرف العلوى (ى) الى نير يثبتـه فى قرون الثـورين · وكان القائمـان (هـ ـ و) لازمين للحارث لتوجيه المحراث حيث يريد ، وكان هــذان القائمان مثبتين بحيث يلتقى الذراع بسن المحراث (ح ـ ز) الذى حل محل سن الفاس (ا ـ ح) ولم يكن لاقدم المحاريث غير قائم واحد ولكن لم يمض وقت طـويل حتى أدرك المصرى أنه من الافضل له أن يزيد قائما ثانيا



شكل ٢١ : المحراث والفاس التى كانت اصلا له

يوضح هذا الرسم ـ وهو مستمد من منظر مصرى قديم ـ الفارق الكبير بين الاثنين · كان المحراث أقوى وأسرع · وكان فى استطاعة من يستعمله أن يحرث فدانا فى اليوم الواحد ، بينما لم يستطع من يستعمل فاسـه ـ اليـوم كله ـ أن يعزق أكثر من ربع فدان عزقا بسيطا لايؤثر الا على القشرة العلوية من الارض · وعلى هذا الاساس كان فى استطاعة المصرى الذى يستعمل المحراث أن يزرع أربعة أمثال مساحة الارض التى كان يزرعها من قبل ، وكذلك تضاعف محصوله اربع مرات وتضاعف بمثل هذه النسبة المحصول من الحبوب وما يدفعـه للملك من ضريبة

المنزرعة ، وكان أثر زيادة الثروة سواء بالنسبة للحكومه أو للأفراد عاملا مهما فى تقدم الحضارة المصرية . ولم يكن هذا الإيراد السنوى من الحبوب سببا فى زيادة الثروة فحسب بل يسر لهؤلاء القدماء أمر إقراض الآخرين جزءاً من هذه الثروة المنقولة إذا زادت عن حاجتهم ، ومكنتهم كذلك من دفع الضرائب وتسوية ما عساه أن يكون عليهم من ديون . ومن السهل أن ندرك أن وجود مثل هذه الثروة المنقولة ـ فى وقت لم يعرف فيه الانسان إستعمال النقود ـ كان عاملا مهما ذا أثر كبير فى حياتهم

وأصبحت هذه الزيادة الكبيرة فى مساحة الأراضى المنزرعة سببا فى أهمية وجود الحكومة المركزية للبلاد كلها أكثر مما كانت عليه من قبل لأن زياد مساحة الأراضى تطلبت زيادة كمية المياه لرى الحقول . وهكذا تغيرت النظم المحلية البسيطة الخاصة بالرى وأصبحت جزءاً من نظام يجمعها كلها ، نظام وطنى كبير له مركز إدارة فى العاصمة ، وأصبحت إدارة الرى التى تركزت فى أيدى موظفى الملك أول دولاب إدارى كبير فى تاريخ الإنسانية ، وله أثر واضح فى تنفيذ الأعمال الأخرى

ومن السهل أن ندرك أهمية الزراعة فى حياة المصريين القدماء أثناء فترة « الاتحاد الأول » من الأسماء التى أطلقوها على فصول السنة . فإنهم قسموا السنة إلى ثلاثة فصول ، أولها « الفيضان » ثم « البزوغ » ـ ومعناه ظهور أو خروج الحقول من مياه الفيضان التى كانت تغطيها ـ وأخيرا فصل « الحصاد » ، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا بين قوم كانت تدور حياتهم حول الرى والعمل فى الحقول حتى يقسموا سنتهم إلى فصول تشير إلى الفيضان وما تصبح عليه الحقول بعد ذلك . وكل فصل من هذه الفصول الثلاثة يحتوى على أربعة أشهر حسب النظام القمرى . وشابه المصريون فى هذا الشأن جميع الشعوب القديمة الأخرى لأن القمر هو أسهل الوسائل فى حساب الزمن ، مثلهم فى ذلك مثل الهنود الأمريكيين الذين كانوا يحسبون أيضا وقتهم بالشهور القمرية أى الفترة بين الهلالين . فإذا أراد أحدهم مثلا أن يقول إنه قام برحلة استغرقت شهرين فإنه يصفها بأنها استغرقت قمرين .

ولكن الشهر القمرى غير ثابت فى عدد أيامه ، فتارة يكون ثلاثين يوما وأخرى تسعة وعشرين يوماً. وفى الوقت ذاته نرى مدار السنة خاضعاً للنظام الشمسى، ولهذا لا يصلح الشهر القمرى وحده لتقسيم الثلاثمائة والخمسة والستين يوماً إلى أقسام متساوية . ولكن رغم الخطأ الواضح له والذى كان يسبب له كثيراً من المتاعب فإن الشهر القمرى كان على وجه التقريب جزءاً من اثنى عشر من تلك السنة ، فاعتبر المصرى أن السنة تحتوى على اثنى عشر شهراً .

وأثبت المصريون أنهم قوم عمليون أكثر من جيرانهم من شعوب العالم القديم . فمن المرجح جداً أنهم عرفوا قبل « الاتحاد الأول » عدد أيام السنة ولكنهم لم يعرفوا إذ ذاك أن السنة لم تكن ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً بل ينقصها جزء بسيط لا يتجاوز ربع يوم آخر . وإزاء ذلك لم يكن أمامهم وسيلة لتقسيم السنة تقسيما أكثر دقة إلا ترك نظام الشهر القمرى وما يكتنفه من صعاب ، ووجدوا أنه من الأفضل لهم أن يخترعوا لأنفسهم تقويما آخر احتفظوا فيه بعدد الشهور الإثنى عشر ، ولكن عدد أيام كل واحد منها يجب أن يكون ثلاثين يوما ، وكانت هذه السنة ذات الثلاثمائة والستين يوما سنة قصيرة أضافوا إليها خمسه أيام أخرى اعتبروها عيداً يحتفلون به نهاية كل عام . وبذلك تصبح السنة ثلاثمائة وستين يوما كما كانت من قبل .

يساعدنا علم الفلك على أن نعرف الوقت الذى تمكن فيه المصريون من الوصول إلى هذا الكشف ، ويحدد السنه بأنها كانت عام ٤٢٣٦ قبل الميلاد [١] ، ولهذا يمكننا القول أن اختراع هذا التقويم فى القرن الثالث والاربعين قبل الميلاد كان

---

١ ـ كان عام ٤٢٤١ ق.م هو التاريخ الذى حسبه علماء الفلك بأنه التاريخ الذى توصل فيه المصريون الى اختراع تقويمهم ، ولكن اتضح الآن أن هناك خطا بسيطا فى ذلك الحساب واصبح التاريخ الصحيح هو عام ٤٢٣٦ ق.م

أول حادث محدد التاريخ فى حياة الجنس البشرى ، وبالرغم من مضى ستة آلاف عام فإننا مازلنا نستعمل فى حياتنا التقويم المصرى القديم بعد أن أدخل عليه الرومان مع الأسف الشديد بعض تغييرات فى الشهور فجعلوا بعضها يزيد فى عدد أيامه عن البعض الآخر .

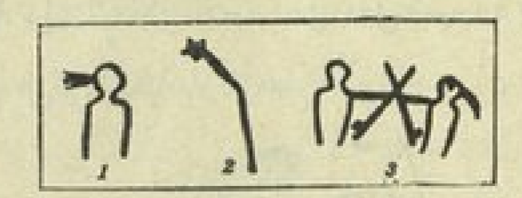
ومن مميزات التقويم المصرى أنه جعل للشهور أعداداً تعرف بها ، ولهذا كانت شهوراً ذات طابع عملى إذا أردنا تحديد أى واحد منها ، ولكن لم يكن فى ذلك التقويم ما يساعدنا على تحديد أى سنة معينة . فإذا كان الأمر متعلقاً بحادث من الحوادث فى السنة التى نحن بصددها فليس هناك صعوبة لأنه يكفى وضع تاريخ خطاب أو تعاقد على عمل بذكر الشهر واليوم ؛ ولكن إذا كان يعنينا ذكر شيء فى سنة أخرى أو نريد الإشارة إلى حادث جرى منذ بضع سنوات فإن الأمر يصبح معقداً . فنحن نلتجيء الآن مثلا إلى حادث هام وهو مولد المسيح ليسهل علينا حساب السنوات ، ولكن مثل هذا الحل لم يكن معروفا عند المصريين القدماء إذ كانوا يسمون كل سنة بحادث هام جرى فيها . وهذا ما زال متبعا حتى الان بين هنود أمريكا الشمالية بل ما زال يجرى أيضا بين الامريكيين الحاليين فى بعض الأحيان . فإن أهل شيكاغو ما زالوا يقولون فيما بينهم أن أمراً ما حدث « فى عام الحريق الكبير » أو ما زال بعضنا يشير إلى أمر من الأمور بأنه حدث فى « عام توقيع الهدنة » . وهكذا كانت أقدم الاثار المصرية المكتوبة مؤرخة بأنها حدثت فى سنوات كانت لها صفات مميزة .

وجاء الوقت الذى أخذ فيه المصريون يحتفظون ببيان بأسماء السنين ، ولما كانت كل سنة منها تشير إلى حادث هام فإن مثل هذه البيانات أصبحت سجلا لتلك الحوادث ومن ثم صارت مصدراً مليئا بالمعلومات للمؤرخين المحدثين .

وأقدم بيان وصل إلى أيدينا من هذا النوع هو حجر پالرمو (لأنه محفوظ فى

متحف مدينة بالرمو فى جزيرة صقلية) وهو أقدم بيان بالسنين فى تاريخ العالم ، إذ أنه يبدأ فى عام ٣٤٠٠ ق.م. على وجه التقريب . وكان يحوى عندما كان كاملا أسماء نحو ٧٠٠ سنة تنتهى حوالى ٢٧٠٠ ق.م. وأدرك المصريون بعد ذلك أنه من اليسير عليهم أن يحصوا السنين حسب وقوعها فى عصر كل ملك على حدة . وكانوا يقولون مثلا أن حادثا ما وقع فى السنة الأولى أو فى السنة العاشرة من حكم ملك من الملوك ، وانتهى بهم الأمر إلى عمل جداول بأسماء الملوك السابقين فى مدى مئات من السنين .

وفى أول الأمر كانت هذه السجلات على هيئة صور مثلها مثل سجل زعيم قبيلة الداكوتا Dacota الذى كان يثبت فيه السنين كما فى شكل ٢٢ ، ولكن مع تقدم الزمن أصبحت أعمال الحكومه والأفراد فى حاجه ضرورية إلى تدوين معاملاتها ، ولنضرب مثلا بمزارع يريد أن يعرف ما دفعه من ضرائب ، فإن هذا المزارع يستطيع أن يحفر على جدار كوخه المبنى من الطوب اللبن رسما بسيطا للوعاء الذى يستعمله فى كيل الحبوب ويضع إلى جواره عدداً من الخطوط توازى ما دفعه منها ، وهذه الطريقه نفسها أى الرموز التصويريه كانت أولى الخطوات فى اختراع الكتابه ، وهى طريقة ما زالت سائدة حتى اليوم بين بعض قبائل الهنود فى أمريكا الشماليه . ففى «ألاسكا» يرسل سكانها رسائل فى هيئة صورة محفورة على قطعة من الخشب دون كتابة أى كلمات . فمثلا فى الشكل ٢٣ نرى صورة يقرؤها واحد من أهالى ألاسكا « لا يوجد طعام فى الخيمة » ، بينما يقرؤها آخر «لم يصبح للحم وجود فى الكوخ » ، لأن مثل هذه العلامات التصويرية لا تدل إلا على المعانى فقط . فلنضرب مثلا آخر بأحد زعماء الهنود الذى دفعته رغبته لتسجيل أعماله إلى تدوينها بالصور كما نرى شكل ٢٤ . فى هذه الصورة أيضا لا نرى أثرا للكلمات ولكنه صور الحوادث التى امتاز فيها بشجاعته بطريقة يمكن التعبير عنها بكلمات ، ولكن هذه الكلمات



شكل ٢٢ : جزء من جدول باسماء واحد وسبعين عاما سجله أحدزعماء داكوتا

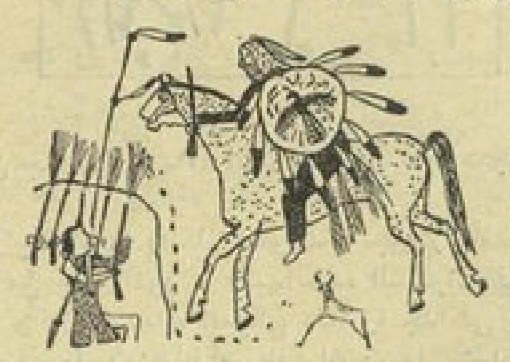
سجل أحد زعماء داكوتاواسمه «الكلب المتوحد» جدولا باسماء واحد وسبعين عاما على ثوبه المصنوع من جلد الثور · وتبدأ هذه السنوات فى عام ١٨٠٠ عندما كان طفلا في الرابعة ، وكان السعال الديكى منتشرا جدا فى تلك السنة فسماها «عام السعال الديكى» وجعل رمزها رأس انسان يسعل بشدة (١) وفى سنة أخرى تساقط كثير من الشهب فسماها «عام الشهب» وجعل رمزها رسما بسيطا لشهاب يهوى (٢) · وفى سنة ثالثة شهد ذلك الزعيم مجلس صلح بين قبيلة الداكوتا وقبيلة القربان فجعل رمزها هنديين اختلف تصفيف شعرهما رمزا للقبيلتين ورسم هذين الهنديين وهما يتبادلان قصبات التدخين (٣) · وهكذا عبر هذا الزعيم بطريقته الخاصة عن كل حادث هام فى السنة·فمثلا بدلا من أن يقول ان شيئا حدث فىعام ١٨١٣ فانه يقول ان هذا الامر حدث عام السعال الديكى وكان اذا أراد معرفة الوقت الذى مر على سنة من السنوات فانه كان يفحص جدوله فيعرف التاريخ ·



شكل ٢٣ : رسالة فى شكل صورة نقشها على الخشب أحد هنود ألاسكا

نرى فى هذه الصورة شخصا يرخى ذراعيه الى جانبيه ويداه مفتوحتان · وذلك يدل فى عادات هؤلاء الهنود على الحيرة أو الجهل أو الفراغ أو لاشىء أو تدل فقط على كلمة «لا» · والصورةالاخرى لشخصآخر يضع يده فى فمه ومعناها الاكل أو الطعام · وهذا الشخص يشير بيده الاخرى الى الخيمة ومعنى ذلك «فى الخيمة» والرسم كله يعبر عن رسالة مؤداها «لايوجد طعام فى الخيمة»

غير محددة بالضبط وإنما يمكن التعبير عن معنى الصورة بطرق متعددة ، وكانت هذه الطريقة بعينها هي التي اتبعها ملوك مصر الأوائل .



شكل ٢٤ : سجل مصور يثبت انتصار أحد زعماء قبيلة الداكوتا المسمى الرئم الجارى

اعد هذا الزعيم الداكوتى تاريخ حياته في سلسلة من احد عشر رسما منها هذا الرسم الذى يمثله عندما قتل خمسة من أعدائه فى يوم واحد . ونرى هذا البطل « الرئم الجارى » فوق جواده وبندقيته فى يده وعلى درعه رسم صقر وهو شعار عائلته . وتحت الجواد نرى رئما يجرى وهو يقصد بذلك أن يدل على اسمه الشخصى . ونرى فى الصورة أيضا أثر سير جواده حول غابة الاشجار الصغيرة التى كان يختبىء فيها هؤلاء الاعداء الخمسة وقد عبر عنهم بشخص واحد يقبض على بندقيته ورسم البنادق الاربعة الأخرى وكان أصحابها يطلقونها دلالة على عدد المحاربين الذى كانوا فى تلك الغابة

ولكن هذه الخطوة التصويرية التى وقف عندها هنود أمريكا وهى التعبير عن حادث من الحوادث بالرموز التصويرية ليست إلا خطوة تمهيدية للكتابة ، ولا يمكن للانسان أن يصل إلى الكتابة الصوتية إلا بعد خطوتين تاليتين أولاهما أن أى شىء أو غرض يجب أن يكون له شكل ثابت لا يتغير ويمكن لكل شخص أن يعرف أنه هو العلامة لكلمة معينة تدل على هذا الشىء . فمثلا يصبح رسم رغيف من العيش شيئاً متفقا عليه من الجميع ، وهكذا يسمى « رغيف » ، وليس « خبز » أو « طعام » ، وثانيهما أن تصبح هذه العلامة « مقطعا » له نطقه الثابت أينما كان فى الكلمة ، وأنه إذا ورد رسم هـــذه العلامة بين حروف مقاطع كلمة أخرى فإن ذلك يدل على صلة بين مدلولها الأصلى وقيمتها الصوتية ، وبدون هذه الخطوة لم يكن فى استطاعة المصرى على الإطلاق أن يكتب كلمات مثل « العقيدة » أو « الحب » أو « الكراهية »

أو « الجمال » لو اقتصر على رسم الصور فقط . ولو أنه خطا تلك الخطوة الهامة وهى استعماله لعدد كبير من الصور كعلامات صوتية ، وصارت كل منها مقطعا لما كان فى مقدوره أن يكتب كل كلمة عرفها ، لأن بعضها كان لا يمكن رسمه . وهكذا مكنته هذه العلامات الصوتية من أن يصبح أول من عرف الكتابة الحقة التى نشأت بين سكان وادى النيل قبل ظهورها فى أى شعب آخر من شعوب العالم القديم .

= أ مفتوحة وأحيانا حرف مد
= ا مكسورة
= ع
= و . فيما بعد أيضا
= ب
= پ
= ف
= م (أيضا فيما بعد)
= ن
= ر
= ل وكذلك فى العصور المتأخرة أما فى العصور القديمة فكانت تنطق ر أو ل
= هـ

= ح
= خ
= س مفخمة
= س أو ص
= ش
= ق (فى العصر اليونانى استعملوها بدلا من الكاف)
= ك
= ج
= ت
= ث
= د
= ز أو ج

شكل ٢٥ : الابجدية المصرية

كل هذه الحروف ساكنة ، وما من شك فى أن المصريين كانوا يستعملون ما يقابل الحروف المتحركة فى اللغات الاوربية ولكنهم لم يكتبوها . وكانوا يستعملون فى العصر اليونانى حرف الواو والالف المكسورة كحروف متحركة . كما كانوا يستعملونها فى الوقت ذاته حروفا ساكنة وكذلك أ الالف المفتوحة بدلا من الفتحة ، و والواو بدلا من الضمة

وجاء الوقت الذى أصبح فى الكتابة المصرية القديمة أكثر من ستمائة علامة تعلمها الكتاب المصريون ، وأصبحت الكتابة مجموعة كبيرة العدد من العلامات ، وكان بعض هذه العلامات يمثل كلمة قائمة بنفسها ، كما كان بعضها فى حاجة إلى علامة أو علامات أخرى معه ليصبح كلمة ، ومن ثم أصبح فى استطاعته وضع كلمة بعد أخرى وكون جملا أدت إلى ما يقصد التعبير عنه .

وفى تاريخ مبكر تقدم المصريون فى هذا المضمار فأصبح لديهم عدد كبير من العلامات تعبر كل منها عن « حرف » أى صار لديهم حروف أبجدية ، ولم يأت القرن الثالث والثلاثين قبل الميلاد أى فى أواخر عهد « الاتحاد الأول » حتى احتوت الأبجدية المصرية على ٢٤ حرفاً ، وهى أقدم أبجدية عرفها الإنسان . ولو أراد المصريون فى ذلك الوقت أن يكتبوا لغتهم بحروف أبجدية لفعلوا . ولكن الكتاب كانوا قد اعتادوا على استعمال العلامات ، وكانت هذه الطريقة متأصلة فى نفوسهم ، فلم يستطيعوا أن ينبذوا ما اعتادوا عليه، مثلهم فى ذلك كمن يكتبون اللغة الإنجليزية كما تعلموها ولا يريدون أن يكتبوها كما ينطقونها . وإذا كان هناك شخص لا يقر المصريين القدماء على طريقتهم فى كتابة لغتهم واحتفاظهم بمجموعات العلامات رغم صعوبتها فإنى أؤكد له أنه سيكون بين الأجيال القادمة أناس سيسخرون من تمسك كتاب الإنجليزية بكتابة كثير من الكلمات كما جاءت إليهم رغم أنهم بشكل مختلف[١]

وخطا المصريون بعد اختراعهم للكتابة خطوة أخرى وهى إيجاد الوسيلة التى تساعدهم على الانتفاع بها فتوصلوا إلى طريقة عمل البراد أو أى ألوان أخرى بوضع قليل من الصمغ فى الماء ويمزجون به الكنن أو الكربون النقى الذى يعلق بخارج الأوانى عند وضعها على النار . وجدوا أيضاً أنهم لو أخذوا جزءاً من قصبة رفيعة وجعلوا إحدى نهايتيها مدببة وغمسوها فى هذا السائل لسهل عليهم الكتابة بها . وتعلموا أيضاً أنهم لو شقوا نوعاً خاصاً من النباتات التى تنبت على حافة النهر فى المستنقعات — وهو نبات البردى — إلى فلقات صغيرة لأمكن الكتابة عليها فى يسر ، وأدرك أن استعمال هذا البردى أسهل فى الحمل من قطع الفخار والعظم

---

١ — يشير المؤلف الى مئات بل الى آلاف الكلمات التى تنطق بشكل مختلف عن كتابتها فمثلا كلمة thoroughly اعتادوا على كتابتها بهذه الحروف ولكنهم ينطقونها tharali أو كلمة Knight فانه أقرب الى المنطق لو كتبوها nite وهكذا . وقد بدأ كثير من الكتاب المحدثين — وخاصة فى أمريكا — فى محاولة كتابة بعض الكلمات كما ينطقونها ، ولكن محاولاتهم محدودة . وليس هناك مايدل على حدوث تغيير جوهرى فى وقت قريب . (المعرب)

والخشب والحجر التى كان يستعملها من قبل . وإذا أرادوا الحصول على صفحة كبيرة فإنهم كانوا يضعون تلك الفلقات بعضها طولية والبعض الآخر عرضية فوقها ثم يضعون صفحة بعد أخرى ويلحمون أطرافها بوضع جزء منها فوق الآخر ثم يضغطونها كلها فيصبح السطح أملس مستوياً معداً للكتابة . وكان هذا البردى لا يتمزق بسهولة . أما لونه فكان شبيها بالورق الأبيض أو الورق الأصفر الفاتح اللون . من هذا نرى أن المصريين قد اكتشفوا أن سطحاً رفيعاً من مادة نباتية هو خير ما يمكن استعماله للكتابة . ومنذ هذا الاكتشاف لم يستطع أحد أن يكتشف مادة خيرا منها ، وبالاختصار فإن المصرى القديم ، اكتشف القلم والحبر والورق ، وورثنا هذه الاكتشافات الثلاثة عنهم . ومازال الورق يسمى باسمه القديم « بابيروس » (فى اللاتينية) مع تغيير طفيف [١]

شكل ٢٦ : مثل من الهيروغليفية (فى السطر العلوى) وما يماثله بالكتابة الهيراطيقية (فى السطر الذى تحته) وكانت هذه الاخيرة تكتب بسرعة بالحبر والقلم على أوراق البردى وتستعمل فى جميع الاعمال اليومية

تماثل الكتابة الهيراطيقية ماتكتبه بايدينا فى حياتنا اليومية . أما الكتابة الهيروغليفية فهى تماثل حروف الطباعة . ونرى فى المثل السابق أن الكتابة الهيراطيقية ليست الا العلامات نفسها فى السطر العلوى . وكان المصريون يكتبون فى أغلب الاحيان من اليمين الى اليسار كما فى هذا المثل ، ولكنهم كانوا يكتبون فى بعض الاحيان من اليسار الى اليمين ومن أعلى الى أسفل . وفى العصر المتأخر فى القرن الثامن قبل الميلاد بدأوا يستعملون كتابة أخرى أسرع وأكثر اختصارا وهى الكتابة المعروفة باسم الديموطيقية .

---

١ ـ ان التغيير من بابيروس (Papyros) الى بيبر (Paper) طفيف جدا لان (os) ليست الا نهاية لبعض الكلمات فى اللغة اليونانية يجب حذفها فى الانجليزية . وهذا يبين بوضوح تام أن أصل الكلمة الانجليزية مأخوذ من الاسم القديم .

وكان لاختراع الكتابة واختراع إستعمال الورق أثر عظيم فى رفع مستوى الجنس الانسانى أكثر من أى شىء آخر ، لأنه أهم من جميع الحروب التى خاض الناس غمارها وأهم من جميع النظم أو الدساتير التى وضعت منذ خلق الله هذا الكون

ولم تكن الكتابة منتشرة الإستعمال بين عامة الناس ، بل كادت تكون وقفا على المعابد وعلى بلاط الملوك والموظفين ، وظل الناس يعيشون فى قراهم كما كانوا يفعلون من قبل فى العصور المبكرة . ودفن هؤلاء المصريون الأوائل موتاهم فى جبانات على حافة الصحراء قريبة من قراهم . وظلت أماكنها مجهولة من علماء الآثار حتى عام ١٧٩٤ عندما عثر عليها بعض الباحثين ، واستمر العلماء بعد ذلك يعثرون عليها من آن لآخر فى مناطق مختلفة على حافة الصحراء ممتدة على الجانبين الشرقى والغربى من نهر النيل ، وأمدتنا آلاف المقابر التى حفرت بكثير من الأدوات والأشياء المختلفة التى مكنتنا من معرفة نوع الحياة التى عاشها هؤلاء الناس . فكانت أوانيهم الفخارية التى وضعوها فى مقابرهم ملونة فى بعض الأحيان بمناظر تمثل مراكب نيلية ذات مجاديف عدة . وهذه السفن هى أقدم ماعرفناه ، وهى تثبت لنا وجود الصلة التجارية بين المدن المختلفة لأن كل مركب من تلك المراكب وضعت قائما عليه شعار المدينة التى أتت منها مثل الراية . وقد أمدتنا جبانات عصر « الاتحاد الأول » برسم ثلاثمائة من تلك المراكب وعليها راياتها ، وكانت تلك المراكب تجرى فوق صفحة النيل من شماله عند البحر الأبيض حتى جنوبه عند الشلالات . وكان أهل الدلتا هم أصحاب السبق فى التجارة لأننا عثرنا فى غرب الدلتا على مائتين واثنين وعشرين رسما لتلك القوارب ذات الرايات ، وهذا يدل فى الوقت ذاته على أن أقدم ميناء على شاطىء البحر الأبيض كانت من المرجح فى الركن الغربى من الدلتا أى ليس بعيداً عن المكان الذى اختاره الاسكندر الأكبر لبناء مدينة الاسكندرية أهم موانى العالم القديم . ولم تقتصر تلك التجارة على الجزء الشمالى من

وادى النيل بل تغلغلت أيضاً فى الجنوب، ونرى فى نقش على الصخور جنوبى الشلال الأول مركبا يجرها بالحبال ثلاثة وثلاثون رجلا لكى يسحبوها بين صخور الشلال. وكان طول هذه المركب نحو عشرة أقدام أى أنها لم تكن زورقاً صغيراً . ووجودها فى هذا المكان قرينة على اتساع نفوذ ملوك مصر فى ذلك العصر المبكر وامتداده نحو الجنوب .

وأمدتنا جبانات ذلك العصر بعدد كبير من الأدوات والآلات النحاسية أكثر مما كانت تمدنا به جبانات من سبقوهم ، وكان فى استطاعة بعض أولئك الناس أن يقتنى خنجرا من النحاس بينما كان غيرهم يستعمل سكاكين الحجر . وكانت الفؤوس النحاسية والأزاميل من السلع التجارية التى اتجر فيها أصحابها من الصناع القليلى العدد

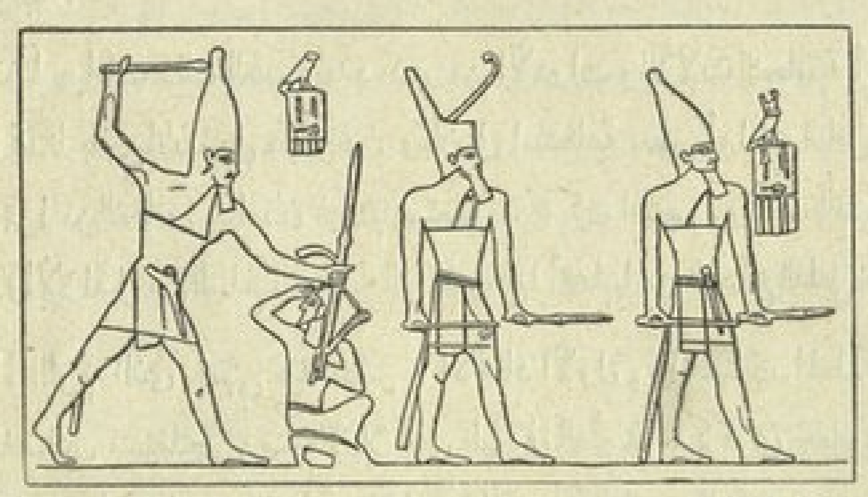
وجاء اليوم الذى انتهى فيه عصر « الاتحاد الأول » وانفصلت المملكتان وظلتا منفصلتين مستقلتين زمنا طويلا حتى ظهر فى الصعيد حاكم قوى جعل نفسه أولا حاكما على مملكة الوجه القبلى ثم غزا بعد ذلك مملكة الوجه البحرى وأخضعها لسلطانه . وكان ذلك عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد [1]. ذلك هو الملك « منا » الذى حقق اتحادا جديدا لمملكتى الشمال والجنوب والذى ورث حضارة عصر « الاتحاد الأول »

وكما امتاز عصر « الاتحاد الأول » بأنه قام بسبب التطور الذى حدث نتيجة لإستعمال المحراث فى الزراعة وما ترتب على ذلك من توفير الحبوب ، فإن الاتحاد الثانى امتاز بأنه قام بسبب التوسع فى استغلال المناجم والحصول على كميات وفيرة من النحاس ، ولهذا يبدأ « عصر المعادن » بابتداء « الاتحاد الثانى » . وكان الملوك الأوائل من ذلك العصر يفخرون بالبعثات التى أرسلوها إلى شبه جزيرة سيناء .

---

١ ـ ذكر المؤلف فى كتابه تاريخ ظهور « منا » عام ٢٤٠٠ ق٠م٠ ولكن الابحاث الحديثة اتفقت على ان ٣٢٠٠ ق٠م٠ اقرب الى الصواب، بل ويرى البعض انه ٣١٠٠ أو ٣٠٠٠ . ويغالى آخرون فيجعلونه اقل من ذلك ، ولكن التاريخ الذى اتفق عليه أكثر العلماء هو ٣٢٠٠ ق٠م٠ (المعرب)

ومازالت الأنفاق التى قطعوها فى باطن الصخر موجودة إلى اليوم ، وهى أقدم مناجم للنحاس فى العالم ، وعلى مقربة منها نقش خلفاء « منا » من الملوك نقوشا ورسوما تسجل ذهابهم إلى هناك ، وهذه المناظر هى أقدم ما وصل إلى أيدينا من آثار تاريخية موضحة بالكتابة .



شكل ٢٧ : نقش فى منطقة التعدين فى سينا لملك من ملوك عصر « الاتحاد الثانى »

نرى الملك فى هذا الرسم ممثلا ثلاث مرات اثنتان منها وهو يلبس تارة تاج الوجه القبلى ذا اللون الابيض وتارة (فى الوسط) وهو يلبس تاج الوجه البحرى وكان أحمر اللون ، وفى هذا اشارة الى أنه كان يحكم كلا من المملكتين وتلك هى عادة المصريين المبكرين فى قص حوادثهم بالصور بدلا من الكتابة . وفى الرسم الذى على اليسار جزء من هذه القصة . فالملك يضع خنجرا من النحاس فى حزامه ويرفع فى احدى يديه دبوسا من الحجر ليهوى به على أسير راكع وقد قبض بيده الاخرى على شعر رأسه . واذا نظرنا جيدا الى هذا الاسير لانجد صعوبة فى التأكد من أنه أسيوى وذلك من شعره المسترسل ولحيته الطويلة التى تميز هؤلاء الاسيويين فى ذلك العصر . وخلاصة هذه القصة المصورة أن الملك بوساطة جنوده الذين كانوا يحمون الحملات التى تذهب لاحضار النحاس من تلك المنطقة قضى على سكان سينا من الاسيويين الذين كانوا يهددون تلك الحملات وأنه بذلك أيد حقوقه على تلك المنطقة ، وفى وضع ذلك الرسم الكبير فى ذلك المكان تحذير لكل من تحدثه نفسه من الاسيويين أن يسبب مضايقة لاى حملة أخرى تأتى فى المستقبل . ويرى اسم الملك مكتوبا فى المستطيلين اللذين على اليمين واليسار . وقد تركت الحملات التالية التى أتت الى سينا بعد بضع قرون نقوشا أخرى ولكنها كانت مسطرة بالكتابة وكانت فيها تفاصيل كثيرة الى حد أن بعضهم لم ينس تسجيل شكواه من شدة الحرارة فى تلك الصحراء

بناة الأهرام

عرف المصريون الأدوات النحاسية فاستعملوها ، وكان لذلك الأثر الأكبر فى نحت وبناء مقابرهم وانشاء المعابد المبنية بالحجر . وخير دليل على ذلك تلك الأهرام العظيمة القائمة فى الجبانة الملكية فى الجيزة التى تثبت لنا مدى ما وصل إليه القدماء وما استطاعوا تحقيقه بالأزاميل النحاسية والآلة النحاسية البسيطة التى كانوا يستعملونها فى تفريغ قطع الأحجار لتصبح أوانى جميلة الشكل . ونحن اذ نقف مبهوتين أمام تلك المبانى الضخمة لا نكاد نصدق أن أجداد من بنوا هذه الأهرام لم يكن قد مضى عليهم غير بضع أجيال قليلة . كانوا إذ ذاك فى مستهل حضارتهم وكانوا يدفنون فى حفر صغيرة على هيئة القرفصاء . ونرى الآن أبناءهم وقد خطوا خطوات جبارة مكنتهم من الوصول إلى هذه الحالة . ولقد تمكن المصرى القديم فى وقت قصير من السيطرة التامة على البناء بالحجر ، ولكننا رأينا قبل الآن أن هذه الخطوة سبقتها خطوات بطيئة وطويلة المدى حتى تطور المصرى وتغيرت حالته ، فأصبح يستعمل الأدوات النحاسية بدلا من مثيلاتها من الحجر ، إذ كان اكتشاف النحاس فى سينا قد تم قبل ما يقرب من ألفين من السنين سبقت بناء الهرم الأكبر . أى أن المصرى القديم قضى نحو الفى سنة وهو يعرف النحاس ولكن لم يكن لذلك أثر على فن البناء . وكانت مقابر الملوك الأوائل تبنى من الطوب . وكانت لا تزيد عن حجرة تحت الأرض يغطيها سقف من الخشب فى مستوى سطح الأرض ويوضع فوقها كوم كبير من الرمل والحصى ، وأقدم ماعرفناه من البناء بالحجر هو حجرة دفن أحد الملوك ، كانت جدرانها مبنية بالطوب وكسيت ـ جدرانها ـ من الداخل بقطع من الحجر الجيرى ، ولكن لم يمض على ذلك العهد مائة وخمسون سنة أو أقل حتى وجدنا هؤلاء الملوك يبنون مدافنهم الملكية على شكل أهرام من الحجر .

كانت أقدم المدافن الملكية تبنى تحت مستوى سطح الأرض، وجاءت الخطوة التالية فبنوها فوق الأرض ولكنها كانت من الطوب اللبن . وفى القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد أقام المهندس المعمارى « إمحتب » للملك زوسر أول بناء من الحجر، فبنى له قبرا كان ومازال أقدم بناء من الحجر فى تاريخ العالم، وحول هذا القبر الضخم بنى إمحوتب مجموعة رائعة من المبانى الجميلة المبنية بالحجر الجيرى . أنها بناءان (١) حليت واجهتهما بأعمدة رشيقة مضلعة ، يخيل لمن يراها أنها لا تختلف عن الأعمدة الرشيقة اليونانية التى بناها اليونانيون بعد عصر إمحوتب بألفين وخمسمائة سنة .



شكل ٢٨ · اقدم بناء حجرى فى العالم مازال قائما حتى الآن
الهرم المدرج هو قبر الملك زوسر · وقد بني على هيئة مصاطب يعلو بعضها البعض وارتفاعه نحو ٢٠٠ قدم · بناه المهندس المعمارى امحوتب حوالى عام ٢٨١٥ ق·م (٢)·

---

١ ـ ذكر المؤلف أن هذين البناءين مقبرتان لبعض أفراد عائلته·وكان هذا هو الرأى السائد منذ بضع سنوات ، ولكن قد تغير ذلك الرأى الآن بعد فحص البناءين · وعرفاانهما بناءان أقيما للاحتفال بأعياد الملك ، أحدهما يسمى الآن « بيت الوجه البحرى » والثانى« بيت الوجه القبلى » واحيانا يسميان فى كتب الآثار « بيت الشمال » و « بيت الجنوب » (المعرب)

٢ ـ التاريخ المذكور فى المؤلف هو ٢٩٤٠ ق·م· كما ذكر المؤلف أيضا فى التعليق على هذا الشكل انه من المحتمل أن الاماكن بين المصاطب ملئت وكان يغطيها كلها جدار مائل وبذلك كان الهرم المدرج هو أقدم المحاولات للحصول على الشكل الهرمى الصحيح · ولكنه من المؤكد الآن بعد الابحاث الحديثة استحالة هذا الاحتمال · ولم يكن الهرم المدرج عند بنائه الا على هيئة مصاطب يعلو بعضها بعضا · أما الهرم الاول الحقيقى فلم يبنه المصريون الا بعد قرن من الزمان · وكان أول الاهرام الحقيقية هو هرم الملك سنفرو فى دهشور (المعرب)

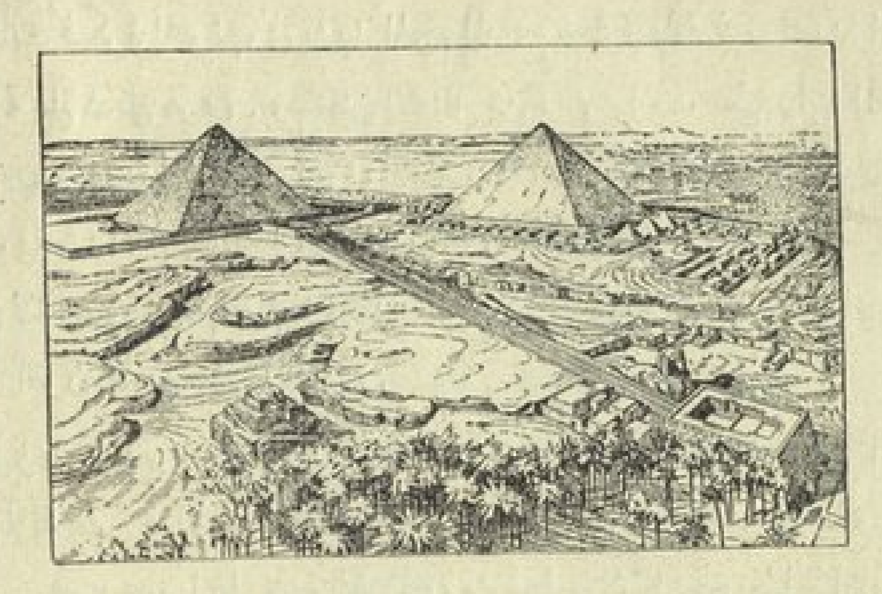
كانت فكرة إمحوتب فى تشييد الهرم المدرج خطوة هامة نحو تشييد المقابر الملكية على شكل هرمى . ولم يمض إلا أقل من قرن واحد حتى رأينا المعماريين المصريين يقيمون الهرم الأكبر فى الجيزة . كان هذا القرن فترة تقدم كبير فى فن البناء . وهو راجع إلى تحسين الانسان للقوى الميكانيكية التى كانت ميسورة له . ونحن لا نجد فى تاريخ العالم فترة تقدم سريع مطرد شبيهة بهذه الفترة لذلك القرن إلا فى القرن التاسع عشر الميلادى .

ويزداد تقديرنا لهذا التقدم عندما ندرك أن مساحة قاعدة الهرم الأكبر تبلغ ثلاثة عشر فداناً ، وأن البناء كله مبنى بكتل من الحجر الجيرى يبلغ عددها ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ حجرا على وجه التقريب ، متوسط وزن كل حجر منها طنان ونصف طن ، وطول ضلع الهرم عند القاعدة ٧٥٦ قدما [1] (٥٧و٢٣٠ متراً) وارتفاعه عندما كان كاملا ٥٠٠ قدم تقريباً (أكثر من ١٥٠مترا) وحسب رواية هيرودوت — وهى جديرة بالتصديق — فإن مائة الف عامل ظلوا يعملون فى بناء هذا الهرم عشرين عاما . ومثل هذا العمل الكبير يحتاج إلى حاكم قدير وعدد كبير من الموظفين الأكفاء الذين كانوا حوله ، فليس من السهل إطعام مائة الف شخص وتنظيم عمل كل منهم عندما كانوا جميعاً يعملون حول هذا البناء . ولا شك أن الحاكم الذى يأخذ على عاتقه مثل هذا المشروع الضخم كان أقوى رجل رآه العالم . كان القصر الذى يعيش فيه يسمى « البيت الكبير » . وكان الناس عندما يتحدثون عن ملكهم يشيرون اليه باسم « البيت الكبير » ، وهو الاسم نفسه الذى وصلنا عن طريق اللغة العبرية « فرعون » الذى أصبح لقباً عاما لكل الملوك .

وقامت حول أهرام الملوك مقابر كثيرة مبنية بالحجر بعضها لأفراد عائلته

---

١ — اذا قارنا هذا الهرم بمبنى الكلوسيوم (Colosseum) فى روما فاننا نرى ان طول الكلوسيوم هو ٦٠٠ قدم تقريبا مع الفارق الكبير وهو ان الكلوسيوم لم يكن الا سورا كبيرا حول فضاء ، اما الهرم الاكبر فكان مبنيا كله بالحجر .



شكل ٢٩ : رسم يمثل الهرم الاكبر في الجيزة وبعض ماحوله من آثار كما كانت بعد تشييدها مباشرة

شيد بعض عظماء ملوك عصر الاهرام تلك المقابر ، ونرى الى يمين الصورة هرم الملك خوفو ، وهو المعروف باسم الهرم الاكبر والى اليسار هرم الملك خفرع الذى يصغر قليلا فى الحجم عن الهرم الاول · وفى الجهة الشرقية من هذا الهرم يقوم معبد تقدم فيه المآكل والمشروبات والملابس ليستخدمها الملك المتوفى فى حياته الاخرى · وبنى القدماء تلك المعابد فوق الهضبة على حافة الصحراء الى جانب الاهرام . اما المدينة التى كان يعيش فيها الملك فانها كانت فى الوادى فى وسط الاراضى المنزرعة · وكان هناك معبد على حافة الزراعة هو معبد الوادى يدخله الزائرون ويصعدون الى المعبد العلوى شرقي الهرم سائرين في ممر طويل مسقوف مبنى بالحجر · ونرى في الصورة الممر الموصل بين المعبد الجنازى للملك خفرع ومعبد الوادى لهذا الملك الذى كان على مقربة من المدينة ، ونرى فى الصورة أيضا تمثال « أبو الهول » في الناحية الشمالية من هذا المعبد · وحول اهرام الملوك نرى عددا من اهرام الملكات ومقابر كبار الرجال في كل عهد · والى اليسار في الصورة نرى مقبرة ملكية كان العمل جاريا فيها وحولها الجسور الصاعدة المبنية بالطوب والتى كانت تزال بعد اتمام البناء (١) « عن هولشر »

١ ـ ورد فى الاصل ـ اعتمادا على رأى هولشر فى اوائل القرن الحالى ـ ان البناء الذى على اليسار هرم لم يتم بناؤه ، ولكن الفحص بعد كشف هذا البناء فى عام ١٩٣٢ انه مقبرة ملكية للملكة « خنتكاوس » وانها كانت على شكل تابوت كبير فوق صخرة ، ولم يكن الجزء العلوى منها هرمى الشكل .

والبعض الآخر لذوى النفوذ من رجال بلاطه الذين كانوا يديرون دفة أعمال الحكومة تحت إشراف الملك ، فقد كانوا حوله فى قصره فى حياته وأرادوا أيضا أن يكونوا حول هرم سيدهم بعد مماته ، وبذلك أصبحت جبانة الجيزة وما زالت حتى اليوم ، صورة من الادارة الحكومية فى مصر فى عهد الاتحاد الثانى . وكان يعاون الملك نوعان من الموظفين أحدهما الموظفون المحليون المنتشرون فى جميع أرجاء مصر ، والنوع الثانى الموظفون المركزيون الذين كانوا يعيشون فى العاصمة حول الملك ، وكان موظفو الأقاليم مكلفين بجمع الضرائب ويدخل فى اختصاصهم الفصل فى القضايا . وكان أمام كل قاض منهم قانون مكتوب يحكم بمقتضاه[1]

أما المبنى المركزى فى العاصمة على مقربة من الملك فكان عبارة عن مكاتب متعددة مبنية من الطوب اللبن قليلة الارتفاع يعمل فيها مئات من الكتبة ، يجلس كل منهم وقلمه فى يده وأمامه قراطيس البردى يكتب فيها حسابات الملك وكل مايتطلبه العمل من تدوين . وكان لدى هؤلاء الكتاب سجلات بأسماء دافعى الضرائب والمبالغ المستحقة عليهم ، وهذا هوما نفعله اليوم . ولكن يجب ألا يغيب عن ذهننا أن أوروبا لم تعرف مثل هذه الاجراءات إلا فى أيام الامبراطورية الرومانية فقط

أما الضرائب المستحقة فكان الناس يدفعونها عيناً سواء من الحيوانات أو الحبوب أو النبيذ أوالعسل أوالقماش أو ماشابه ذلك ، وكانت هذه الضرائب توضع فى حظائر وشونات غلال ومخازن ، وهى فى مجموعها الخزانة الملكية على مقربة من بعضها فى مجموعات كبيرة من المبانى والأحواش .

وأعطت تلك المبانى الحكومية لعاصمة البلاد مظهراً خاصاً ، وزادت فى عمرانها واتساع رقعتها ، فأصبحت أكبر مدينة عرفها الانسان حتى ذلك الوقت ، وكان أهم

---

١ ـ لم يعثر العلماء حتى الآن على نسخة من القانون المصرى القديم ، ولكن هناك اشارات كثيرة اليه فى كتابات المصريين والمناظر التى على الآثار

أحياء تلك العاصمة هو الجزء الذى قام فيه القصر الملكى تحوط به الحدائق يليها بيوت كبار الموظفين ومكاتب الحكومة ، وخاصة الخزانة ، تلك هى المدينة الملكية التى امتدت من الجيزة وما يليها إلى الجنوب وأصبحت تعرف فيما بعد باسم « منف » ولم يبق من تلك المدينة الملكية القديمة أى أثر لأنها كانت مبنية بالطوب اللبن والخشب .

أما مدينة الأموات وهى الأهرام وما تجمع حولها من مقابر ، فلم تلق المصير نفسه لأنها كانت تبنى بالحجر وهى مادة أكثر بقاء على الزمن من الطوب ، ولهذا أصبح من السهل علينا أن نتتبع تاريخ العائلة الملكية وأقاربها فى جبانة الجيزة خلال مائة سنة وعشرة وهى الفترة التى كان يدفن فيها أكثر ملوك الأسرة الرابعة وموظفوها . كما تمدنا الجبانات الأخرى بمعلومات تجعلنا نتتبع تاريخ هذه العائلة إلى مدى أبعد من ذلك .

إن المنظر الذى نراه من قمة الهرم الأكبر من أجمل ما تقع عليه العين وبخاصة إذا ألقينا ببصرنا نحو الجنوب ورأينا تلك السلسلة من الأهرام يتلو بعضها بعضا حتى يغيبها الأفق عن ناظرينا . إن كل واحد من هذه الأهرام كان مدفنا لملك عاش وحكم ثم مات . حكم هؤلاء الملوك نحو خمسمائة عام . وكان كل من يموت منهم يدفن فى أغلب الأحيان فى هرم ، وكان يختار كل منهم لهرمه مكاناً على هذه الهضبة حتى امتدت فأصبحت أكثر من ستين ميلا تقص علينا هى وما حولها من جبانات قصة مصر خلال خمسة قرون من الزمان ـ هذه الفترة تبدأ من القرن التاسع والعشرين حتى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد ، وهى ما يطلق عليها الكثير من العلماء اسم عصر بناة الأهرام .

عقائد المصريين وآراؤهم الدينية

بذل المصريون كثيراً من مالهم ووقتهم ومهارتهم وجهودهم فى بناء مقابرهم وتأثيثها ، وذلك لعقائد خاصة بالحياة بعد الموت ، إذ اعتادوا على دفن موتاهم قبل أن يكون لهم ملوك أو مملكة بآلاف السنين ، ومع هؤلاء الموتى وضعوا الأدوات التى كانوا يستعملونها أثناء الحياة حتى فى الوقت الذى كان يعيش فيه سكان وادى النيل كصيادين بدائيين . دفنوا موتاهم ومعهم أسلحتهم وأوان فيها المآكل والمشارب ، فلما تقدم الزمن وصار لهم ملوك وحضارة زاد ما كانوا يدفنونه مع موتاهم ، وبنوا المقابر الضخمة ووضعوا فيها الأثاث الجنازى الكثير . وبالرغم من أن المصريين كانوا يعتقدون أن الموتى سيحيون حياة أخرى فى مكان بعيد عن القبر وبعيد عن الجسد الموسد فيه فإنهم لم يستطيعوا يوماً من الأيام أن يفصلوا فصلا تاماً بين الجسد الذى فى القبر وبين تلك الحياة الأخرى ، ولم يتصوروا الخلود الموتى دون أن يكون للجسد نصيب فيه . ولهذا كانوا يحرصون على سلامته وكانوا يتفننون فى المحافظة عليه حتى وصل بهم الأمر إلى إقامة تلك المقابر العظيمة المبنية بالحجر .

ولم يقف بهم الأمر عند بذل الجهد لإيواء وحماية الجسد بعد الموت بل بدأوا أيضاً فى تحنيط تلك الأجساد وحفظها كموميات . وكانوا يهدفون من وراء ذلك أن يظل ذلك الجسد المحنط محتفظاً بشكله فى حجرة صغيرة عميقة داخل القبر تحت بناء عظيم من الحجر . وهذه العقيدة هى السبب الذى جعل كل حاكم من الحكام ينفق الموارد الطائلة على بناء قبر ليكون مقراً لجسده ليأمن سلامته بعد الموت ، وحذا أقارب الملك والموظفون حذو سيدهم فى الاستعداد للحياة بعد الموت . وكثيراً ما كانوا يرتبون الأوقاف للصرف منها على صيانة مقابرهم .

ولكى نفهم تلك العقيدة الخاصة بالحياة بعد الموت يجدر بنا أن نعود بذاكرتنا إلى الوقت الذى كان يعيش فيه الصيادون فى العصر الحجرى ونذكر كيف غيروا طريقة حياتهم وأصبحوا يزرعون الأرض ويحصلون منها على القوت . فلا شك أن الزرع الأخضر الذى نبت من الأرض السوداء قد لفت نظرهم إلى التفكير فى أصل الحياة . وكان لهذا التغيير فى حياتهم من صيادين إلى زارعين فى الأرض أثره فى عقيدتهم الدينية . ولم يكن هذا قاصراً على المصريين فحسب بل كان عاما فى شعوب بلاد الشرق الأدنى الذين اعتمدوا على الزراعة فى حياتهم ، وبدأوا منذ وقت مبكر يعتمدون فى حياتهم على ثمرات الأرض . وكان كفاحهم لأجل البقاء يدور حول تلك الزراعة وما تمدهم به من حاصلات . وبث فيهم هذا الإحساس روح الاحترام والاعتراف بالجميل وأدخل على دياناتهم لوناً جديداً . وهذه الروح الجديدة هى الأساس الذى تقوم عليه عقائد هنود أمريكا الشمالية ، بل أنها فى الواقع ما زالت ذات أثر كبير فى ديانتنا حتى اليوم . وقد ورثناها كأحدى النتائج الهامة لما طرأ على أفكار الناس من تغيير عندما تركوا حياة الصيد إلى الحياة الزراعية .

رأى الزارع أن تلك الحبة التى بذرها نبتت وأخضرت وأتت ثمارها ثم زرع من تلك الثمار حبة أخرى فتكررت معجزة الحياة ، وفكر فى تلك الحياة المتجددة التى لا يمكن أن تموت موتاً نهائياً ، وكان من الطبيعى أن يدخل فى روعه الاعتقاد بأن هذا الشىء الحى الذى لا يموت يجب أن يكون إلهاً . وسمى المصريون هذا الإله باسم « أوزيريس » واعتقدوا أنه روح هذه الحياة الخضراء النابتة من الأرض وكانوا يرون هذه النباتات المخضرة تذوى كل عام وتتراءى لناظرها كأنها ماتت وفارقت الحياة ولكنها كانت تعود مرة أخرى إلى حياتها ونضرتها . وانتشرت مثل هذه العقيدة على طول الجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط وامتدت إلى الخليج الفارسى ، وكان هذا الإله يسمى فى غرب آسيا أحياناً باسم « تموز » وأحياناً

باسم « أدونيس » كما كانت له أسماء أخرى تختلف من بلد إلى آخر . لذلك نرى فى قصة « أوزيريس » أحب الآلهة إلى قلوب المصريين القدماء أنه عاش ثم مات ثم بعث بعد الموت . وهذا هو ما حدث لجميع الآلهة المحلية فى غرب آسيا وبخاصة فى سوريا وفلسطين وآشور وبابل .

ولم ينس المصريون هذه الصلة القديمة التى تجمع بينهم وبين آسيا فى العقيدة فنقرأ فى أسطورة « أوزيريس » أنه مات ثم سبح جسده حتى استقر أخيراً فى جبيل[1] على الشاطىء الفينيقى حيث عادت اليه الحياة فأصبح شجرة خضراء وعاش مرة أخرى .

وكانوا يرمزون فى غرب آسيا للحياة المتجددة بشجرة . وكانوا يقيمون فى كل عام احتفالا كبيراً ينصبون فيه شجرة ويزرعونها ثم يزينونها ويكسونها بالأوراق الخضراء ، وورث الغربيون هذه العادة ، وما زالوا يحتفلون بها عندما يقيمون « عامود شهر مايو « Maypole » الذى ينصبونه ويزينونه ويقيمون المآدب ويرقصون حوله احتفاء بعودة الربيع .

وكان الناس يقصدون من هذا العيد أن يعبروا عن شعورهم نحو اعتمادهم على تجديد الأرض للحياة ، ذلك التجديد الذى أمدهم بالقوت الذى يحصلون عليه من حقول الحبوب ، وبعبارة أخرى كان مظهراً دينياً لاعتراف الناس بفضل الزراعة عليهم .

ولم يكن لهذا الاعتقاد فى غرب آسيا تأثير يقود الناس إلى الايمان بحياة ينعمون بها بعد الموت فى العالم الآخر . أما فى مصر فإنهم فضلوا أن يؤمنوا بأن أوزيريس لم يكن القوة التى تمدهم بالحياة وتعطيهم القوت فى هذه الدنيا فحسب ، بل

---

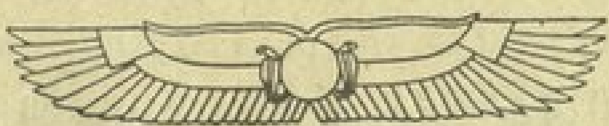
١ — هى مدينة بيبلوس Byblos القديمة وتقع على الشاطىء شمال مدينة بيروت الحالية

أنه كان يعنى بهم ايضاً فى الحياة الآخرى فيعيشون سعداء عندما يأتى اليوم الذى يموتون فيه وتستقر أجسادهم فى القبور التى يدفنون فيها على حافة الصحراء .

آمن الناس إيماناً قوياً بأن عقيدتهم فى أوزيريس تيسر لهم حياة مباركة فى العالم الآخر، وكانوا يرون فى هذا الإله رمزاً للموت ثم الحياة مرة أخرى ، وكانوا يرمزون له بشجرة فى بعض الأحيان وفى الوقت ذاته كان يرى فيه بعض المصريين أنه هو الأرض السوداء التى تخرج منها الحياة المخضرة ويرسمون سنابل الحب وهى تنبت من جسده . ورأى البعض أن الأرض لا يمكن أن تؤتى ثمارها إلا إذا روتها مياه النيل فاعتقدوا أن أوزيريس هو النيل ، وهكذا اعتقد المصريون أن نهرهم العظيم وأرضهم الخصبة التى ترويها مياهه والحياة المخضرة التى تزدهر بسببه ليست إلا شيئاً واحداً هى إله واحد هو أوزيريس الذى كانوا يرون فيه رمزاً لحياة الأرض التى لا تفنى .

واعتقد المصريون فى آلهة كثيرة ولكنهم آثروا عبادة اثنين كان لهم السبق على جميع الآلهة الأخرى ، أحدهما أوزيريس الذى لم يقهره الموت ، والآخر هو الشمس التى تبهر البصر بضيائها فى سماء مصر الصافية ، هذا هو الآله « رع » الذى كان أعظم الآلهة المصرية كالـه للأحياء والذى أقام المصريون لعبادته أفخم معابدهم. ولم يكن الهرم إلا رمزاً مقدساً له .

ورمز المصريون للكثير من آلهتهم ببعض الحيوانات . وقد سبب ذلك



شكل ٣٠ : قرص الشمس المجنح ، رمز اله الشمس

نرى قرص الشمس فى الوسط وعلى كل جانب منه رأس افعى من نوع « الكوبرا » . اما الجناحان فانهما جناحا صقر ، وكانوا يعتقدون أن اله الشمس فى هذه الهيئة ليس الا صقرا يطير فى السماء

وقوع بعض الناس فى الخطأ فنسبوا إلى المصريين أنهم عبدوا الحيوانات ولكن الحقيقة أن ذلك لم يكن فى أصل ديانتهم وإنما دخل عليها فى أيام اضمحلالهم وفى الوقت الذى بدأت فيه ديانتهم فى الاحتضار فى العصر الرومانى . كما كان كل من قرص الشمس المجنح والهرم رمزاً لإله الشمس .

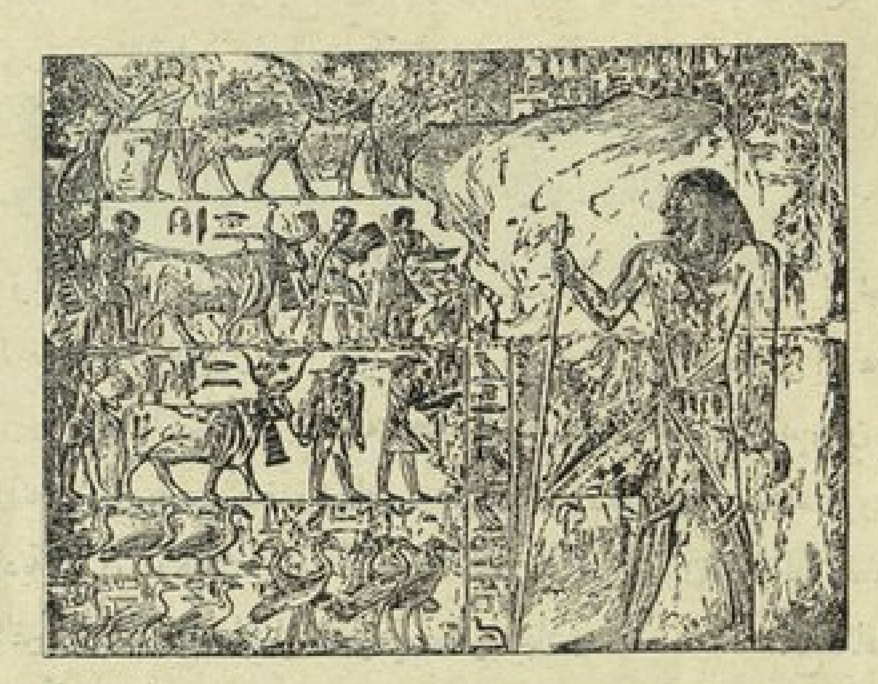
عصر الأهرام
الاقتصاد * المجتمع * الفن

إهتم المصريون فى عصر الأهرام بتسجيل مناظر مختلفة على جدران المقابر التى حول الأهرام ، وبهذا كانوا أقدم شعب فى العالم ترك لنا مناظر مصورة تكشف لنا عما كانت عليه حياتهم . ولذلك فإنه يخيل لزائرها كأنما انتقل به الزمن وأنه يجوس خلال بيوت أولئك القدماء ، ويمشى فى بلاد وادى النيل فى الوقت الذى كان فيه يبنى سكانه تلك الأهرام العظيمة .

وحرص المصريون فى ذلك العهد على أن يبنوا لكل مقبرة هيكلا يقيمونه فوق سطح الأرض بينما يدفنون الميت تحتها ، وكان الاعتقاد السائد بينهم هو أن روح صاحب القبر تخرج من حجرة الدفن لتزور الهيكل ، ولهذا كان أقارب الميت يتركون المآكل والمشروبات فى الهيكل ويضعونها على مائدة من الحجر لتجدها الروح ، وكانوا يحرصون أيضاً على أن ترى الروح حولها ما اعتادت على رؤيته أثناء الحياة ، ولذلك اهتموا بنفس مناظر الحياة اليومية على جدران الهيكل من السقف إلى الأرض وتفننوا فى إتقان رسمها وتلوينها ، وهى توضح لنا نوع الحياة التى عاشوها .

وإذا فحصنا هذه الصور التى على جدران الهياكل فإننا نتعلم منها الشىء الكثير . فهذا هو الوجيه نفسه مرسوم بحجم كبير يقف ناظراً إلى حقوله ويراقب ما يجرى فيها من عمل . ونحن إذ نمتع ناظرينا برؤية المنظر يجب ألا يغيب عن ذهننا أن هذه هى أقدم مناظر فى تاريخ العالم تبين لنا العمل فى زراعة وحرث الحقول . وإلى جانب هذه المناظر نرى قطعان الماشية مرسومة فى صفوف طويلة ، فهنا أبقار يقيدونها ليحلبوا منها اللبن . وهناك ثيران تجر المحاريث وتساعد الانسان بالتخفيف عن عاتقه . وعلى هذه الجدران التى نقشت فى عصر الأهرام لا نرى أثراً لرسم الخيل

لأنها كانت غير معروفة فى مصر إذ ذاك ولكننا نرى الكثير من رسوم الحمير وعلى ظهورها أحمال من الحبوب ، ولولاها لما تمكن الإنسان من جمع المحاصيل .



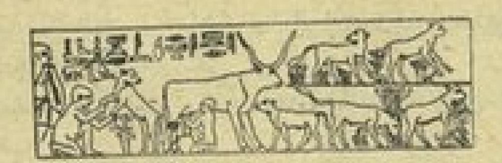
شكل ٣١ : رسم بارز على الحجر فى مقبرة وجيه من عصر الاهرام

يقف هذا الوجيه الى اليمين وقد رسمه الفنان بحجم كبير · وهو يتفقد صفوفا ثلاثة من الماشية وصفا من الطيور جاءوا بها اليه · وفى الصفين اللذين فى الوسط نرى الكتاب وهم يسجلون بأقلامهم فى قراطيس البردى ، ونرى واحدا منهم وقد وضع قلمين خلف أذنه · وكانت أمثال هذه المناظر تنقش على الحجر ثم يلونها الرسامون بالوان زاهية

وعلى الحائط الثانى نرى الوجيه مرة أخرى مرسوما بحجم كبير يلقى نظرة على المظلات والقاعات التى يعمل فيها الصناع الذين فى خدمته . فهناك يجلس نحاس من المؤكد أنه لم يسمع فى حياته بسالفه الذى التقط أول قطعة من هذا المعدن قبل ألفى سنة تقدم خلالها الصانع المصرى تقدماً كبيراً وأصبح الآن قادرا على صناعة أدوات دقيقة من النحاس من جميع الأنواع . ولكن الآلة التى كانت تحتاج إلى مهارة أكثر

من كل ما عداها كانت المنشار الطويل المستوى الذى عرف النحاس كيف يطرقه ويشكله من قضيب من النحاس طوله خمسة أو ستة أقدام . ولم يقف الأمر بصانع النحاس عند هذا الحد بل بلغ من القدرة فى صناعته أن ينفذ طلبات تدهشنا اليوم مثل ماسورة من النحاس طولها ١٣٠٠ قدم (نحو ربع ميل) كشفت عنها الحفائر فى معبد أحد الأهرامات ، وكانت موضوعة تحت أرضيته لتصريف المياه ، وهذه الماسورة هى أقدم أعمال السباكة التى عرفها العالم حتى الآن .

وعلى الجدار نفسه تقع أعيننا على صانع الأوانى وهو يقدم للوجيه أوانى فخمة من الحجر الديوريت راجياً أن تحوز إعجابه ، وبالرغم من أن هذا الحجر فى درجة معدن الصلب فى صلابته ، فقد كان فى مقدرة الصانع القديم أن يرقق من جدرانه إلى أن يصبح نصف شفاف ويخترقه الضوء فنرى من خلاله عروق الحجر الرمادية اللون . وهناك أيضا صنّاع الأحجار الثمينة يقطعون ويصقلون قطعا صغيرة من الفيروز الأزرق الجميل لكى يرصعوا بها فى دقة مدهشة سطح أناء فخم من الذهب أتم الصائغ صنعه .



شكل ٣٢ : فلاح يحلب بقرة — من عصر الاهرام

وقفت البقرة ساكنة بعد ان ربط الراعى رجليها الخلفيتين بالحبال ونرى خلفها رجلا آخر يمسك بعجلها الرضيع الذى يثب على رجليه الخلفيتين ويندفع باذلا جهده ليصل الى اللبن .

إلى جانب ذلك نرى مظلة الصائغ وقد اكتظت بالصناع ومساعديهم يطرقون ويصبون ويلحمون ويجمعون اجزاء من الحلى بعضها إلى بعض . فقد نبغ هؤلاء

الصياغ فى عملهم ، وكانوا يصنعون حليا لا يمكن أن تخرج يدا الصائغ أو الجوهرى الحديث أفضل منها



شكل ٣٢ : عجلة الفخار وفرنه

يجلس الفخارى أمام عجلته الافقية التى تشبه طبقا مسطحا مستديرا ويشكل الفخارى الاناء باحدى يديه بينما يدير هذه العجلة باليد الاخرى ، وعن هـــذه العجلة البسيطة تطورت فكرة المخرطة فى العصور الحديثة

وبعد ان يتم الفخارى صنع الاوانى يضعها داخل الفرن الذى نراه الى اليسـار ونرى الفخارى وقد وضع يده أمام وجهه ليدرأ عنها الحرارة المنبعثةمن الفرن . اما الرجل الذى يقف فى الوسط فانه يرتب تلك الاوانى فى صفوف بينما يعمـــل الثلاثه الذين على اليمين فى حك السطح الخشن لهذه الاوانى وخاصة فى الاماكن التى لم تتم العجلة صناعتها على الوجه الاكمل . ومن الجائز ان احدامن هـــؤلاء الرجال الثلاثة يحك الاناء الذى بين يديه بمحارة وهى عادة كانت متبعة ايام قدماء المصريين وما زالت أيضا مستعملة بين أحفادهم حتى الآن .

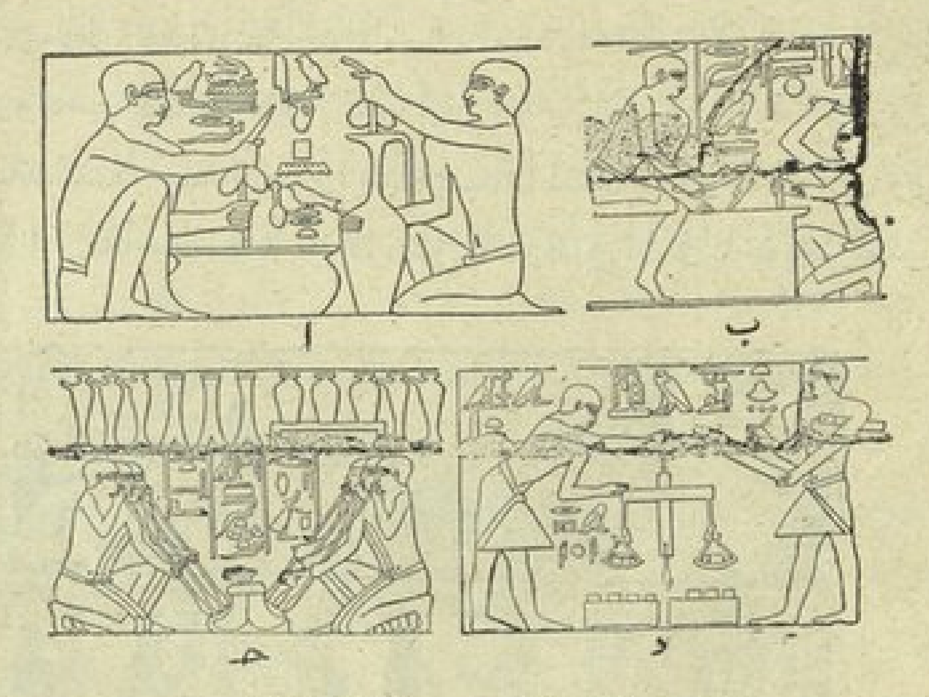
وعلى مقربة منه نرى صانع الفخار الذى لم يعد يصنع أوانيه بأصابعه كما كان الحال فى العصر الحجرى ، بل ها هو يجلس أمام عجلة أفقية الوضع يديرها ويشكل أوانيه عليها بمهارة تامة ، وبعد أن تجف هذه الأوانى المصنوعة من الطين لا يضعها الصناع فى وسط نار فيحرقوها كما كان يفعل الفخاريون فى العصر النيوليتى فى قرى البحيرات السويسرية ، بل نراهم يحملونها إلى حوش صفت فيه أفران مغلقة من الطين

الناشف ارتفاعها مثل قامة الرجل ، وكانت الأوانى ترص داخل هذه الأفران ويخرجها بعد أن يتم حرقها فى تلك الأفران التى لا يؤثر الريح فيها أو يسبب عيوبا فى صناعتها . وعلى هذا الجدار نرى الصناع وهم يصنعون الزجاج ، ولكن ليس بالصورة التى نعرفها ، وإنما بوضع طبقة زجاجية Glaze فوق مادة من المواد ، فقد عرف المصريون ذلك قبل بضعة قرون ، وكانوا يصنعون قوالب صغيرة يغطون سطحها بطبقة زجاجية ذات ألوان زاهية ليجملوا بها جدران المنازل والقصور ، وفى العصور التالية عرف الصانع المصرى كيف يصنع الزجاج الحقيق وصنع منه زجاجات وأوانى ذات ألوان عديدة كثيراً ما بعثوا بها كسلع تجارية إلى الشعوب الأخرى .

وترينا المناظر التى على هذه الجدران نساء ينسجن الملابس الكتانية . ولسنا نتوقع أن تعطينا الصورة فكرة عن دقة صناعته ولكن وصلت الينا لحسن الحظ بعض قطع من الثياب الكتانية المصنوعة للملوك كانت قد لفت بها مومياء أحد ملوك ذلك العصر ، وعرفنا منها إلى أى مدى تفوقت الصناعة المصرية ، فأخرجت كتانا على النول اليدوى بلغت فيه دقة النسيج ماجعل من الصعب أن نميزه عن الحرير ، وإذا قارناها بخير ما يمكن أن ينتجه النول الميكانيكى الحديث فإن صناعتنا الحالية خشنة بالنسبة اليها . وأخرج النساجون المصريون فى تلك الأيام كثيراً من أنواع الثياب كانوا يصنعونها على أنوالهم اليدوية ، وكثيراً ما صنعوا أنسجة موشاة لتعلق على جدران قصر الملك أو لتستعمل سقفاً يظلل حديقة السطح فى بيوت الوجهاء ، لأن هؤلاء النساجين كانوا أول من صنع تلك الأنسجة الموشاة بين شعوب العالم .

وهناك أيضاً مناظر لرجال حفاة الأقدام يجمعون حزمات كبيرة من أعواد البردى التى تنمو فى المستنقعات على مقربة من النيل ، ومع مرور الزمن حملت

المراكب المصرية كثيراً من كميات الورق المصنوع فى وادى النيل مع ما كانت تحمله من بضائع وتنقله فى البحر الأبيض المتوسط إلى سوريا وأوروبا . فإذا ما انتقلنا إلى الحائط المجاور نرى النجارين وبناة السفن وهم يعملون . وقد أجاد الفنان رسمهم حتى ليكاد يخيل الينا أننا نسمع صوت ضربات الشاكوش والقادوم ، فهؤلاء النجارون يقومون بصنع الأثاث الفخم لبيت الوجيه ، وبلغ هؤلاء الصناع حداً كبيراً من التقدم وكانوا يحلون الكراسى والأرائك التى يصنعونها للملوك بصفائح الذهب ويطعمونها بالأبنوس والعاج وينجدونها بوسائد من الجلد الأملس.



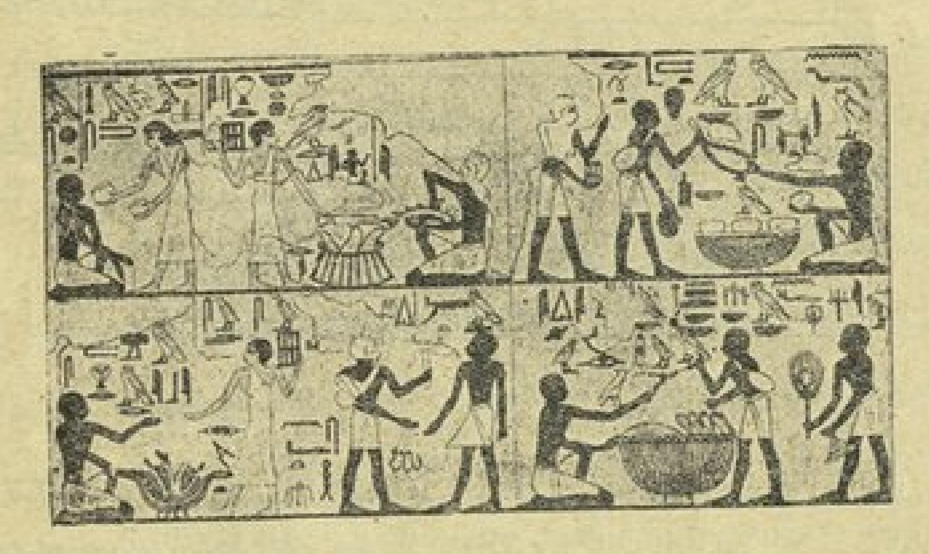
شكل ٣٤ : صناع مصريون أثناء العمل

(ا) صانعو الاوانى يجوفون اوانى حجرية بآلة تشبه المثقاب المجنح ، ولهذه الآلة يد ، ومثبت فى أعلاها ثقلان ليحفظا التوازن ، وكانت اليد من الخشب أما السلاح القاطع فكان من الظران · (ب) نجارون يستعملون قادوما أو أزميلا ومدقة فى عمل باب · (حـ) صانعو معادن ينفخون فى قصبات لعمل تيار من الهواء يدفعون به الى مزيج من الفحم والنحاس الخام ليحصلوا على معدن النحاس نقيا · وهذا هو أبسط أنواع الكور · (د) صياغ يزنون قضبانا من الذهب (مناظر من مقبرة مرروكا فى سقارة)

وعلى مقربة من مصانع الأثاث نرى صفاً من المراكب، ونرى العمال منتشرين فوقها كالنمل يجمعون أجزاء الزوارق وأجزاء أقدم السفن البحرية التى عرفها التاريخ.

وزادت الملاحة النهرية التى بدأت فى عصر «الاتحاد الأول» زيادة كبيرة لأن التقدم السريع فى الصناعة أخرج كثيراً من الأدوات وساعد على تشجيع التبادل التجارى بين المدن المختلفة، وكثيراً ما نرى تلك المراكب مرسومة على جدران المقابر، وكانت صفحة مياه النيل زاخرة بها، وكانت حمولاتها إما ضرائب مرسلة للخزانة الملكية أو سلعاً فى طريقها إلى أسواق المدن للتبادل عليها بسلع أخرى.

وبين مناظر المقبرة نفسها أحد الأسواق، ونرى فيه صانع الأحذية يعرض على الخباز زوجا من الصنادل مقابل رغيف أو أرغفة من الخبز، وزوجة النجار وهى تعطى صائد السمك صندوقاً صغيراً من الخشب ثمناً لسمكه، وزوجة الفخارى وهى تعرض أناءين مما أخذته حديثاً من الفرن على العطار مقابل أناء فى داخله بعض العطور



شكل ٣٥ : مناظر فى سوق مصرية (عن ليبسيوس)

كان هؤلاء الناس لا يعرفون العملة النقدية. وكان تبادل السلع أساس التعامل بينهم. وهذا هو ما كان يحدث بين كل طبقات العامة. ولكن الأمر يختلف فى

سراى الملك ومكاتبها . فقد كانوا يتعاملون بحلقات ثقيلة من الذهب ذات وزن محدد متفق عليه ، كانت تقوم مقام النقود . وكانت هناك أيضاً حلقات من النحاس لتأدية الغرض نفسه . ولا شك أن تلك الحلقات كانت الأصل فى عملة النقد فيما بعد .

ولم يكن أولئك الناس الذين رأيناهم فى السوق إلا من عامة الشعب فى عصر الأهرام ، وكان بعضهم أحراراً لهم الحرية التامة فى ممارسة تجارتهم أو صناعتهم ، والبعض الآخر كانوا أرقاء يعملون فى حقول أصحاب الملكيات الكبيرة . ولم يكن فى هاتين الطبقتين الفقيرتين من يملك أرضا . وكانوا يأتمرون بأمر من يملكون الأراضى وهم الملك ورجاله وموظفوه الذين عرفنا أسماء الكثيرين منهم لأنهم تركوها مكتوبة فى مقابرهم . وإذا تجولنا بين مقابر الجيزة وسقاره نستطيع أن نكتب بيانا بأسمائهم ويكون هذا البيان أشبه « بدليل » لعظماء المصريين الذين كانوا يقطنون فى أفخم أحياء العاصمة فى الوقت الذى كانت تبنى فيه الأهرام ، أى منذ وقت يقرب من خمسة آلاف عام . فمن قراءة أسمائهم وألقابهم نعرف من كان منهم وزراء أو رؤساء للخزينة ومنهم الذين تولوا المناصب الرئيسية فى القضاء ومنهم الذين كانوا مهندسين معماريين أو أمناء فى القصر أو من كانوا رجال البلاط وهكذا . نعرفهم جيداً ونعرف مقابرهم . بل وصل بنا الأمر أننا نعرف شبه الكثيرين من أولئك الوجهاء . وذلك من تماثيلهم التى كانوا يحرصون على جعلها صورة مطابقة لشكل صاحبها .

وكان أعضاء البيت المالك هم أهم طبقة بين أولئك الوجهاء . ولنتحدث قليلا عن أم الملك خوفو . كان قبرها الأصلى فى مكان بعيد عن الجيزة وتمكن اللصوص من دخول قبرها وسرقة جزء مما كان فيه . فلما علم ابنها بهذا الحادث جزع وأمر موظفيه أن يحضروا تابوتها وجميع الأثاث الجنازى الذى كان مدفوناً معها إلى الجيزة لأنه أراد أن تدفن أمه فى مكان أمين . وكان العمل جارياً فى الهرم الأكبر ، ولهذا

اختاروا لمستقرها الجديد مكاناً إلى الشرق، وحفروا بئراً عمقها نحو مائة قدم قطعوها في الصخر، وفي نهايتها نحت "عمال حجرة نقلوا إليها الأثاث الجنازي الخاص بأم الملك. وبعد أن أتموا ذلك ملأوا البئر كله من أسفله إلى أعلاه بأحجار مبنية وأحسنوا إخفاء معالم الجزء العلوي من هذا البئر، ونجحت هذه الطريقة في حماية ذلك المستودع من العبث فلم تمسسه يد إنسان قرابة خمسة آلاف عام.

فلما اكتشفتها بعثة هارفارد — بوسطون، وجدوا أن أخشاب ذلك الأثاث الجميل قد بلي أو انكمش إلى حد غير معالمه، ولكن صفائح الذهب التي كانت تغطي تلك الأخشاب بقيت كما هي. وبذلك أمكن عمل خشب جديد وضعوا فوقه صفائح الذهب القديمة، وبذلك أصبح في استطاعتنا أن نرى الهودج الذي كانت تحمل فيه الملكة عند خروجها للنزهة، وهو يشبه عربة لا عجل لها كانت تجلس فوقه الملكة مادة رجليها إذا شاءت ويحمله أتباعها فوق أكتافهم. ومع ذلك الهودج نرى الكرسي الذي كانت تستريح فوقه عندما كانت تعود إلى القصر، والسرير الذي كانت تنام فوقه، وصندوق حليها الذي كانت وصيفاتها يضعن فيه حلقات ضخمة من الفضة مرصعة بفراشات صنعت من الفيروز الأزرق واللازورد والعقيق الأحمر، وكانت الملكة تزين رجليها بهذه الحلقات (الخلاخيل) في الحفلات التي كانت تقام في القصر. وقد احتوت المقبرة على الكثير من أشياء الملكة الخاصة حتى الإبرة النحاسية التي كانت وصيفات الملكة يخيطن بها ثياب سيدتهن. وكانت كل هذه الأشياء هدايا من زوجها الملك سنفرو وابنها الملك خوفو وهي مصدرنا الأوحد لمعرفة حياة الرفاهية التي عاشها الملوك في عصر الأهرام [١]. وهي تكشف لنا عن

---

١ — انظر مقالات ريزنر (G.A. Reisner) في مجلة Bulletin of the Boston Museum of Fine Arts, May, 1927. Supplement to Vil. XXV, Vol. XXVI (1928) pp. 76-88; Vol. XXVII (1929). pp. 83-90; Vol. XXX (1932), pp. 55-60.

صفحة من الفن والحياة فى قصور الملوك فى عصر يسبق الملك « توت عنخ أمون » بأكثر من ألف وخمسمائة سنة .

وكان رجال البلاط يحيون حياة رفاهية لا تكاد تقل عن حياة أفراد العائلة الملكية . فى مقابر هؤلاء الرجال مناظر جميلة تمثل الواحد منهم وهو يجلس فى الهودج عائداً إلى منزله بعد أن تفقد أحوال أملاكه ، وقد حمله أرقاؤه إلى الحديقة التى أمام منزله . وها هم يضعون الهودج على الأرض ويتوقفون عن الغناء[1] ، ثم تتقدم زوجته لتحيته وتأخذ مكانها إلى جواره ، فهى زوجته الوحيدة ولها مقام عظيم وتتمتع بجميع الحقوق التى يتمتع بها زوجها . وحديقة المنزل جنة الوجيه ، وأحب الأماكن إلى قلبه ، وفيها يستطيع أن يستجم ساعة من ساعات فراغه مع عائلته وأصدقائه يلعب السيجة أو يستمع إلى أنغام القيثار الذى تمسك به زوجته أو إلى فرقة مكونة من ثلاث آلات موسيقية هى القيثار والمزمار والعود ، أو ينظر إلى النساء اللاتى يرقصن أمامه تلك الرقصات البطيئة الوقورة التى كانت سائدة فى ذلك العصر ، وفى تلك الأثناء يمرح أطفاله بين الأشجار أو يخوضون فى البركة التى فى الحديقة يطاردون ما فيها من سمك . وأحياناً يلعبون بالكرة أو بالعرائس أو يلعبون « النطـــة » أو يداعبون القرد الأليف الذى يحتمى منهم بالكرسى ذى الأرجل المصنوعة من العاج الذى يجلس عليه أبوهم .

ولن نستطيع أن نعرف معرفة تامة جميع المؤثرات التى رفعت الناس فى أوائل عصور التاريخ من الهمجية والغرائز الحيوانية إلى اللطف والمجاملة ، ولكن هنا فى مصر حيث نرى من المناظر المرسومة على آثارها ، أول المناظر للحياة العائلية يمكننا القول بأن الفترة الطويلة التى يعتمد فيها الأطفال الذين لا حول لهم على معونة وحماية أبيهم وأمهم ، كانت لها تأثير فى تهذيب همجية الانسان الذى عاش فى

---

١ ـ هذه الاغنية وأمثالها مسطورة على جدران المقابر فى ذلك العصر .

العصور المبكرة وتحويلها إلى رغبة واهتمام عاطفى لأسعاد الزوجة والأطفال . وهذه المناظر العاطفية التى تأخذ بألبابنا عندما نراها مرسومة على الآثار المصرية ، توضح لنا تلك النتيجة السعيدة التى وصل إليها الانسان بعد عصر طويل .

وفضلا عن ذلك فإن النقوش التى فى مقابر ذلك العهد السحيق توضح لنا كيف كان المجتمع يعترف بأن حق الفرد فى تلقيبه بأنه حسن الخلق يتوقف على أخلاقه والروح التى يعامل بها عائلته أى أباه وأمه وإخوته وأخواته . وكثيراً ما نقرأ فى مقابر هؤلاء الوجهاء عندما يريدون تلخيص جميع ما فيهم من صفات حميدة : « كنت شخصاً يحبه أبوه وتعزه أمه ، وكان إخوته وأخواته يحبونه » ، ولكن فى الوقت ذاته نرى أن الأخلاق الحسنة لم تقتصر على البر بالأهل فقط بل اتسعت هذه الدائرة فى عصر الأهرام وأصبحت تشمل البر بالجيران بل وبجميع من عاش فى المنطقة . وكان هؤلاء الناس الذين عاشوا منذ ٤٥٠٠ سنة أو ٥٠٠٠ سنة يكررون مرة بعد أخرى انهم لم يقترفوا إثماً لأنهم اعتقدوا بأن الاستقامة الخلقية كانت ضرورية فى نظر الآلهة ولها أثرها فيما يتوقع أن يلاقيه الانسان من سعادة فى حياته التى سيحياها بعد الموت . وها هو « حرخوف » أحد وجهاء جزيرة أسوان (جزيرة الفنتين) والذى قام برحلات استكشافية فى السودان فى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد يشرح لنا السبب الذى جعله يحيا حياته المثالية : « لقد أردت أن يكون الأمر خيراً بالنسبة إلى فى حضرة الآله العظيم » . كان أمثال هذا الوجيه يدركون تماماً أنه كانت عليهم واجبات رفيعة ، وها هى إحدى حكم الوزير العظيم « بتاح حتب » : — « طوبى للرجل الذى يجعل الحق رايته ويسير وراءها دئماً » ، ولقد كان قدماء المصريين لايفكرون فى الجمال إلا إذا قرنوه بالخلق الطيب . وقد نمت هاتان الصفتان معاً فى وسط التنعم والترف .

وكثيراً ما كان يجلس أمثال هذا الوجيه فى الحديقة واضعاً إحدى يديه على رأس كلبه ويشير بيده إلى رئيس البستانيين مصدراً إليه تعليماته بشأن الخس الطازج الذى يريد أن يأكل منه فى المساء فى بيته الفسيح المريح المبنى من الطوب اللبن والخشب. وكان مثل ذلك البيت بسيطاً راعى فيه من بناه أن يكون ملائماً للجو، يجرى فيه دائماً النسيم، وله نوافذ فى كل جانب، وجدران قاعات الاستقبال تكاد تكون إطارات فيها ستائر زاهية الألوان يتركونها ملفوفة ولا ينشرونها إلا عند الضرورة لحمايتهم من الرياح أو العواصف الرملية. وأعطى هذا التنظيم للمسكن مظهراً لطيفاً ترتاح إليه النفس وجعل منه تحفة فنية تريناكيف كان المصرى القديم يحب أن يرى نفسه محاطاً بالجمال، وكيف استطاع أن يجعل أشياءه المفيدة الضرورية له جميلة جذابة.

وعندما يجلس هذا الوجيه ومعه زوجه وأصدقاؤه إلى العشاء فإن الجمال يحيط به من كل ناحية، فكانت يد ملعقته مزخرفة برسم زهرة اللوتس، وكان النبيذ يتلألأ فى كأس شرابه، وكان أزرق اللون يشبه زهرة اللوتس أيضاً، وكانت أرجل كرسيه الذى يجلس عليه أو الأريكة التى يلقى نفسه عليها للاستجمام مصنوعة على شكل أيادى وأرجل الأسد أو الثور. أما القاعة التى كان يجلس فيها فكان سقفها ملوناً باللون الأزرق كالسماء تسبح فيها النجوم، ويحمل هذا السقف أعمدة على هيئة جذع النخل يزين الجزء العلوى منها ما يمثل الجريد. وكان هذا الجزء مصنوعاً من الخشب وملوناً باللون الأخضر الداكن ليكون شبيها بالطبيعة، وأحياناً كانت أعمدتهم شبيهة بساق زهرة اللوتس، ترتفع من الأرض لتحمل هذا السقف الفيروزى اللون فوق أزهارها المتفتحة. وكثيراً ما كانوا يضيفون رسم بعض الحمام أو الفراشات إلى رسم النجوم فى سقف القاعة. وكذلك زينوا الأرضية بمناظر شديدة الخضرة تمثل نباتات متعددة يتخللها الماء ويسبح فيها السمك بين أعواد القصب المتمايلة.

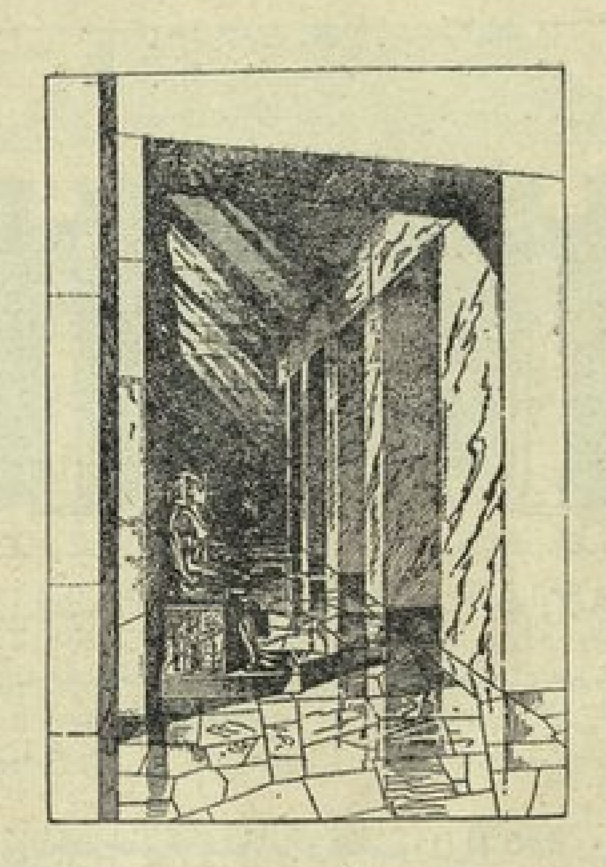
ونرى هناك أيضاً رسم الثور الوحشى وهو ينظر إلى الطيور التى تزقزق وهى تطير فوق تلك النباتات محاولة أن تخيف ابن عرس إذا جاء يتلصص ليلتهم ما فى أعشاشها . ولولا وجود الفنانين المتمرنين ، لما أمكن رسم أمثال تلك المناظر على جدران المقابر . وفى مقبرة منها نرى الرسام الذى نقش المقبرة قد رسم نفسه جالساً إلى مائدة مع غيره من الموظفين الذين يعملون فى دائرة الوجيه ، لقد نجح أمثال هذا الفنان فى تلوين مناظرهم ، وجعلوا المظهر العام للحائط أو للحجرة مقبولا وجميلا . ويثبت لنا نجاحه فى التكوين أنه كان ذكياً مرحاً ، ولكنه لم يأبه بقواعد الرسم المنظور ولم يعرفها فى رسومه . وكان يستوى لديه فى الحجم المناظر البعيدة أو التى على مسافة متباينة مع تلك التى أمامه .

وكان أهم الفنانين فى ذلك العصر هم المثالون الذين كانوا ينحتون من الخشب أو الحجر تماثيلهم ويلونونها لتصبح أكثر محاكاة للأصل . وكانوا يضعون فى مكان العين بلوراً صخرياً يشع دائماً بنور الحياة . كانت هذه التماثيل صورة صادقة لأصحابها ووصل فيها الفنانون إلى مستوى رفيع من الإتقان لم يصل إليه فنانون آخرون فيما بعد ، مع أنها أقدم التماثيل التى جاءت مطابقة لصورة أصحابها فى تاريخ الفن .

وتماثيل الملوك كانت رائعة فى أغلب الأحيان ، وكانت توضع عادة فى معابد الأهرام . وأضخم ما صنعته يد المثال فى عصر الأهرام هو تمثال « أبو الهول » فى جبانة الجيزة ورأسه على شكل رأس الملك خفرع بانى الهرم الثانى ، والتمثال كله نحت فى نتوء من صخر على مقربة من المدينة الملكية .

أشرنا قبل الآن إلى جمال المبانى التى أقامها « إمحوتب » . وقد تلا ذلك خطوة هامة فى فن العمارة نراها واضحة فى أعمدة وجدران معبد الوادى الخاص بالملك خفرع ، وهو الذى يقع إلى جوار « أبو الهول » . وكان الضوء يدخل إلى البهو

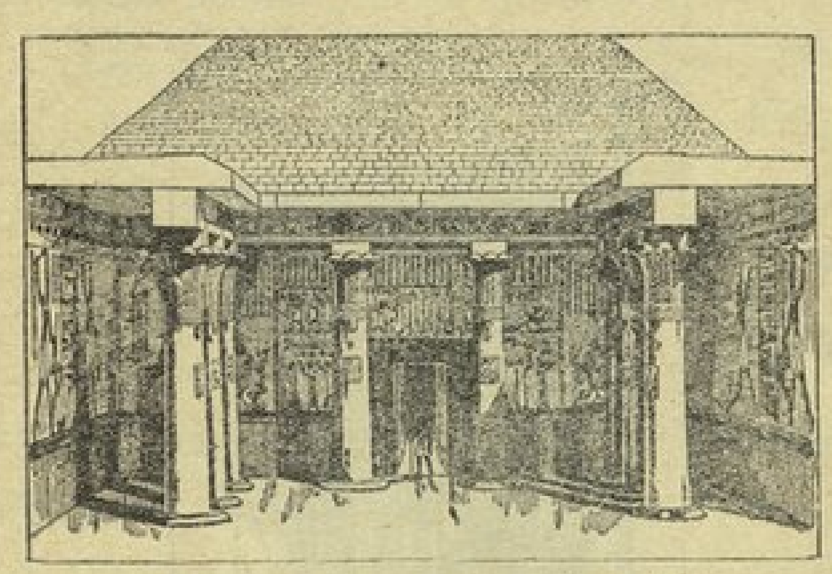
الكبير فى هذا المعبد من عدد من الفتحات المائلة على مقربة من السقف . وكان سقف الجزء الأوسط من البهو أكثر ارتفاعاً من السقف الذى على الجانبين . وكان النور يدخل من فتحات فى الجزء الذى بين السقفين ، ونقل اليونان والرومان هذا النوع من تنظيم الأبهاء عن المصريين ، وعنهم اقتبس المعماريون فى العصر المسيحى



شكل ٣٦ : رسم يمثل البهو الكبير فى معبد خفرع كما كان عند تشييده

يحمل صفان من الاعمدة الجرانيتية المربعة سقف القاعة ويزن كل منهـا ٢٢ طنا . ونرى فى هذه الصورة صفا واحدا من هذه الاعمدة ، أما الصف الاخر فهو على اليمين وليس فى الصورة . ويدخل الضوء مائلا من النوافذ قليلة الارتفـاع وكانت هذه القاعة ملأى بالتماثيل ، وفى وقت من الاوقات رميت هذه التماثيل فى حفرة عميقة فى الصالة المجاورة . ولسنا نعرف السبب الذى من أجله حطمت هذه التماثيل والقيت فى تلك الحفرة حيث عثر عليها منذ مائة سنة تقريبا (هولشر)

واستعملوه فى بناء السقف والنوافذ فى الجزء الأوسط من الكنائس المقامة على طراز البازيليكا (basilica) وفى الكاتدرائيات ، وهكذا كان البهو الجرانيتى فى معبد خفرع الأصل الذى نقل عنه أهم أنواع العمارة المسيحية الذى انتشر فى أوروبا بعد عهد خفرع بأكثر من ثلاثة آلاف سنة .



شكل ٢٧ : أعمدة فى ردهة أحد معابد الاهرام
نرى فى هذا الرسم أن الردهة كانت غير مسقوفة فى الوسط وكانت جوانبها فقط محمولة على سقف مقام على أعمدة من نوع الاعمدة النخيلية ذات التيجان على شكل الجريد . وكانت هذه الردهة بما فى ذلك الجدران التى خلف الاعمدة ملونة بالوان زاهية طبيعية

ويحس الزائر لمعبد خفرع بضخامة وعظم وزن الأعمدة ، ولكن لم يكد يمر قرن واحد حتى أخذ المعماريون المصريون يفضلون الرشاقة على العظمة ، وبدلا من أن يقيموا تلك الأعمدة المربعة الثقيلة الوزن، فإنهم فضلوا استعمال أعمدة مستديرة رشيقة النسب خفيفة الوزن ذات تيجان جميلة ، شبيهة بطراز سبق أن رأيناه فى مبانى « إمحوتب » ، وكانوا يبنون هذه الأعمدة فى صفوف . وبهذا كانوا أول شعوب العالم فى بناء الأبهاء القائمة على الأعمدة .

ولم تلبث هذه الأشياء النافعة الجميلة أن شقت طريقها فى مصر عبر البحر

الأبيض المتوسط إلى أوروبا ، وعن طريق البر إلى غرب آسيا ، وكان الفضل فى ذلك للصلة التجارية التى حملت معها هذه الأشياء .

وسنرى فيما بعد أن غرب آسيا كان يتقدم بدوره نحو الحضارة خطوات تثير الدهشة ، وبدأت حضارته تترك انفسها أثراً فى مصر ، وكان للتجارة أثرها أيضاً فى الاتصال بين غرب الدلتا وكريت . ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن ملوك مصر بدأوا هذه الصلات الخارجية وخاصة ما كان منها بطريق البحر قبل عصر الأهرام بقرون عديدة .

ولم يقف نشاط الملوك عند حد إرسال السفن التجارية وحملات التعدين إلى سيناء بل كانوا يرسلون أيضا حملات إلى السودان لتتجر مع أهل الجنوب . وكانت تفرغ البضائع على ظهور الحمير وتعود محملة بعد ذلك بالأبنوس والعاج وريش النعام وأنواع البخور . وكان يذهب على رأس تلك الحملات موظفون لدى الملك رويت أخبار رحلاتهم على واجهات مقابرهم فى أسوان ، وفيها الكثير من مخاطراتهم بين القبائل غير المتمدينة فى الجنوب التى كلفت بعضهم حياته . وهؤلاء الرحالة هم أقدم من استكشف داخل القارة الأفريقيه [١] وحاول معرفة الطرق الموصلة إلى المجهول من أرجائها .

وكان أسطول الملك ينزل أيضاً إلى البحر الأحمر ليصل إلى بلاد « بنت » عند باب المندب حيث كان يجد أيضاً حاصلات السودان فتعود بها السفن عن طريق البحر .

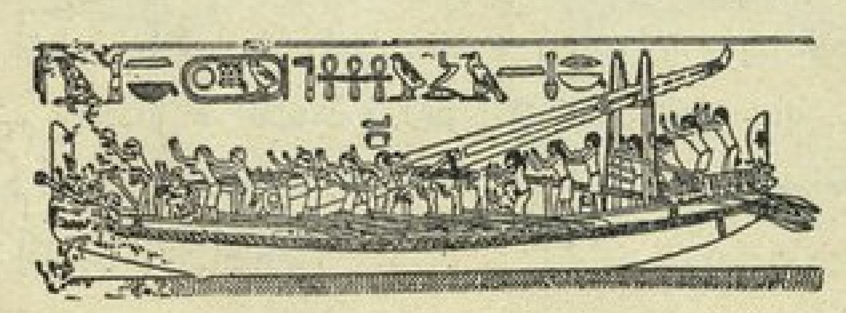
وتدلنا عظمة حضارة المصريين فى عصر الأهرام على أن الحياة العامة كانت منظمة تحت حكم أولئك الملوك ، ولكن وجهاء البلاد أخذوا يقوون حتى

---

١ ـ انظر مؤلف Breasted. Ancient Records of Egypt. Vol. I §§325-336, 350-374.

جاء اليوم الذى لم يعد للملك السلطة التامة عليهم ، وأصبحت الحكومة المركزية فى حالة تفكك شديد ، ولم يأت منتصف القرن الثالث والعشرين ق . م إلا وأصبحت البلاد مفككة الأوصال ، وانقسمت إلى مجموعات من الإمارات الصغيرة ، وبهذا انهار ذلك البنيان الذى ظل فترة طويلة ، وعادت حالة البلاد الى ما كانت عليه قبل اتحادها .

كان ذلك العصر المبكر فى مصر فترة إنتاج غير عادية لشعب فى فتوته وجد لأول مرة من ينظمه فأخذ ينتج ويتقدم ماشاءت له مقدرته ونشاطه ، وأصبحت مصر بعدها فى مفترق الطرق فإما الوصول إلى انهيار السلطة المركزية وإفناء قوى الشعب بسبب التطاحن بين الحكومة وأمراء الأقاليم وإما بلوغ المصريين حلا يهيء للبلاد وحدتها مرة أخرى ويجعلها تستمر فى تطورها الثقافى ، وسنرى فى الفصل القادم كيف خرجت مصر من هذه الأزمة .



شكل ٣٨ : اقدم رسم لسفينة بحرية (القرن السادس والعشرون ق·م)

أحد المناظر فى معبد هرم الملك « ساحورع » · وفيه نرى جميع من فى السفينة يرفعون أذرعهم وينحنون لتحية الملك الذى كان واقفا على الشاطئ ولكنه قد تهشم الان ، وارتفعت أصواتهم بالدعاء له · وفى السطر الذى فوقهم : « التحيات لك ياساحورع ياملك الاحياء ، اننا نمتع أنظارنا بجمالك » · ونرى بين ركاب السفينة بعض الاسرى الفينيقيين الذين كانوا على ظهرها ، وكانت هذه السفينة واحدة من ثمانية ذهبت الى الطرف الشرقى من البحر الابيض ثم عادت سالمة ، وأنزل بحارتها الصارى الكبير المزدوج · واصبح هذا النوع من السفن شائعا بعد ذلك فى البحر الابيض المتوسط ، وانتشر فى جميع البحار بين ايطاليا والهند ·

الفصـــل الرابع

قصة مصر

عصور الفترة الأولى والدولة الوسطى والامبراطورية

اضطراب النظام الحكومي وبدء عصر الفترة الأولى [1]

انتهى عصر الأهرام وانهار صرح نظامه بعـد أن ظل نحو ألف عام ، وكان لهذه الحوادث أثر كبير فى الشعب ، ولـكنها لم تجد صدى فى نفوس الناس وقت حدوثها بحيث يسطرون وقائعها أولا بأول ، غير أن بعض الذين شاهدوها لم يستطيعوا نسيانها فكتبوا عنها فيما بعد مثل ما حدث تماما عند سقوط روما . فى مثل تلك الأيام السوداء ينصرف المفكرون عن الانشغال بالزخرف الخارجي ويحصرون تأملاتهم فى القيم الداخلية للنفس الإنسانية بعد أن يتضح لهم عبث الاعتماد على الماديات . فقد كان ملوك مصر فى عصر الأهرام يعتمدون على الماديات ، وقضوا قرونا عديدة يكافحون لينتصروا على الموت بإقامة أهرامهم العظيمة وعمل الاحتياطات الكبيرة لصيانة جثثهم ، ولـكن ها هم يرون الأهرام ومقابر وجهاء البلاد تحت رحمة الفوضى وكيف بدأت تتهدم . وكلما تقدمت الأيام وظل الناس فى فوضى اقتنع هؤلاء المفكرون أن لا فائدة من هذه الحياة المادية الفانية .

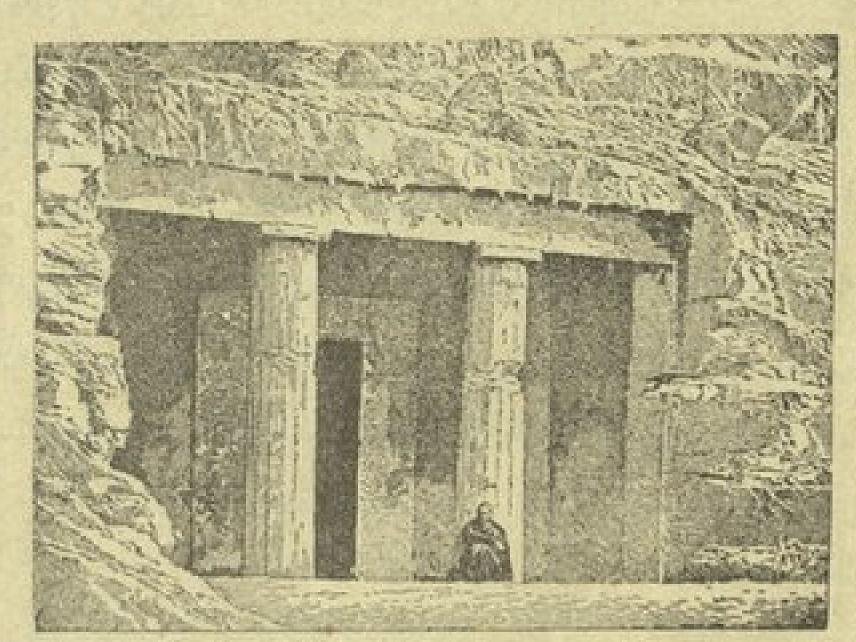
وبعد أن انتهى عصر الاتحاد الأول رأى الحكماء المصريون ما وصل اليه حال البلاد من الانهيار ، وحرك أشجانهم ما رأوه من انتهاك حرمة قبور أسلافهم وتركها

١ ـ فضلت تعبير (Feudal Age) أى العصر الاقطاعي الى عصر الفترة الاول (First Intermidiate Period) والدولة الوسطى لان ذلك هو المتبع الان فى جميع كتب التاريخ الحديث . وعدل المؤرخون بالاجماع عن استعمال تعبير العصر الاقطاعي لانه لاسند له فى الوثائق القديمة ولم يكن فى مصر يوما من الايام نظام يشبه العصر الاقطاعي المعروف فى تاريخ اوربا (المعرب)

دون عناية . فأخذوا يتأملون فيما عساه أن يكون قد نفع هؤلاء الاسلاف ما اتخذوه من احتياطات وما أنفقوه على تلك المقابر وما أوقفوا عليها من أموال . ونحن نعرف أن بعض الشكوك بدأت تفسح لنفسها مكانا فى نفوس بعض الناس فى عصر الأهرام فأخذوا يتساءلون عن مدى فائدة تلك الاحتياطات المادية ومدى تأمينها لخلود النفس . ولكن عندما يرى الناس هذه الآثار العظيمة وقد أصبحت خرائب ، فإن الشك يتحول إلى الحاد وانكار . ولم يمض وقت طويل حتى وجد هذا الالحاد طريقه إلى الكتابات الأدبية .

وظلت مصر ألف سنة يسودها نظام وطنى يمثله الملك ويحافظ عليه . ولكن فى الوقت الذى تداعى فيه هذا النظام وانهارت أركانه انكشفت مواطن الضعف للأجانب وبدأوا يغزونها ويتدفقون على الدلتا من ناحية الشرق آتين من آسيا ومن ناحية الغرب من ليبيا ، فعمت الفوضى ووقف دولاب العمل الحكومى ، ونقرأ فيما خلفه أحد الحكماء : « ورمى الناس ملفات القوانين والمحاكم على الأرض وداسوا عليها فى الأماكن العامة ، وأخذ عامة الناس يفتحونها فى وسط الطريق ، ووقف التعامل الاقتصادى وتغيرت الأوضاع الاجتماعية تغيرا تاما ، وعفت الأيام على القيم الأخلاقية التى اعتبرها الناس مثلهم العليا ، تلك القيم التى وصلت اليها الإنسانية بعد الفى سنة تقريبا وجاءت نتيجة للحياة المنظمة ، وظن القوم أنها خالدة . وكان هذا الانهيار الاجتماعى أقدم النكبات التى وصلت الينا أخبارها مدونة بعد أن كتبها بعض من عاشوا فى تلك الأيام ، وأدركوا تمام الادراك ما أصاب المجتمع من انهيار ، وعرفوا العواقب الوخيمة التى يمكن أن تصيب البلاد من جراء الفوضى فى حكم البلاد . وكانوا يحلمون بتغيير الحالة وتحسن الأيام . وكان بعضهم يؤمن بأن عصرا جديداً سيبدأ عندما يتولى الأمر جيل من الموظفين العادلين ذوى الأمانة ، بينما آمن البعض الآخر أن هذا العصر الجديد يمكن أن يجىء على يد ملك عادل ينقذ الناس

ويعيد تنظيم المجتمع . وكان الفريق الأول يرى أن علاج الحالة يمكن أن يتم بتطبيق العدل والمبادىء الاجتماعية السليمة فى الحياة اليومية على أيدى طبقة الموظفين . ونرى هذا المعنى واضحا فيما كتبه ملك مجهول عاش فى ذلك العهد المظلم الذى جاء بعد سقوط عصر بناة الأهرام ضمن نصائحه لولده : « إن الرجل المستقيم الذى يقيم العدل خير من ثوره الذى يسبب الأذى » وها هو كاتب من الفريق الثانى ويدعى « نفررو هو » يصف ما آلت اليه حالة البلاد من سوء ويتنبأ بمجىء ملك يخلص الناس مما هم فيه ويسمى هذا الملك « أمينى » وهو اختصار لاسم امنمحات الذى لاشك أنه



شكل ٣٩ : مقبرة منحوتة فى الصخر لاحد الكبراء من عصر الدولة الوسطى

ليس هذا القبر مبنيا بالحجر مثل مقابر عصر الاهرام وانما هو منحوت فى صخر الجبل . وفى داخل الهيكل الذى يوصل اليه الباب الظاهر فى الصورة مناظر ملونة تشبه مناظر مقابر عصر الاهرام كما نجد هناك أيضا كثيرا من الكتابات . ويقص علينا صاحب هذا القبر كيف كان يحسن معاملة الناس . فيكتب على أحد جدران مقبرته « لم أسىء الى فتاة من بنات الفقراء . ولم أظلم ارملة . ولم يحدث انني طردت فلاحا او أخرجت راعيا من عمله . لم يكن هناك بائس بين رعاياى ولم يجع احد فى عهدى . ولما حلت سنوات القحط حرثت جميع الحقول فلم يبق جائع بين الناس واعطيت الارملة مثل ما أعطيت المرأة ذات البعل . ولم اميز غنيا على فقير فى أى شىء منحته »

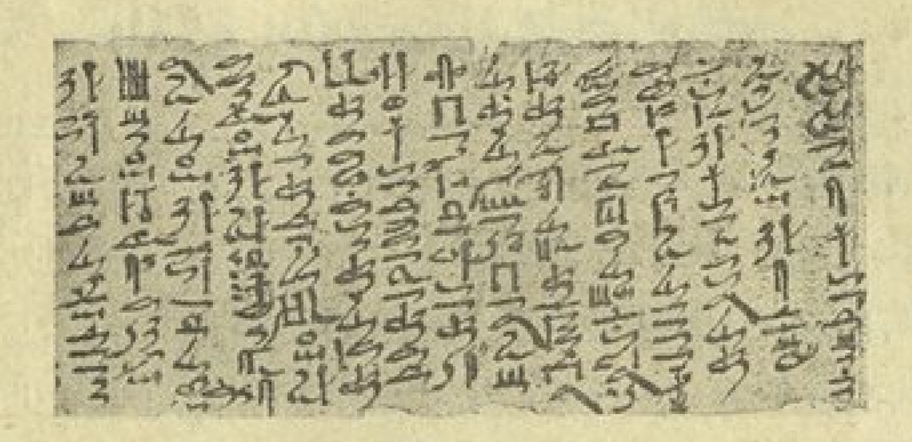
هو « امنمحات الأول » مؤسس الأسرة الثانية عشر الذى نظم حالة مصر حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م . والذى قيل عنه بعد ثلاثة أجيال من وفاته إنه « طرد الظلم بعيداً لأنه أحب العدل كثيراً » .

ورأى المتنبئون أن حلمهم قد تحقق عندما تولى امنمحات الأول عرش البلاد . ولكن ما الذى حدث للفريق الأول الذى كان لا يرى أملا فى انقاذ البلاد إلا على أيدى أجيال من الموظفين الصالحين ؟ فى الواقع أن كلا الأمرين مرتبطان لأن حكم الملك الصالح لا يمكن أن يكون مثمرا إلا إذا قام على أكتاف موظفين صالحين ينفذون سياسته . وبذل امنمحات « الصالح » كل ما وسعه من جهد ليعيد المثل العليا القديمة ولكنه لم يتمكن من أخضاع أمراء الأقاليم إخضاعا تاما إذ ظل لهم الكثير من حقوقهم القديمة واستقلالهم ، شأنهم فى ذلك شأن الأمراء الاقطاعيين فى العصور الوسطى بأوروبا ، وهذا هو مادعا بعض الكتاب لتسمية هذا العصر فى بعض الأحيان بعصر الاقطاع فى مصر .

الأدب والعلم فى عصر الفترة الأولى والدولة الوسطى

كانت هذه الفترة فى تاريخ مصر من العصور الزاخرة بالآثار الأدبية التى وصل الينا منها قطع كانت فى يوم من الأيام ضمن مكتبات أمراء الأقاليم فقد عنى هؤلاء الناس بجمع الكتب ، وكانت على هيئة ملفات من البردى تلف بعناية وتختم ثم توضع داخل أوانى من الفخار وتصف على رفوف المكتبات . ولو تسنى لأحد أن يمسك بيده بعض هذه الأوانى ويفتحها ويفحص ما فيها ، فإنه لا يرى فيها فقط ما يثبت فوضى المجتمع وآلام الفقراء والضعفاء ولكنه يرى بينها أيضا أقدم كتب القصص فى تاريخ العالم ، مثل قصة أسفار ومغامرات « سنوهى » فهى قصة مصرى فى آسيا شبيهة بمغامرات « أوديسيوس » فى الأدب اليونانى ، أو قصة البحار الغريق الذى غرقت سفينته عند باب ذلك المحيط المجهول الذى يبدأ بعد نهاية البحر الأحمر . وفى هذه القصة نقرأ مغامرات بطل من أبطال البحر نرى فيها صورة سالفة لقصة « السندباد البحرى » . ومن بين تلك الكتب أيضاً قصص عجائب قام بها حكماء وسحرة فى أعمال تشبه ما قام به النبى « موسى » ، ورجال فرعون بعد ذلك بأكثر من ألف وخمسمائة عام .

ولو أننا قارنا تطور الحضارة فى عصر الفترة الأولى بما كان عليه الحال فى عصر الأهرام لوجدنا كثيرا من التغيرات الأساسية ، فقد كان من مميزات عصر بناة الأهرام الازدهار المعجز الجبار فى البناء وفى الفنون ، كما امتاز أيضاً بجعل الأخلاق أساسا يقوم عليه صرح الحياة الإنسانية ، فلما جاء عصر الفترة الأولى حاول المفكرون الاجتماعيون أن يقيموا فوق الاساس القديم بناء آخر ، فرأوا أن الضمير لا يُصلح الأخلاق فحسب ، بل أنه قادر على أن يجعل من الأخلاق قوة اجتماعية ، وكان لهذا التقدم فى التفكير أثر كبير على الديانة . لقد نظر الناس إلى آلهتهم فى



شكل ٤٠ : صفحه من قصة الملاح الغريق ، وهى الاصل القديم الذى اقتبست منه قصة السندباد البحرى • وكان أمثال هذه القصة مما يقرأه الصبية والفتيات فى مصر قبل أربعة آلاف سنة (هذا الرسم ثلث الحجم الطبيعى)

نقرأ فى هذه الصفحة ما يأتى : « وهلك كل من كان على ظهر السفينة ولم ينج منهم أحد ، ورمتنى موجة من موجات البحر الى جزيرة حيث ظللت ثلاثة أيام وحيدا لا مؤنس لى الا قلبى . أنام وسط مأوى من فروع الاشجار حتى يغمرنى ضوء النهار • وزحفت بعد ذلك باحثا عما اسد به رمقى فوجدت هناك التين والعنب وأنواع الخضروات المختلفة •• » • ويستمر نص هذه القصة فيذكر كيف وقع هذا البحار فى قبضة حية هائلة الحجم لها لحية طويلة اتضح له أنها كانت ملكا على تلك الجزيرة النائية فى البحر الاحمر عند مدخل المحيط الهندى• وأبقت الحية ذلك البحار ثلاثة شهور كاملة أحسنت فيها معاملته ، ثم عاد البحار بعد ذلك الى مصر محملا بالهدايا ، ويقص البحار أن الجزيرة اختفت بعد ذلك فى جوف الماء

وكانت أمثال هذه القصص تكتب على صفحة طويلة واحدة من البردى يبلغ عرضها بين اثنى عشر أو ثلاثين سنتيمترا • وطولها يتراوح بين أربعة أمتار وثلاثين مترا • وكانت تلف هذه الاوراق بعد الانتهاء من قراءتها وهكذا كانت أقدم الكتب فى العالم على هيئة ملفات اسطوانية مثل الشهادات الجامعية اذا كانت صغيرة الحجم أو مثل ملفات الاوراق التى تستعمل لتغطية الجدران اذا كانت كبيرة •

عصر الفترة الأولى على أنهم أكثر من حاكمين مسيطرين على دنيا الطبيعة ومسيرين للشمس والقمر أو الأرض والماء . وبدأ المصريون فى ذلك العهد يعتقدون أن آلهتهم كانوا أيضا كائنات عليا فى دولة فيها حق وفيها باطل ، وأن كل إنسان كان مسئولا أمامهم عن تصرفاته ، وأن روح كل إنسان ستسأل فى الحياة الأخرى عما فعلته فى الحياة الدنيا .

وهنا نرى للمرة الأولى فى حياة الإنسان أنه بدأ يترك الصراع مع القوى الطبيعية والمادية ، وأخذ يرتفع بنفسه ويتقدم نحو مثل خلقية عالية ، وكان هذا التقدم أهم وأعظم ما وصل اليه الإنسان فى حياته ، وكان الأساس الذى مهد لأشياء أساسية فى حضارته مثل معرفته استعمال النار أو استخدام المعادن .

ومن بين هذه الآثار الأدبية قصة « أوزيريس » التى سطرت على الأرجح فى عدة ملفات ، وكانت مسرحية دينية صوروا فيها حياة « أوزيريس » ثم موته وبعد ذلك دفنه ثم بعثه . وكانت هذه المسرحية تمثل أثناء عيد يقام كل سنة . وكان الناس يقبلون عليها اقبالا كبيراً ويقومون بدور فيها ، وهذه المسرحية هى أقدم ما عرفه العالم عن التمثيل الدينى ، وكان تمثيلها يستغرق بضعة أيام .

ومما كشفت عنه حفائر الآثار قطع من بردية كتبت فيها مسرحية من النوع الذى يحتاج أداؤه إلى تسيير المواكب ، ونجد فيها اجزاء من أحاديث بين شخصين وفيها توجيهات المخرج وفيها بعض المناظر ، ويرجع تاريخ هذه البردية إلى القرن السادس عشر أو السابع عشر قبل الميلاد ، ويمكننا أن نقول عنها أنها ربما كانت أقدم كتاب مصور فى العالم .

ومن بين ما وصل إلينا من هذه البرديات ، ملفات تحوى أغنيات وقصائد شعرية مثل ذلك النشيد الجميل الذى كان يغنيه رجال البلاط يحيون به الملك فى كل صباح ، وكان هناك نشيد آخر فى مدح الملك يغنيه فريقان يرد أحدهما على الآخر

فى أيام الاحتفالات الكبرى فى البلاط ، وهذا النشيد مكتوب فى سطور متماثلة تشبه مثيلاتها فى المزامير عندما كتبت باللغة العبرية ، وهى أقدم ما وصل إلينا من أنواع الشعر .

ومما يدعو إلى الدهشة أن كثيرا من هذه القراطيس البردية التى كتبها المصريون فى ذلك العهد البعيد بينها بعض ملفات فى مبادىء العلوم ، وأهم هذه البرديات ، بردية « إدوين سميث » « Edwin Smith Papyrus » وهى نسخة نقلها كاتب فى القرن السابع عشر قبل الميلاد عن نسخة أقدم منها ، وهى بلا نزاع أقدم مؤلف صحيح ، لأننا نقرأ فيه لأول مرة كيف يحاول العقل الانسانى أن يميز الحقائق ويسجلها ثم يستخلص منها النتائج على ضوء الحقائق التى لاحظها ، فهى دراسة عن الجراحة وعن الطب الظاهرى تبدأ من أعلى الرأس ثم تتناول الجسم جزءاً جزءاً ، ولكن لسوء الحظ لم تصل الينا هذه البردية كاملة . وينتهى الجزء الذى لدينا عند الحالات التى تتناول الصدر وأعلى السلسلة الفقرية . وللمرة الأولى فى تاريخ العالم نقرأ بعض الملاحظات عن مخ الإنسان ، بل أن كلمة « مخ » تظهر فى هذه البردية لأول مرة فى مخطوط . وتمكن ذلك الجراح المصرى الذى ألف هذه الوثيقة من معرفة أن المخ هو الذى يتحكم فى أعصاب الأعضاء المختلفة ، وأوضح لنا نوعا من التحقيق العلمى عن وظيفة المخ لم يصل اليه الباحثون إلا منذ عهد قريب . واكتشف ذلك الطبيب أيضا أن القلب هو القوة المحركة للنظام فى الجسم ، وهو فى الوقت ذاته مركز هذا النظام ، ولكن هذا الاكتشاف لايعنى أن ذلك الطبيب عرف أسرار الدورة الدموية . ومما يدهشنا أيضا أنه ورد للمرة الأولى فى مؤلفات الطب ذكر الخياطة الجراحية فى تلك البردية .

وهناك ملفات فيها قواعد الحساب قائمة على الأساس العشرى الذى مازلنا نستعمله فى حياتنا الآن . فيها مبادىء الجبر والهندسة ، ونحن لا نملك أنفسنا من الاعجاب

عندما نقرأ فى أمثال تلك البرديات الشىء الكثير عن هندسة المسطحات ، ونرى كيف عرف هؤلاء الرياضيون الأوائل قواعد لحساب مساحة المثلث على وجه دقيق أو المربع المنحرف أو الدائرة التى حسبوها على أنها تربيع ثمانية أتساع القطر . وعرفوا أيضا قيمة النسبة التقريبية (ط — II) وهى فى حسابهم ١٦٠٥ر٣ ، وهى نتيجة قريبة إلى حد مدهش من قيمتها الصحيحة . فإذا ما وصلنا إلى هندسة المجسمات نرى فى تلك البرديات الرياضية طرق حساب عدد كيلات الحبوب التى توضع فى صومعات غلال اسطوانية تختلف ارتفاعاتها وأحجامها ، وشرحوا أيضا كيف يحسب الإنسان كتلة هرم مربع الأضلاع ، علما بأن طريقة حل هذه المسألة لم تعرفها أوروبا إلا بعد ذلك التاريخ بثلاثة آلاف عام ، وكان الناس قد نسوا طريقة قدماء المصريين حتى ظهرت أخيراً ترجمة إحدى البرديات فكشفت عنها .

وتمكن المصريون أيضا من عمل أرصاد للأجرام السماوية بآلات بسيطة ، ولكن هذه المدونات لم تصل إلى أيدينا مثلها فى ذلك مثل المدونات الجغرافية . ومع هذا فإننا نعرف أنهم عرفوا كيف يميزون بين الكواكب وبين النجوم الثوابت ولكنهم لم يصلوا إلى معرفة نظام سير الكواكب فى السماء ، وليست أشكال الأبراج الأثنى عشر فى الدائرة الفلكية مصرية الأصل .

حكام مصر فى عصر الفترة الأولى والدولة الوسطى

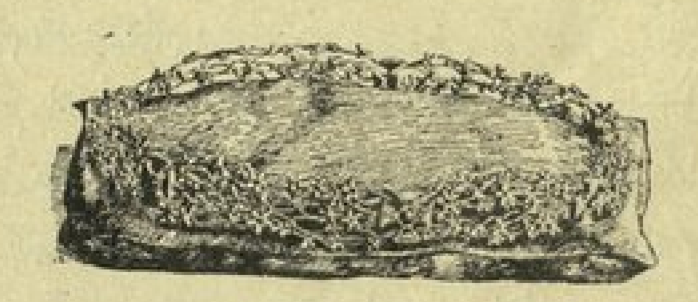
يرجع الفضل فى تقدم الآداب والعلوم فى عصر الفترة الأولى والدولة الوسطى إلى الحياة الرغدة المتنوعة التى عاشها الناس فى ذلك الحين، كما يرجع الفضل فيما احرزته البلاد من تقدم اقتصادى إلى أسرة الملك امنمحات التى قامت باعمال رفعت كثيرا من مقدرة مصر فى الإنتاج إلى حد لم تعرفه من قبل . فقد أقام ملوك هذه الأسرة جسورا عظيمة وبنوا خزانات كبيرة ليملأوها بمياه النيل ثم يستعملوها بعد ذلك فى شئون الرى ، ولذلك زاد دخل الأراضى وعم الرخاء .

واهتم هؤلاء الملوك بتسجيل ما وصل إليه النيل فى فيضانه من ارتفاع ، ونقشوا علامات تدل على ذلك المستوى من عام إلى عام على الصخور فى منطقة الشلال الثانى أى أن المصريين كانوا يفعلون قبل أربعة الاف سنة ما لم تفكر حكوماتنا المتعاقبة فى عمله إلا منذ وقت قريب عندما قامت هذه الحكومات بعمل مشاريع للرى لاستصلاح الأراضى غير المنزرعة .

وأظهر ملوك ذلك العهد همة وقوة فى تنظيم الحكومة لأن ذلك كان ضروريا للحد من سلطة حكام الاقاليم واخضاعهم لنفوذ الملوك .

وأعدوا كشوف التعداد للمساعدة فى جباية الضرائب ، وقد ابقت الأيام على بعض هذه الكشوف فوصلت سالمة إلى أيدى علماء الآثار ، وكان من بين أعمال الملوك فى عهد الدولة الوسطى أنهم بدأوا تنظيم جيش صغير دائم ، وربما كانت هذه هى المرة الأولى لوجود جنود محترفين فى تاريخ مصر ، وكان على هؤلاء الجنود حراسة القصر والحصون التى أنشأها الملوك من بلاد النوبة حتى حدود مصر الأسيوية .

ولعب هذا الجيش دورا هاما فى الحروب . وكان الملك يعتمد أيضاً على الجنود الذين يرسلهم له حكام الأقاليم ليكونوا تحت تصرفه عند إرساله الحملات للقيام بأعمال حربية سواء فى الشمال أو فى الجنوب . فقد أغرم أمنمحات الأول ومن خلفه من الملوك بإرسال مثل هذه الحملات الحربية . وكان من نتيجتها أن وصلت حدود مصر الجنوبية إلى الشلال الثانى ، أى أنهم أضافوا أكثر من ثلاثمائة كيلو متر من نهر النيل إلى بلادهم ، وبنوا كثيراً من الحصون الحربية فى تلك المنطقه لحماية البلاد من خطر القبائل النوبية ، وما زلنا نرى بقايا تلك الحصون القوية ، وكثيرا ما بعث هؤلاء الملوك بغزوات إلى سوريا وفلسطين ، وإن كان هناك شك فى أن الآسيويين الذين كانوا يعيشون فى مدن الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط لم يخضعوا للحكم المصرى ، فإنه من المؤكد أن هذه البلاد كانت داخلة فى دائرة نفوذ مصر ، ويدل على ذلك وجود أسماء ملوك هذه الاسرة مرات كثيرة على الاثار التى ظهرت فى الحفائر فى البلاد المختلفة الواقعة على هذا الشاطىء .



شكل ٤١ : تاج مصرى

وسادة عليها تاج من الذهب كان موضـــوعا على راس أميرة من أميرات الاسرة الثانية عشر ، وعثر عليه كما وضع يوم دفنها قبل أربعة آلاف سنة . وهذا التاج على شكل باقة مستديرة من الزهور المرسومة على شكل نجوم من الذهب ومرصعة بأحجار زاهيه اللون غاليه القيمة . وهذا التاج يعتبر من أجمـل ما قام بصنعه الصائغ والجوهرى فى العهد الفرعونى .

وبذل ملوك ذلك العهد مجهوداً كبيراً لإنماء ثروة البلاد، فحفروا قناة بدأت عند الطريق الشمالى للبحر الأحمر متجهة غربا الى أن وصلت إلى أقرب فرع من فروع النيل فى شرق الدلتا ، وبذلك تيسر للسفن المصرية فى البحر الأبيض المتوسط أن تدخل هذا الفرع الشرقى من فروع النيل فى الدلتا إلى أن تصل إلى تلك القناة ثم تسير فيها متجهة نحو الشرق حتى تدخل البحر الأحمر ، وبعبارة أخرى فإن هذه القناة وصلت البحرين الأحمر والأبيض قبل أن تظهر قناة السويس إلى عالم الوجود بأربعة آلاف سنة .

وكان وصل هذين البحرين وإنشاء تلك القناة هاماً لمصر مثل أهمية قناة بناما للولايات المتحدة الامريكية ، ومكن الأسطول المصرى القديم من أن يسافر إلى بلاد بعيدة ، فكان يصل إلى جزر بحر إيجه وإلى سوريا فى الشمال ، وإلى بلاد الصومال ومدخل المحيط الهندى فى الجنوب حيث كانت تلك السفن تذهب إلى بلاد بونت . وتراءت تلك البلاد النائية للبحارة المصريين كأنها آخر أطراف الأرض ، وكانت قصصهم التى شحنوها بأخبار مخاطراتهم مبعث عجب من كانوا يستمعون اليهم بعد عودتهم .

ومهد حكم عائلة أمنمحات لمصر أن تتبوأ مكان الصـــدارة فى العالم القديم ، ولكن لم يمض على عام ١٨٠٠ ق.م. إلا وقت قصير حتى تضاءل نفوذ الملوك فجأة وجاءت النهاية المحزنة على يد غزاة أجانب . هؤلاء الغزاة هم الهكسوس الذين جاءوا من آسيا فاحتلوا مصر وقضوا على استقلالها .

تأسيس الامبراطورية

استمرت سيادة الهكسوس فى مصر ما يقرب من مائة سنة ، ومن المحتمل أن بعض الأمراء المصريين كانوا يحكمون أقاليمهم فى بعض الجهات ولكنهم كانوا دون شك خاضعين لملوك الهكسوس . وفى أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد ثار أمير طيبة على هؤلاء الأجانب وانتهى الأمر بإخراجهم من البلاد . وأعاد قاهر الهكسوس تنظيم الحكومة وجعل طيبة عاصمة الملك ، فى المكان الذى تقوم فيه الآن مدينة الأقصر . ولهذا فإن الباحث عن تاريخ الإمبراطورية المصرية يحصل على ما يريده عند دراسته لما بقى من آثار ذلك العهد المجيد هناك فى تاريخ مصر [١] .

وآثار الأقصر غنية جداً بنقوشها وما على جدرانهـــا من مناظر مرسومة ، وأمامها فى الناحية الغربية من النيل مئات المقابر نحتت فى جوانب الصخر ودفن فيها ذوو النفوذ ممن عاشوا فى عصر الامبراطورية وتركوا على جدران هياكلها فصولا كاملة لتاريخ البلاد وحضارتها ، وعلى جدران المعابد الفخمة فى الناحيتين

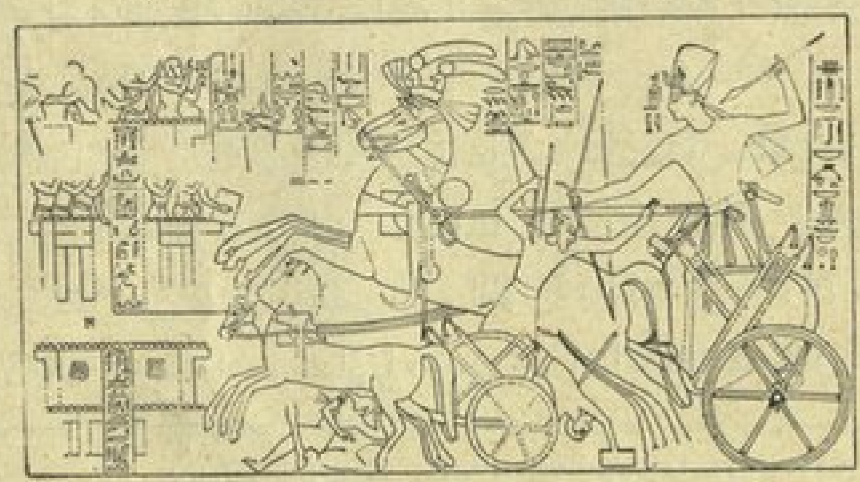
---

١ ـ يقسم المؤلف تاريخ مصر الى ثلاثة عصور أولها عصر الاهرام وفى رأيه الاصلى انه يبدأ من القرن الثلاثين ق.م. حتى القرن الخامس والعشرين، وثانيها العصر الاقطاعى ويصل الى اوج ازدهاره حوالى ٢٠٠٠ ق.م. وثالثها عصر الامبراطورية من ١٥٨٠ ـ ١١٥٠ ق.م. ولكن الغالبية العظمى من علماء الآثار تفضل أن تبدأ عصر بناة الاهرام ـ أى الاسرة الثالثة فى القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد وتقسم التاريخ المصرى الى ست عصور وهى :

١ ـ العصر العتيق (الاسرتين الاولى والثانية)
٢ ـ ثم الدولة القديمة
٣ ـ عصر الفترة الاولى
٤ ـ الدولة الوسطى (وتبدأ حوالى سنة ٢١٠٠ ق.م. بالاسرة الحادية عشر)
٥ ـ عصر الفترة الثانية
٦ ـ واخيرا الدولة الحديثة من الاسرة الثامنة عشر حتى نهاية الاسرة العشرين

اما باقى الاسرات أى من الواحدة والعشرين حتى نهاية الاسرة الثلاثين فانها تسمى باسماء أخرى .
(المعرب)

الشرقية والغربية من النيل نرى المناظر التى تمثل مواكب المجد فى ذلك العصر ، ونرى فيها مناظر المعارك الحربية التى خاض غمارها ملوك مصر المحاربون . ويستلفت أنظارنا الملوك وقد رسموا بحجم كبير يقودون عرباتهم الحربية وقد تفرق أعداؤهم مذعورين أمام جياد عرباتهم . وكان الجواد جديداً على مصر ولم يره أحد ممن عاشوا فى عصر الأهرام أو فى الدولة الوسطى . ولكن بعد انتهاء تلك الفترة بدأ المصريون يستوردون الخيل من غرب آسيا حيث عرفها الناس هناك قبل ذلك الوقت بنحو خمسمائة عام على الأقل . وعرف المصريون أيضاً العربات . وعندما أتقن أهلها فنون الحرب على نطاق واسع بعد طردهم للهكسوس ، بدأوا عهداً جديداً فى تاريخهم فسيروا الجيوش وكونوا أمبراطورية كبيرة .



شكل ٤٢ : احد ملوك الامبراطورية فوق عربته الحربية

الملك رمسيس الثانى بعد انتصاره على الاسيويين الذين كانوا فى الحصنين اللذين على يسار الصورة . وكان الاسيويون يطلقون لحاهم كما نراهم فى الصورة . واذا فحصنا رسم الملك نراه قد ربط أعنة الخيل فى وسطه لتبقى يديه طليقتين وقد أمسك باحدى يديه زعيما أسيويا كان يركب عربته ورفع حربته القصيرة فى يده اليمنى ليطعنه . وهذا الرسم جزء من سلسلة مناظر طولها نحو ٥٢ مترا مرسومه على الحائط الخارجى للبهو الكبير فى معبد الكرنك ـ وكانت هذه المناظر منقوشة على الحجر وملونة بالوان زاهية أعطت للبناء روعة وجمالا وكان لها فى الوقت نفسه الاثر المطلوب فى نفوس من يراها من الشعب ، فيعرفون بطولة ملكهم ولم يبق للون أثر فى أكثر هذه المناظر كما تاثرت الرسوم نفسها وتهشمت أجزاء كثيرة منها .

وأصبح الفراعنة قواداً لجيوشهم التى أحسنوا تنظيمها وخاصة فرق الرماة بالقوس والسهم وفرق العربات . ولازمهم النصر فكونوا أمبراطورية امتدت من شاطىء الفرات فى آسيا إلى الشلال الرابع فى أفريقيا .

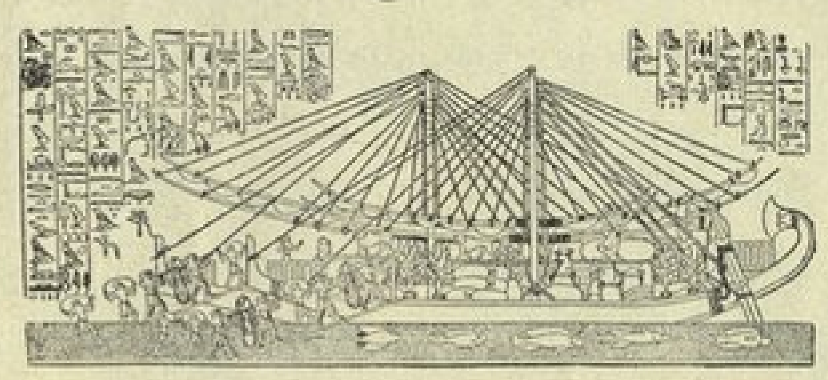
وكانت الأمم فى العصور القديمة تبدأ فى جمع المدن والأمارات الصغيرة لتكون منها مملكة واحدة توحد إدارتها ، ولكن التطور الجديد فى حياة البشرية جعل هذه الشعوب المختلفة تتجمع فى امبراطورية واحدة ضمت جزءاً كبيرا من الشرق الأدنى القديم ، وظلت هذه الامبراطورية من القرن السادس عشر حتى منتصف القرن الثانى عشر قبل الميلاد أى أكثر من أربعمائة سنة .

وكان معبد الكرنك أعظم مبانى طيبة ، وقد زاد فى مبانيه الملوك الذين حكموا فى الأسرات المختلفة حتى أصبح سجلا جامعاً تقرأ فيه تطور الامبراطورية فى تاريخها وفنها ودينها . ويرى الزائر بهو الأعمدة الكبير ويرى خلفه مسلة عظيمة من حجر الجرانيت من قطعة واحدة ارتفاعها أكثر من ثلاثين متراً أقامتها الملكة حتشبسوت أول امرأة عظيمة فى تاريخ العالم ، وكانت هذه المسلة واحدة من اثنتين أحضرهما معماريو هذه الملكة من صخور الشلال الأول ، وكان قطعهما ونقلهما ووضعهما فى مكانهما عملا مجيداً . لم تكن الملكة حتشبسوت محبة للحرب ، ولم تخرج على رأس الجيش ، ولكنها وجهت عنايتها لإقامة المبـــانى العظيمة وتوسيع نطاق التجارة الخارجية . فإن هذه الملكة كانت فى حاجة إلى بعض أشياء كمالية لمعابدها ومقبرتها فأرسلت حملة إلى بلاد بونت [1] سجلت مناظرها على أحد جدران معبدها الفخم الذى ينتهى فى الناحية الغربية من النيل حيث عثرت بعثة متحف المتروبوليتان فى نيويورك عندما كانت قائمة بحفائرها لتنظيف هذا المعبد على كثير من بقايا رسومها

---

١ — لم تكن بلاد بونت قاصرة على الشاطىء الافريقى اى فى مكان بلاد الصومال فقط بل كانت تطلق على الشاطىء الاسيوى أيضا . وكانت بلاد بونت تشمل المنطقة الواقعة حول بوغاز باب المندب فى ناحيتيه اى الصومال وجنوبى الجزيرة العربية . (المعرب)

وتماثيلها على طول الطريق الموصل إلى الهيكل ، كما عثرت أيضاً على معالم البرك التى كانت فى الصالة السفلى فى المعبد ، ولكن هذه الأشياء التى ساعدتنا على فهم تاريخ تلك الملكة ومعرفة أعمالها أتتنا رغما عن معاصريها الذين أرادوا محو ذكراها من الوجود ، ولكن الأحجار الصامتة فى معبد الكرنك لم تلزم صمتها إلى الأبد بل حدثتنا عن كثير من الأسرار وكشفت لنا نقوشها التى أرادوا اخفاءها عن كثير من أعمالها لأن أعداءها أقاموا مبنى حول قاعدة هذه المسلة ليخفوا نقوشها عن الناس . أراد تحوتمس الثالث بعد أن تولى العرش أن يمحو تلك الذكرى التى كان يكرهها فشن على آثارها حرباً وأصدر أمره إلى العمال ليذهبوا إلى معبدها فى غرب طيبة ليحطموا أكثر من مائة تمثال لتلك الملكة أقامتها فيه لتجميله ، كما حطموا أيضاً إسمها أينما عثروا عليه وحطموا أسماء جميع من عاونوها من الرجال ومن بينهم



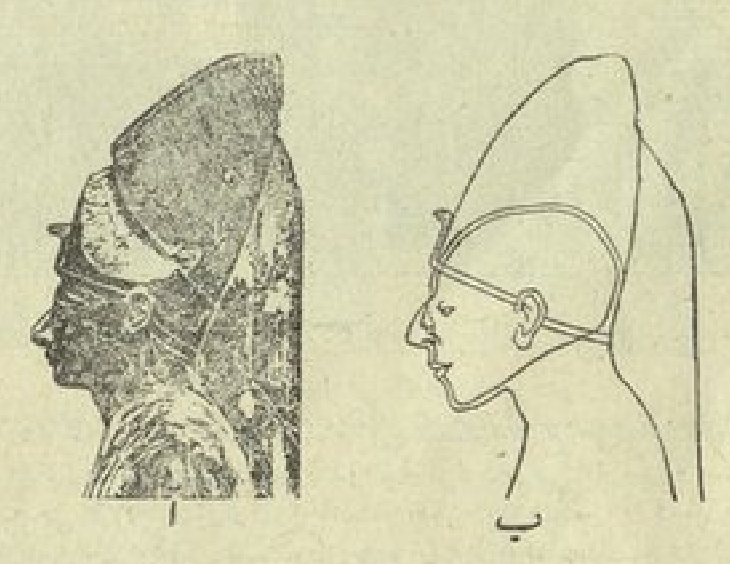
شكل ٤٣ : جزء من أسطول الملكة حتشبسوت فى بلاد بونت

كان أسطول الملكة حتشبسوت الى بلاد بونت مكونا من خمس مراكب نرى فى هذا الرسم اثنين منها وقد رسا الاسطول على الشاطئ، وطويت القلوع وأخذ الملاحون بعد أن مدوا « السقالات » يحملون البضائع لشحنها وأخذ بعض هؤلاء الملاحين يعاكس قردا جلس على ظهر المركب . وتتحدث النقوش قائلة « تم تجميل المراكب بجميع الاشياء الجميلة فى بلاد بونت والاخشاب العطرية من أرض الاله (أى بلاد العرب) وأكوام من البخور الجاف ، وأشجار البخور ، وكذلك الابنوس والعاج وذهب بلاد «امو» الاخضر ،وخشب القرفة ، وخشب الخسيت ، ونوعين من أنواع البخور ، والكحل ، والقرود والسنانيس والكلاب وجلود الفهد الجنوبى وكذلك بعض الاهالى وأطفالهم . ولم يحدث أن جىء الى ملك من الملوك بمثل هذه الاشياء منذ بدء الخليقة » . وهذا المنظر منقوش على أحد جدران معبد هذه الملكة فى طيبة .

ذلك المهندس الذى أقام مسلتى الكرنك ، ولكن الجدران التى بناها رجال تحوتمس الثالث حول قاعدتى المسلتين تهدمتا الآن وأصبح فى استطاعتنا أن نقرأ النقش المسطر عليها وعرفنا منه الكثير عن أعمال حتشبسوت .

وإذا رأى بعض الناس فيما فعله الملك تحوتمس الثالث أمرا كان يحسن تجنبه فإن ذلك لا يؤثر قليلا أو كثيراً فى الحقيقة المعروفة وهى أنه أول قائد حربى عظيم فى التاريخ وأنه أعظم ملوك مصر المحاربين ، ولهذا نسميه نابليون مصر ، وحكم أكثر من خمسين عاما منذ حوالى عام ١٥٠٠ ق . م - (عام ١٤٤٧ ق . م) ونقرأ على أحد جدران معبد الكرنك أخبار حروبه فى مدى عشرين عاما حطم خلالها مدنا وممالك فى غرب آسيا ثم كون منها أمبرطورية ثابتة الأركان . وبنى تحوتمس الثالث أول أسطول حربى كبير مكنه من بسط نفوذه على بحر إيجة .

وجاء بعده ملوك فاتحون آخرون ولم تبدأ قوتهم فى الانحلال إلا بعد مضى رون من الزمان على وفاته .

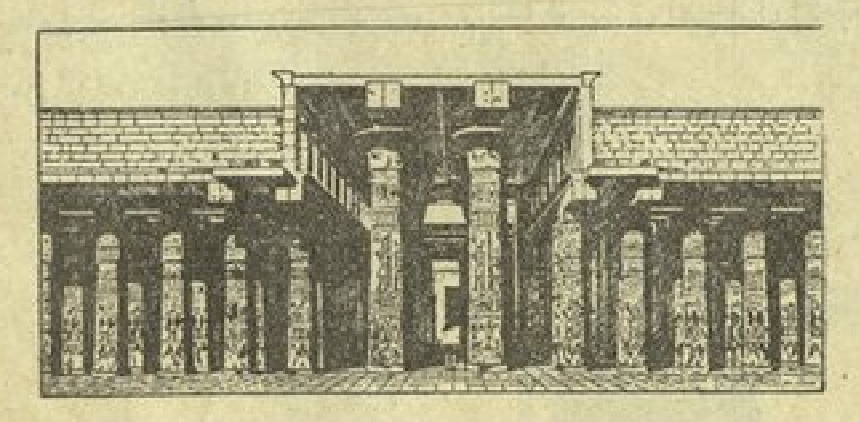


شكل ٤٤ : تمثال للملك تحوتمس الثالث نابليون مصر ومقارنته بمومياته

نرى فى ا تمثالا من الجرانيت لذلك الفاتح العظيم ويمكننا أن نقارن ملامح وجهه بمومياته . ونرى فى الخطوط الجانبية للأثنين فى ب أن التشابه تام وان الفنان المصرى القديم أجاد فى النحت اجادة تامة فى ذلك العصر

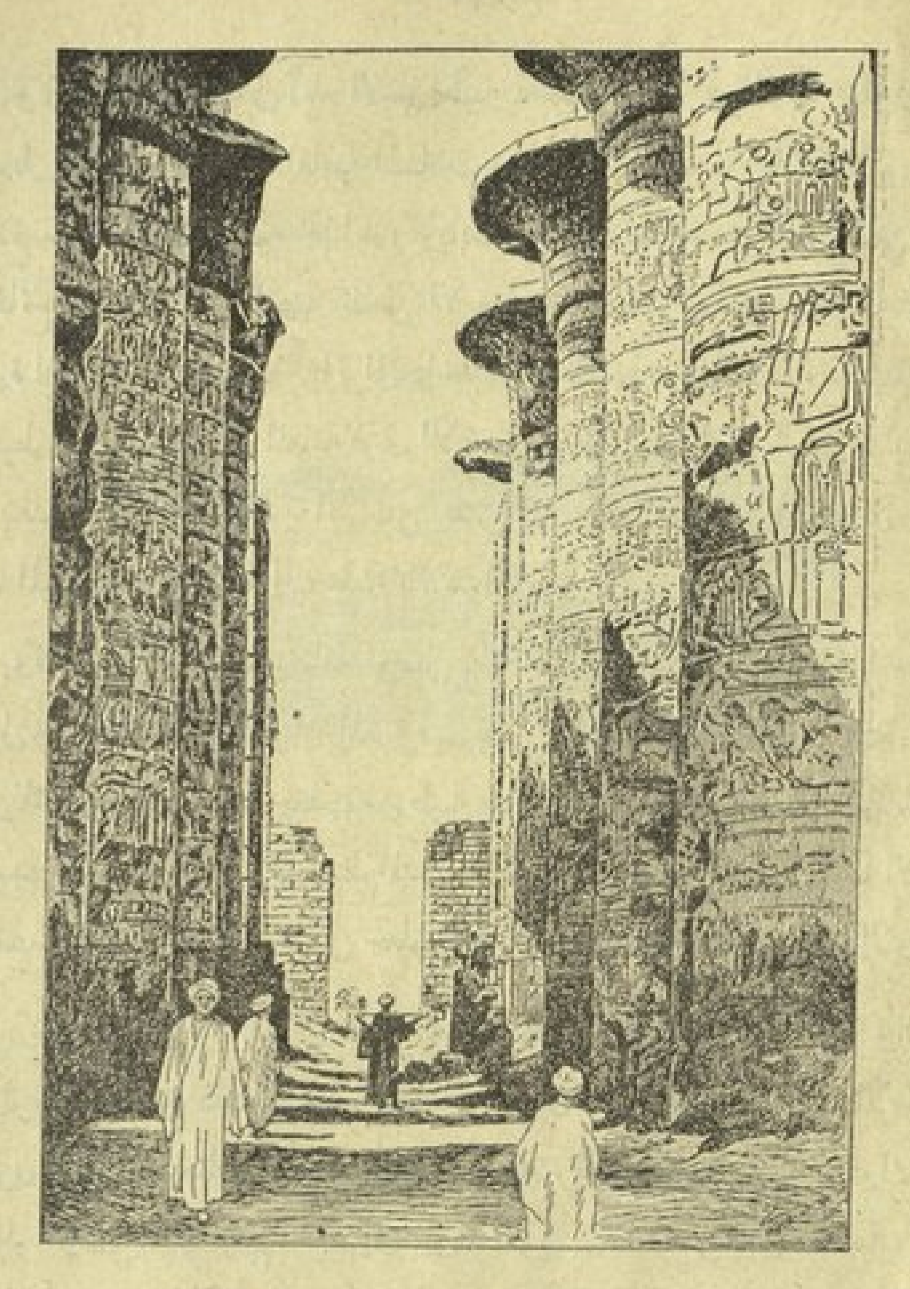
حياة الرفاهية فى أيام الأمبراطورية

تدفقت الأموال على مصر آتية من آسيا ومن بلاد النوبة فساعدت هذه الثروة على وجود عهد يمتاز بالفخامة والقوة لم تعرف الدنيا له شبيها من قبل ، ووضح أثر هذا العهد وبخاصة فيما تركه من مبان فخمة رحبة . فنرى مثلا فى معبد الكرنك القاعة الكبرى المعروفة باسم بهو الاعمدة ، فهى أعظم ما أقامه الانسان ، وارتفاع الأعمدة التى فى الجزء الأوسط منه ٦٩ قدما ويستطيع مائة شخص أن يقفوا مجتمعين فوق تاج أى عامود منها . وتطورت نوافذ الضوء بعد أن كانت فتحات ضيقة فى عصر الاهرام فقد أصبحت الآن نوافذ مرتفعة جميلة الشكل ، نرى فيها الأصل الذى أخذ عنه مهندسو الكنائس طراز البازيليكا فيما بعد .



شكل ٤٥ : القاعة الكبرى فى الكرنك كما كانت عند تشييدها ، وهى افخم بناء أقيم فى عصر الامبراطورية

ليست هذه القاعة الا حجرة واحدة فى المعبد ويبلغ طولها ٣٣٨ قدما وعرضها ١٧٠ قدما أى أن مساحتها تقارب كتدرائية نوتردام فى باريس وعدد أعمدتها ١٣٤ عمودا مرتبة فى ١٦ صفا وارتفاع أعمدة الجزء الاوسط ٧٩ قدما . وفى هذا الجزء صفان من اثنى عشر عمودا يزيدان فى ارتفاعهما عن الاعمدة الاخرى الجانبية ، وكان النور يدخل القاعة من النوافذ فوق الاعمدة الوسطى . واذا قارنا هذا النوع من النوافذ بالنوع الضيق (انظر شكل ٣٦) الذى كان يفضله المصريون فى العصور السابقة لرأينا فارقا كبيرا . وقد اقتبست أوربا هذا النوع المرتفع واستعملته فى مبانيها .



شكل ٤٦ : الاعمدة الضخمة فى الجزء الاوسط من بهو الاعمدة فى معبد الكرنك

وكانت معابد طيبة فى أيام الامبراطورية معابد فخمة تحيط بها حقول ملأى بأشجار النخيل ، وقامت أمامها المسلات وتماثيل الفراعنة ، وكان كل شىء دقيق الصنع ملوناً بألوان زاهية جذابة ، وكانت بعض الأجزاء من هذه المبانى مغطاة بصفائح من الذهب أو الفضة تذهل الابصار بضيائها وتنعكس صورتها فى مياه بحيرة المعبد ، فإذا مادلف الزائر الى داخلها وجد نفسه فى ردهة متسعة تضيئها الشمس وتحيط بجوانبها البواكى المقامة فوق الأعمدة ، ولكن هذا الزائر العادى لايستطيع أن يتقدم اكثر من ذلك . انه يلقى ببصره إلى الأمام فيرى أبهاء أخرى ولكن تلك المبانى كانت بالنسبة إليه مليئة بالأسرار .

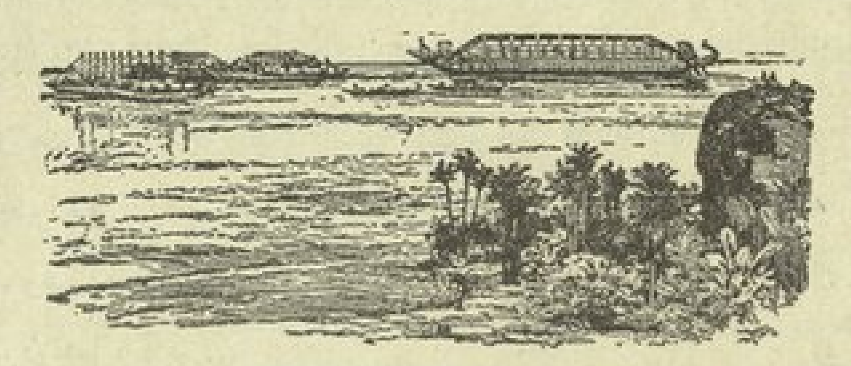
وكانت هناك معابد مختلفة توصل بينها طرقات طويلة صفت على جوانبها تماثيل من الحجر من الطراز المعروف باسم « ابو الهول » وكانت هذه المبانى وطرقاتها مجموعة عظيمة جعلت من طيبة مدينة تعد من أعظم مدن [١] العالم القديم ، وكسبت لها صيتاً بعيداً بأنها أعظم المدن وأكبرها ، وأعظم المدن التى بناها الانسان وكانت مقامة على نظام متجانس جعلها كلها كأنها مبنى واحد فخم واسع الأرجاء .

ويعود الفضل الأكبر فى تقدم العمارة المصرية إلى كل من المثال والرسام فقد لونوا الأعمدة ذات التيجان الزهرية بألوان تماثل ألوان النباتات الأصلية ، كما لون الرسامون مناظر الحرب بألوان زاهية براقة ، وقامت تماثيل الملوك أمام المعابد ، وكان بعضها عظيم الحجم إلى درجة تفوق ارتفاع صرح المعبد نفسه ، وكان يراها الناس من مسافة أميال ، وكان فى مقدرة المثالين أن يصنعوا مثل هذه التماثيل الضخمة من قطعة واحدة من الحجر بالرغم من أن ارتفاعها ثمانون أو تسعون قدما ، ووصل وزن بعضها إلى ألف طن . وفى محاجر أسوان مسلة لم ينته العمل منها

---

١ ـ عرفت أوربا فنون تخطيط المدن وتنظيمها على أنها وحدة متجانسة متوازنة ولكن ذلك لم ينتشر فى أمريكا بعد ، ولم يبدأ فيها هذا النوع الا من عهد قريب

وتركت ملقاة فى مكانها ، يبلغ ارتفاعها مائة وسبعة وثلاثين قدماً ، ولو قدر لها أن تستخرج من مكانها لبلغ وزنها أكثر من ١١٠٠ طن . وقد استطاع مهندسو العصر الإمبراطورى نقل كثير من أمثال هذه الأحمال الثقيلة إلى مسافة تبعد مئات الأميال من أماكنها دون أى قوة غير القوة الإنسانية . ونرى فى أمثال هذه الأعمال ما أحرزه قدماء المصريين من التفوق العظيم وفاقوا بذلك غيرهم من الشعوب .



شكل ٤٧ : نقل مسلتى حتشبسوت على السفن فى النيل ـ وكانت كل منهما تزن ٣٥٠ طنا

نقلوا هاتين المسلتين فى سفينة نيلية طولها ٣٠٠ قدم ووضعوهما بحيث تتلامس القاعدتان . وطول كل مسلة ٩٧٫٥ قدم ووزن المسلتين ٧٠٠ طن وكان يجر هذه السفينة ثلاثون زورقا ، وفى كل واحد منها اثنان وثلاثون بحارا يستعملون المجاديف أى أن العدد الذى لزم لتسيير سفينة المسلات كان ٩٦٠ بحارا . وقد أشرف المهندسون على نقل هاتين المسلتين من محاجر أسوان عند الشلال الاول ثم أشرفوا على نقلهما فى النيل حتى وصلت طيبة التى تبعد ١٥٠ ميلا عن أسوان

ونرى فى الرسم انهم وضعوا كل مسلة فوق زحافة ليسهل جرها كما هى الى المكان الذى أقيمت فيه فى معبد الكرنك

والشكل المنشور فى هذا الرسم أخذ حسب المنظور الحديث عن رسم مصرى قديم على أحد جدران معبد هذه الملكة فى طيبة

ويقوم فى طيبه على الشاطىء الغربى للنيل تمثالان كبيران للملك أمنحوتب الثالث أعظم الأباطرة المصريين حباً للترف والفخامة ، ونرى خلفهما الجبل الذى نحتوا فى جوانبه مئات الهياكل لمقابر ذوى الأهمية من رجال الامبراطورية .

وهنا يرقد كبار القواد الذين رافقوا الملوك فى حروبهم فى آسيا وفى بلاد النوبة

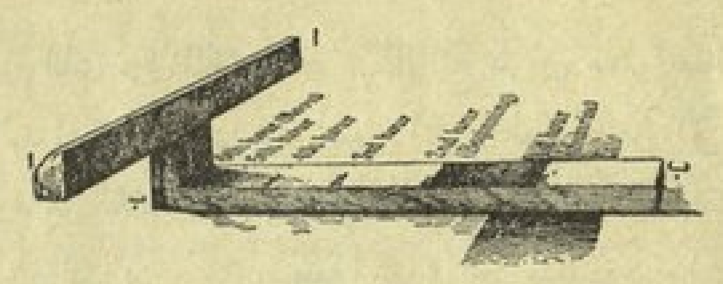
وهنا دفنوا أيضاً المهندسين المعماريين والفنانين الموهوبين الذين أقاموا المبانى التى أشرنا اليها وجعلوا من طيبة أفخم المدن فى العالم القديم .

وعلى جدران هـذه المقابر نقرأ أسماء هؤلاء العظماء ، وفى بعض الأحيان نقرأ أيضاً كثيراً مما حدث لهم فى حياتهم ، فمثلا نقرأ فى إحدى المقابر قصة أحد القواد الذى أنقذ حياة الملك تحوتمس الثالث أثناء صيده للفيلة فى آسيا . فقد اسرع هذا القائد فى اللحظة المناسبة فضرب بسيفه خرطوم فيل هائج كان يطارد الملك .

وكان هنا فى طيبة قبر القائد الذى استولى على مدينة يافا فى فلسطين وذلك باخفاء جنوده فى غرائر وضعها على ظهور الحمير وأدخلها إلى المدينـــه كبضائع للتجارة ، وهى إحدى المخاطرات التى كونت فيما بعد جزءاً من قصة ، على بابا والأربعون لصاً » .

ولم يعثر الأثريون على مقبرة هذا القائد بعد ، ولـكن طبقاً ذهبياً يحمل اسمه يوجـد الآن فى متحف اللوفر بباريس . ومن المرجح انه كان فى تلك المقـبرة ، لأن مقابر المصريين الذين عاشوا فى تلك الأيام كانت تملأ بالـكثير من أدوات المنزل يضعها أقارب الميت الغنى بعد وفاته ، فنجد فى هـذه المقابر الأثاث المنزلى والملابس والطعام الذى يحتاج اليه فى العالم الآخر ، حتى الآلة التى كان يستعملها فى قياس الوقت لم ينسوا أن يضعوها معه .

أما الملوك فكانوا يعدون أنفسهم بكل ما يساعدهم على أن يحيوا حياة رغدة مترفة بعد الموت . وأفخم ما وجدناه من الأثاث الجنازى فى مقابر الملوك هو محتويات مقبرة الملك توت عنخ آمون أحـد ملوك الأسرة الثامنة عشر . وتمـدنا مقابر الأمبراطورية بأشياء أكثر من تلك الأدوات التى كانوا يستعملونها أثناء الحياة . فاننا إذا درسنا النقوش والنصوص التى تغطى جدران مقابر جبانة طيبة نرى التقدم الـكبير الذى أحرزه قدماء المصريين فى الآراء الدينية بعد عصر الأهرام .



شكل ٤٨ : أقدم الساعات فى العالم ــ مزولة مصرية

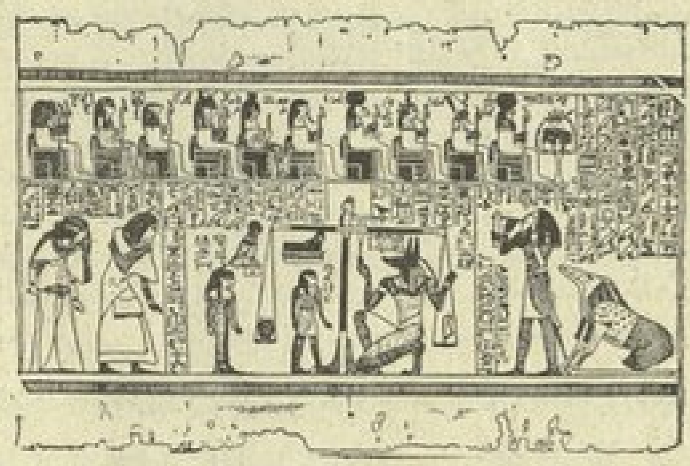
ساعدت شمس مصر الصافية على جعل المزولة آلة سهلة الاستعمال ففى الصباح كانوا يدعون القائم (ا ــ ا) فى ناحية الشرق يسقط ظله على القاعدة (ب ــ ب) فى المكان الذى نرى فيه علامة الساعة الاولى ــ وكلما ارتفعت الشمس كلما أصبح الظل اقصر ، ونرى بعد ذلك علامات الساعة الثانية حتى الساعة السادسه فيكون الوقت قد أصبح ظهرا ، وعند ذلك تدار هذه الآلة لتصبح ناحية القائم (ا ــ ا) ناحية الغرب حتى يقاس ظل شمس بعد الظهر بالطريقه عينها وقد أخذت أوروبا عن المصريين تقسيم اليوم الى اثنى عشر ساعة

وتحمل هذه الساعة الشمسية اسم الملك تحوتمس الثالث اى أنها صنعت منذ ثلاثة الاف واربعمائة سنة · وبعد عهد تحوتمس الثالث بما يقرب من ألف سنة اقتبس اليونانيون هذا النوع من الساعات · والساعة المنشورة فى الشكل أعلاه توجد فى متحف برلين ، وقد رمم الاثرى بورخارت قائمها العلوى (ا ــ ا)

فكان كل واحد من أصحاب القبور يتوقع أن يلاقى حسابه فى العالم الآخر حيث كان أوزيريس هو القاضى الأعظم والملك بين هؤلاء الموتى . وكان كل ميت يستطيع أن يحيا مرة ثانية ، ويقوم من الموت كما فعل أوزيريس ، ولكنه كان مجبراً ــ قبل أن يحصل على ذلك ــ أن يقف بين أيدى أوزيريس لتوزن روحه فيوضع قلبه فى أحد كفتى ميزان ويوضع فى الكفة الأخرى رمز الحق والعدل على شكل ريشة .

وكان أصدقاء الميت وأهله يضعون فى التابوت الذى يحوى جثته ملفا من البردى يحوى أدعية وتعاويذ سحرية كان من المفروض أن تعينه فى حياته التى سيحياها بعد الموت ، ونحن نطلق الآن على أمثال تلك الملفات «كتاب الموتى» وكان هذا «الكتاب» فى أكثر الحالات حاويا لمناظر تمثل بعض ما سيراه أو سيلاقيه الميت فى الحياة الأخرى ، ومن أهم تلك المناظر صورة المحاكمة فى قاعة الحق أمام الإله أوزيريس .

وجاء اليوم الذى تولى الملك امنحوتب الرابع عرش مصر بعد أبيه الملك امنحوتب الثالث ، وكان قد مضى على تأسيس الامبراطورية نحو مائتى سنة اتصلت فيها مصر بغيرها من البلاد واكتسبت خبرة من حكم مناطق كثيرة تقع فى قارتين على شاطىء برزخ السويس ، وهى منطقة أكبر بمراحل متعددة من وادى النيل الذى كانوا يعيشون فيه .



شكل ٤٩ : منظر المحاكمة كما وردت فى أحد كتب الموتى

نرى المتوفى « آنى » وخلفه زوجته يقفان على يسار الصورة وأمامهما الميزان. ونرى فى احدى الكفتين قلب الانسان يقوم بوزنه الاله انوبيس (ورأسه على هيئة رأس ابن آوى) ليعرف أن كان صاحبه صادقا أو غير صادق ، والى جانبه يقف الاله تحوت وقلمه فى يده ليسجل الحكم وعلى اليمين زى المعبودة البشعة التى تلتهم الارواح المذنبة .

وينحنى « آنى » احتراما وينظر الى قلبه الذى فى احدى كفتى الميزان وفى الكفة الاخرى ريشة الحق .

وفى الجزء الاعلى من الصورة نقرأ تضرعات آنى الى قلبه أن يقف الى جانبه والا يتخلى عنه ، كما نرى أيضا صفا من الآلهة الذين يشهدون هذه المحاكمة : (عن بردية فى المتحف البريطانى)

كانت الامبراطورية هى السبب الذى جعل ملوك مصر يجدون أنفسهم وسط معترك دولى ، وظل آلهة مصر يشدون أزر الملوك أينما امتد نفوذ مصر كما فعلوا من قبل ، وهكذا تدرج المصريون إلى الإيمان بأن إله الشمس « رع » مد نفوذه

أيضاً على مصير البشر فى خارج حدود مصر ، أى أنه أصبح إلهاً دولياً وليس إلهاً مصرياً فقط .

ولم يفكر أحد فى ذلك العهد فى أن العالم وحدة أو أن لهذا العالم كله إله واحد يسيطر عليه . ونضجت فكرة الصلة الدولية فى مصر حوالى ١٤٠٠ ق . م . وسرعان ما نمت معها فكرة وحدة العالم . وللمرة الأولى فى تاريخ الدنيا ظهرت فكرة إله واحد للعالم كله له سلطان امبراطورى ، وتلك هى أقدم صورة فى التاريخ لفكرة التوحيد كما وصلت إليها خبرة الشرق .

وهنا بزغ فجر جديد فى تاريخ العـــالم عندما استطاع سكان وادى النيل أن يدركوا أنهم جزء من عالم كبير لا يمكن للانسان أن يلم بأطرافه ، وظهر بينهم أيضاً التوحيد قرونا عديدة قبل أن يظهر فى أى قطر آخر .

وفى مثل ذلك الوقت الحرج تولى الملك امنحوتب الرابع عرش البلاد حوالى عام ١٣٧٥ ق . م . وكان شاباً كثير التفكير ، شجاعاً لا يخاف ، ولكنه لم يراع الحكمة فى إصراره على إجبار رعاياه على اعتناق فكرة العالمية الجديدة . حاول أن يحطم آلهة مصر القدماء ، وحاول أن يغرى الناس بعبادة إله واحد فقط هو إله الشمس ، فكان هذا العمل من جانبه حادثاً جديداً لامثيل له فى التاريخ البشرى .

وأصدر أمره إلى جميع شعوب الإمبراطورية بما فيها آسيا وإفريقيا ليعبدوا إلها واحداً سماه « أتون » ، وأغلق المعابد وطرد الكهنة ليحمل الناس على نسيان دينهم القديم وأمر بمحو أسماء هؤلاء الآلهة أينما وجدوا وبخاصة فى نقوش المعابد ، وكره الشرك فأمر أيضاً بتكسير علامة الجمع أينما وردت فى أى نص يذكر جمع كلمة « إله » ، وكانت كراهيته شديدة بنوع خاص للإله « أمون »[1] إله طيبة فى عصر الإمبراطورية .

---

١ ـ « أمون » هو النطق الصحيح لاسم هذا الاله عندما يكون وحده او عندما يأتى فى آخر اسم يكون الاله جزءا من تركيبه . أما اذا جاء فى أول اسم مركب مثـــل امنحوتب (كتبـه اليونانيون امينوفيس) فان نطقه يتغير وينطق أمن . وعلى ذلك فتكون كتابته « توت عنخ امن » خطأ ويجب أن تكتب « توت عنخ أمون » .

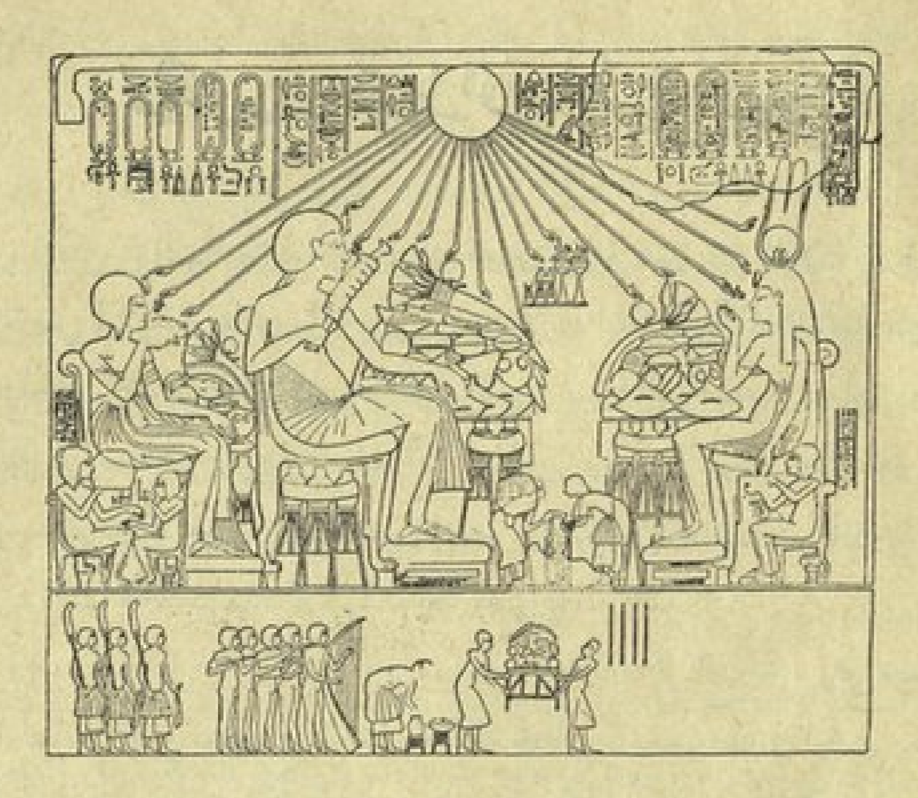
ووصلت به كراهيته لأمون إلى حد تغيير اسمه لأن كلمة الإله مذكورة فيه فإن معنى اسم امنحوتب هو « أمون راض » فغير اسمه إلى « اخناتون » ومعناها « المفيد لأتون » .

وأخيراً ترك اخناتون مدينة طيبة الفخمة بما فيها من معابد وقصور وبنى له عاصمة جديدة فى مصر الوسطى سماها « مشرق أتون » ومكانها الآن بلدة تل العمارنة ولم يستمر الناس فى سكنى تلك المدينة بعد وفاة اخناتون فهجروها بعد سنين قليلة وما زالت بقايا جدران منازلها وقصورها قائمة حتى الآن بعد أن كشف الباحثون الأثريون عنها . وقبل الحرب العالمية الأولى اكتشفت إحدى بعثات الحفر الالمانية فى منزل من منازل تلك المدينة بقايا معمل أحد المثالين ، ووجدت فيه عددا كبيرا من القطع الجميلة التى أمدتنا بمعلومات جديدة مدهشة عن فن النحت فى ذلك العصر .

وتبع اخناتون عدد من الناس آمنوا بدينه واعتنقوه وقطعوا مقابرهم فى صخر الجبل القائم وراء المدينة ونقشوا جدران تلك القبور بمناظر جميلة ترينا مظاهر الحياة فى تلك المدينة التى نسيها الناس . فنقرأ على جدرانها الأناشيد [1] التى كتبها اخناتون نفسه فى تمجيد إله الشمس وهى ترينا بساطة وجمال إيمان هذا الملك الشاب بالاله الأوحد . فقد أوصلته عقيدته الى الإيمان بأن الإله الواحد لم يخلق المخلوقات الدنيا فقط ، بل أنه خلق جميع الناس على اختلاف أجناسهم بما فيهم المصريون والأجانب . وكان « أتون » أبا رحيما يحافظ على كل مخلوقاته ويغمرها برعايته ، حتى الطيور التى تعيش بين النباتات كانت تعترف برحمته فترفع أجنحتها كما يرفع الانسان ذراعيه شكرا له كما يقول النشيد . ولقد تتبعنا تطور الإنسان وتقدمه فى خلال آلاف السنين ولكننا لم نر أحداً قبل اخناتون عرف الصورة الصحيحة للاله الواحد الرحيم بكل الكائنات .

---

١ — انظر كتاب Breasted. The Dawn of Conscience (New York. 1933) PP 281-286.



شكل ٥٠ : الملك اخناتون يجلس الى مائدة الغذاء مع عائلته

حرمت التقاليد القديمه على الملك أن يصـور وهو يقوم باعمال الحياة اليومية بين أفراد عائلته . ولم تكن قبل عصر العمـارنة نرى الا لمحات قليـلة من الحيـاة الرسمية ولكن فى المقابر الصخرية فىالعمارنة نرى وجهـاء الدولة يتبارون فى رسم ،لكهم فى حياته الخاصة على جدران مقابرهم،وذلك أمر كان حدوثه مستحيلا قبل عصره . فترى مثلا فى هذا الرسم الملك الشاب يجلس الى مائدة محملةبأنواع الطعام ، يمسك بيده اليمنى قطعة كبيرة من اللحم يأكل منها بشهية بينمـا الملكة الى جواره وقد أمسـكت بيدها دجاجـة كاملة . والى جانب الملكة جلسـت أميرتان صغيرتان تأكلان بأيديهما كما يفعل والدهما . وفى الناحيه اليمنى من الصـورة جلست أم الملك والى جانبها ابنة لها تشاركان العائلة فى طعام الغذاء . ونرى فى وسط الصورة أربعه من الخدم يحملون الطعام بينما أخذت فرقه موسيقى وتريه تشنف أسماعهم بأنغامها أثناء الاكل .

تدهور وسقوط الامبراطورية المصرية

ولم يكن فى استطاعة عامة الشعب فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد أن يفهموا عقيدة مثل العقيدة التى نادى بها اخناتون ، وامتلأت البلاد بكهنة المعابد الساخطين على الدين الجديد كما امتلأت أيضاً بجنود الجيش الذين أحسوا أنهم أصبحوا مهملين . وتآمر الكهنة سرا مع الجند ووجدوا منهم أذنا صاغية ، وبدأت الفوضى والاضطرابات تأخذ سبيلها فى كل مكان ، ولم تقتصر على مصر وحدها بل وصلت أيضا إلى ممتلكات مصر فى اسيا فأخذت هذه الولايات تعد نفسها للقيام بالثورة .

وقد وقفنا على سير الأمور فى آسيا من « خطابات تل العمارنة » ، وهى مجموعة من الخطابات يبلغ عددها أكثر من ثلاثمائة خطاب كانت مودعة فى احدى مكاتب حكومة اخناتون فى تل العمارنة حيث ظلت فى مكانها أكثر من ثلاثة آلاف عام حتى عثر عليها بعض الأهالى عندما كانوا يحملون السباخ من خرائب تل العمارنة ليخصبوا به حقولهم .

وهذه الخطابات محررة على قوالب صغيرة من الطين باللغة البابليه والخط المسمارى وأكثرها جاء إلى ملك مصر من ملوك غرب آسيا وهى فى مجموعها أقدم مراسلات دولية فى العالم ، ونرى فيها كيف أن هؤلاء بدأوا يفكرون فى التحرر من حكم ملك مصر وكيف بدأت الإمبراطورية المصريه تتحطم وتهاوى أركانها .

فالحيثيون نزلوا من آسيا الصغرى واستولوا على حدود فرعون الشمالية فى سوريا وغزا العبرانيون حدودهم الجنوبية فى فلسطين آتين من الصحراء ، وكانت هذه المتاعب والاضطرابات فى داخل مصر وفى خارجها على أسوأ ما يكون عندما مات اخناتون فى تل العمارنة . ومهما قيل عن هذا الملك بأنه كان حالما ويعيش على آراء مثالية

غير واقعية فليس هناك من ينكر عليه أنه كان أعظم نابغة ظهر فى العالم حتى ذلك الوقت .

لم ينجب أخناتون ولداً ذكراً ليخلفه على العرش فزوّج كبرى بناته من شاب من الحاشية الملكية وأشركه معه فى الملك ، ولكن هذا الشاب لم يعش طويلا ، وعندما أدركته المنية اختار اخناتون شاباً يافعاً آخر اسمه « توت عنخ أتون » أى (صورة أتون الحية) وزوّجه من ابنته الثالثة لأن ابنته الثانية قد ماتت قبل ذلك ، وفعل اخناتون مع توت عنخ أتون ما فعله مع من سبقه فأشركه معه فى الملك ، فلما جاء اليوم الذى مات فيه أخناتون أصبح صهره الصغير وحده على العرش .

واستطاع كهنة أمون أن يجبروا الملك الحديث السن على ترك عاصمة اخناتون فى تل العمارنة ويعود إلى طيبة مدينة أمون ويغير كلمة أتون فى إسمه إلى أمون فاصبح اسمه توت عنخ أمون (أى صورة أمون الحية) .

وهكذا عادت مصر إلى عبادة أمون وغيره من الآلهة واختفت ديانة أتون الجميلة اقدم ما عرفه العالم عن التوحيد ووقف المخلصون لهذه الديانة فى وجه توت عنخ أمون ولكن هذا الشاب الصغير لم يلبث أن أصبح ألعوبة فى يد الرجال المجربين الذين كانوا حوله .

ومات بعد أن حكم فترة تزيد عن ست سنوات [1] ولم يكن عمره يزيد عن

---

١ ـ تميل الابحاث الحديثة الى القول بان مدة حكم توت عنخ امون لم تقل عن ٨ سنوات وانه تولى العرش عندما كان فى العاشرة من عمره ، كما يقول اكثر الباحثين بان كلا من سمنخكارع الذى تزوج كبرى بنات اخناتون ، وتوت عنخ اتون كانا اميرين من العائلة وربما كانا اخوين له من ابيه . ويقول المؤلف أن توت عنخ امون مات مقتولا ولكن لايوجد فى الآثار المصرية اى دليل على ذلك ولم يصادف قبولا عند أحد من المشتغلين بالتاريخ (المعرب)

الثانية عشر إلا قليلا . وربما كان موته فى هذه السن المبكرة لم يكن طبيعياً وإنما قتله الكهنة ذوو المطامع والجنود الذين حوله . وبعد وفاته دفن توت عنخ أمون على مقربة من أسلافه العظماء أجداد زوجته ، ولم يكن هناك أمير قوى فى العائلة المالكة يشق طريقه إلى العرش . ولذا زالت أيام حكام الأسرة الثامنة عشر حوالى عام ١٣٥٠ ق . م . بعد أن حكمت مائتين وثلاثين سنة ، والتى كانت أعظم البيوت المالكة فى تاريخ مصر ، وتركت وراءها ذكرى عظيمة لأن ملوكها كوّنوا أول امبراطورية كبيرة فى تاريخ الشرق القديم .

انتهى حكم توت عنخ أمون قبل أن يبلغ مبلغ الرجال ، ولو فرضنا جدلا أنه كانت لديه الحكمة وقوة الخلق التى تساعده على الصمود فى وجه أعدائه فإننا لا نتوقع من أى حاكم فى مثل ظروفه أن يتابع آراء أخناتون وينجح فى تطبيقها أى ينجح فى تغيير الديانة فى مصر وامبراطوريتها .

لم يكن اخناتون يرمى إلى تغيير الديانة تغييراً تاماً فحسب ، بل أراد أيضاً أن يغير العقلية والعادات والفن . وأراد أن يقتلع كل شىء من جذوره كما يقتلع الانسان جذور النبات ، فقد كان يرمى من وراء حركته أن يخرج من قلوب المصريين عقائدهم التى ربوا عليها وأن يخرج من قلوبهم عاداتهم وعلى الأخص ما كان يتعلق منها بآمالهم الدينية وما كانوا يرجونه من حماية وسعادة فى مملكة أوزيريس بعد الموت .

ومن الطبيعى أن نتوقع أن يلجأ الكهنة إلى جميع أعمال الوحشية لتحطيم كل ما أخرجه صناع وفنانو أخناتون ، ونجحوا فى ذلك نجاحا كبيراً فلم يبق إلا النادر القليل الذى يكشف عن جمال الديانة وروعة الفن فى أثناء تلك الأيام الثائرة فى عهد أخناتون .

وكانت هذه الحقيقة من الأسباب التى زادت فى أهميـة اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون لأنها حوت قطعاً فنية قام بصنعها فنانو عصر أخناتون ، وكانت هذه القطع الفنية مكدسة فى مقبرة صغيرة ذات حجرات أربع نحتت على عجل فى وادى الملوك فى الناحية الغربية من النيل ، واستطاعت الملكة والمخلصون للبيت المالك أن يملأوا قبر الملك الشاب بجميع ما يليق بفرعون مصر من أشياء فخمة فوضعوا فيها الأثاث الجميل الصنع ومصنوعات أخرى هى آيات فى الفن والعظمة .

وفى تلك الأيام الممتلئة بالاضطرابات السياسية التى مرت على البلاد بعد دفن توت عنخ أمون تمكن اللصوص من الوصول إلى مقبرته ولكنهم ضبطوا وهم متلبسون بجرمهم وحاول حراس الجبانة أن يعيدوا كل شىء إلى أصله وأن يصلحوا ما أفسده اللصوص ولكنهم لم يتقنوا ما أرادوا عمله .

وبعد مائتى سنة من وفاة توت عنخ أمون عندما كانت الامبراطورية فى أواخر أيامها أمر الملك رمسيس السادس بحفر مقبرته فى وادى الملوك فوق المكان الذى كانت فيه مقبرة ذلك الملك الشاب ورمى العمال بقطع الأحجار فوق مدخلها وبنوا فوق ذلك الردم أكواخا بسيطة ليقيموا فيها ، هذا هو السبب الذى جعل مقبرة توت عنخ أمون تظل مجهولة وبعيدة عن أيدى المخربين بعد سقوط الامبراطورية المصرية . وظلت على الحالة التى تركها عليها حراس الجبانة حتى عثر عليها رجال الأثرى هوارد كارتر (Howard Carter) فى خريف عام ١٩٢٢ فكانت المقبرة الملكية الوحيدة التى بقيت سليمة حتى العصر الحاضر .

وكنت ممن أسعدهم الحظ فزاروا الصالة الأولى من مقبرة توت عنخ أمون بعد اكتشافها ببضعة أيام فكانت من الأشياء التى لا يمكن للمرء أن ينساها ، فها هو الأثاث الفخم الذى كان يزين يوما من الأيام قصر أحد فراعنة مصر قبل ثلاثة آلاف ومائتين وخمسين عاما . وكان أجمل ما فى هذا الأثاث كرسى من كراسى

القصر . كان اسم توت عنخ أمون مكتوباً على ذراعيه ، ولن أنس ما تسرب إلى نفسى من إحساس عندما قرأت على الذراع الآخر اسم هذا الملك الصغير عندما تولى العرش وهو اسم توت عنخ أتون . وبعبارة أخرى كان هذا الكرسى الدقيق الصنع مما أخرجته يد الفنانين الذين عاشوا فى أيام أخناتون وأنه كان يستعمل فى القصر الملكى فى العمارنة قبل أن يرى توت عنخ أمون نفسه مضطراً لتغيير اسمه . ومن هنا اتضح أن تلك المقبرة العظيمة كانت مملوءة بالكنوز الفنية التى تصور لنا الحياة والفن فى أيام ثورة أخناتون فى الوقت الذى حرر فيه العقل البشرى نفسه من جميع القيود القديمة واتجه ناحية جديدة فى الفن وفى الحياة .

وكانت النتائج السياسية لمثل هذا التحرر الثورى وخيمة العاقبة ، فقد زالت أيام العائلة المالكة القديمة وانتقل الملك إلى بيت جديد تولوا العرش واحداً بعد آخر وكان أهمهم الملك سيتى الأول (حوالى ١٣١٣ - ١٢٩٢ ق.م) وإبنه الملك رمسيس الثانى (حوالى ١٢٩٢ - ١٢٥٢ ق.م) .

وبذل كل من الأب والإبن جهوداً جبارة متتالية ليعيدا - ولو إلى حد ما - الامبراطورية المصرية ، ولكنهما لم يستطيعا طرد الحيثيين من سوريا لأن هؤلاء الغزاة الأقوياء الذين جاءوا من آسيا الصغرى كانت لهم مواهب حربية ممتازة وكانوا قد عرفوا استعمال الحديد فصنعوا منه اسلحتهم ، بينما كانت الامبراطورية المصرية آخذة فى التضاؤل وكانت آخر الممالك العظيمة التى عاشت فى العصر البرونزى [١] .

وما زلنا نرى اليوم فى اثار طيبة مظاهر السقوط الذى كانت مصر على وشك التردى فيه . ففى مناظر المعارك الحربية التى خاضتها مصر فى أواخر أيام

---

١ - لانعرف على وجه التدقيق الوقت الذى بدأ فيه المصريون يستعملون البرونز ولكننا نجد ان اقدم وقت بدأ فيه المصريون يستعملون البرونز على نطاق واسع وخلفوا وراءهم أدوات برونزية كثيرة كان فى الاسرة الثانية عشر أى حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م .

الإمبراطورية نرى كثيراً من الأجانب الذين كانوا فى الجيش ، ففى ذلك دليل على أن المصريين بدأوا يفقدون تحمسهم للجندية وأخذوا يستدعون الأجانب ليخوضوا حروبهم بدلا منهم . وكان من بين هؤلاء الأجانب شعوب من شمال البحر الأبيض الذين تحدثنا عنهم عند كلامنا عن العصر الحجرى ، نرى أفراداً من هذه الشعوب على الآثار المصرية بعد أن تعلموا من شعوب الشرق صـــناعة المعادن ، نراهم الآن جنودا مأجورين فى الجيش المصرى ومصورين على جدران معابدها يحملون فى أيديهم سيوفا من البرونز عظيمة الحجم . وأخيراً جاء اليوم الذى اتحد فيه أقارب هؤلاء الجنود الأجانب الذين كانوا يعيشون فى موطنهم مع غيرهم من شعوب البحر الابيض المتوسط وغزوا مصر فى جموع كبيرة حتى سقطت الامبراطورية المصرية المتداعية ، وكان ذلك فى منتصف القرن الثانى عشر .بل الميلاد.

وفى مدى الأربعمائة سنة التى مرت على الامبراطورية المصرية كان ملوك الفراعنة يدفنون فى طيبة فى البر الغربى ، فى واد بين الجبال الواقعة خلف تمثالى الملك أمنحوتب الثالث ، وهو الوادى الذى ذكرناه عند حديثنا عن مقبرة توت عنخ أمون . ففى جنبات هذا الوادى نحت المصريون ستين مقبرة كانت تسير كل نها على شكل دهليز فى جوف الجبل وبلغ طول بعضها بضعة مئات من الأقدام .

وفى نهاية تلك المقابر كانت توضع موميات أولئك الفراعنة لتكون آمنة ولكن فى اليوم الذى بدأ فيه الضعف يتسرب إلى الدولة وآذنت الإمبراطورية بالسقوط بدأ اللصوص يعبثون بها فلم ينج منها إلا قبر ملك واحد وهو الملك توت عنخ أمون . وحاول الملوك الضعفاء الذين تولوا العرش بعد الأباطرة أن ينقذوا مابقى من موميات أسلافهم فأخذوا ينقلونها من مكان إلى مكان حتى أخفوها نهائياً فى مكان قطعوه فى الصخر فى الجبل الغربى . وبقيت موميات الفراعنه آمنةفى

ذلك المكان ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة حتى عثر عليها فى عام ١٨٨١ ونقلتها الحكومة المصرية إلى متحف القاهرة .

وكانت تلك الموميات إلى ما قبل أعوام قليلة معروضة فى المتحف وكان فى استطاعة الزائر أن يقف إلى جانبها ويتأمل قسمات وجه أولئك الفراعنة الذين حكموا مصر وآسيا قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام ، ولكن الحكومة المصرية قررت وضع تلك الموميات فى قاعة خاصـــة بالمتحف ولا يسمح بزيارتها لا لأغراض علمية .



شكل ٥١ : وادى الملوك فى طيبة حيث دفن المصريون ملوكهم فى عهد الامبراطورية

لم يستمر الملوك فى عهد الامبراطورية (بعد ١٦٠٠ ق٠م) على تشييد أهرام يدفنون فيها جثثهم بل فضل هؤلاء الملوك أن ينحتوا مقابر فى جوف الصخر فى ذلك الوادى ٠ وكانت هذه المقابر تمتد مئات الاقدام داخل الصخر ٠ وفى وسط الصورة نرى باب مقبرة رمسيس السادس واضحا ، وقد عثر كارتر على مقبرة توت عنخ امون تحت هذا الباب مباشرة ٠

ودب الضعف فى قوى الأمة بعد سقوط الإمبراطورية وفقدت حيويتها وقوة ابتكارها وأصبحت مغنما للغزاة الأجانب يستغلون أهلها وينقلون القمح ليطعموا به شعوب البحر الأبيض المتوسط .

وجاء كثير من اليونان والرومان ليزوروا مصر ويتأملوا ما فيها من عجائب أقام بها القدماء ، وترك كثير من هؤلاء الزوار أسماءهم منقوشة على الآثار كما يفعل بعض السائحين اليوم عندما يحضرون إلى مصر ليشاهدوا الآثار نفسها .

إن قصة التاريخ المصرى مسطرة على هذه الآثار ولكن بعد مضى دورة من دورات الزمن نسى الناس هذا التاريخ . وكان قد مضى أكثر من ألف سنة على موت آخر شخص كان فى مقدوره قراءة اللغة المصرية القديمة ، ومرت قرون طويلة كان زائرو الآثار يتطلعون إلى تلك الكتابات التى تغطى جدران المعابد والمقابر وغيرها فى جميع أرجاء وادى النيل فلا يفهم أحد شيئا منها .

شمبوليون يحل رموز الكتابة المصرية

ظل العلماء متحيرين وقتاً طويلا من تلك الألغاز المسطرة على الآثار المصرية والتى لم يستطع أحد منهم قراءتها . ثم جاء الشاب الفرنسى چان فرانسوا شمپليون (Jean François Champollion) وصمم على التغلب على هــذه المعضلة وبدأ ينجح فى ذلك بعد سنوات من الفشل المر . وكان عالم الطبيعيات الانجليزى توماس يونج (Dr. Thomas Young) قد اكتشف أسمـاء بطليموس وكليوپاترا مكتوبة بالهيروغليفية فاستطاع شمپوليون بالاستعانة بهذين الاسمين أن يحدد أصوات اثنى عشر من العلامات التى ثبت أنها علامات أبجدية ورأى شمپوليون أنه يستطيع قراءة بعض أسماء الملوك الآخرين وفى عام ١٩٢٢ أرسل خطابه المشهور إلى الأكاديمية الفرنسية معلناً اكتشافه [١] وموضحاً الخطوات التى اتبعها حتى وصل إليه .

ولم يكن فى استطاعه شمپوليون أن يستفيد من حجر رشيد قبل أن يصل إلى هذا الحد فى أبحاثه ، وبعبارة أخرى لم يكن حجر رشيد هو المفتاح الأول الذى استعمله شمپوليون فى حل رموز اللغة الهيروغليفية ، بل إن حجر رشيد فى الواقع هو الذى ساعده على زيادة محصوله من معرفة العلامات الهيروغليفية فى وقت قليل ، كما ساعده أيضاً على معرفة معانى الكلمات وتراكيب الجمل ، ومات شمبوليون

---

١ وجد شمبوليون مسلة مكتوب على قاعدتها نص يونانى يذكر انها مسلة احد البطالمة وزوجته المسماة كليوباترا وكان على المسلة نفسها نقش باللغة الهيروغليفية ، فكان من رأيه ان هذا النص يجب ان يحتوى على اسمى بطليموس وكليوباترا . وكان قد سبقه باجتون قالوا بأن تلك الخانات البيضاوية الشكل التى يكثر تكرارها على الآثار المصرية ليست الا اسماء الملوك . ورأى شمبوليون انه يوجد فى نقش المسلة اثنان من هذه الخانات البيضاوية وانه يجب ان يكون احدهما اسم بطليموس والثانى اسم «بتو ليمايوس وكليوباترا» وخرج من ابحاثه باكتشاف حل لرموز الكتابة المصرية .

فى عام ١٨٣٢ ولكنه استطاع قبل أن توافيه منيته أن يكتب أجرومية صغيرة وأن يعد قاموساً صغيراً للغة الهيروغليفية .

وما زال ينقصنا الكثير لنقول اننا عرفنا كل ما يتعلق باللغة الهيروغليفية وكتابتها ، ولكن المجهودات العظيمة التى توصل إليها شمبوليون وضعت الأساس الذى قام عليه العلم الجديد الذى نسميه الآن علم الدراسات المصرية القديمة (Egyptology) . وهذا العلم أعاد للعالم كتابة فصل من تاريخ البشرية فى مدى ثلاثة آلاف عام ومكن الآثار المصرية من أن تقص علينا تلك القصة المدهشة التى أوصلت الإنسان إلى الحضارة .



شكل ٥٢ : رسم يمثل الخطوات الاولى فى حل شمبوليون للغة المصرية الهيروغليفية

وكما توصل شمبوليون إلى حل رموز اللغة المصرية تمكن علماء آخرون بطرق مشابهة لطريقة شمبوليون من حل رموز الكتابات التى انتشرت فى طول وادى دجلة والفرات فى آسيا وأخذت آثار تلك البلاد تقص علينا هى الأخرى كيف خرج سكان غرب آسيا من حالتهم البدائية فعرفوا الصناعات وعرفوا أيضاً استعمال المعادن ووصلوا إلى استنباط طريقة للكتابة ثم ارتقوا إلى أن أصبحوا قوة عظيمة فى العالم القديم .

ولنترك الآن قصة مصر وننتقل فى الفصل التالى إلى قصة التاريخ المبكر فى الشرق الأدنى فى آسيا .

الفصل الخامس

غرب آسيا - بلاد بابل

أقطار وأجناس آسيا الغربية

إن أهم مكان سكنه الانسان فى غربى آسيا هو ذلك الجزء المحصور بين الجبال فى الشمال والصحراء فى الجنوب ، وهو يكاد يكون حدودا تفصل هاتين المنطقتين وساعدتها الطبيعة لأن تصبح أرضا منزرعة ، وذلك المكان هو ما نسميه الهلال الخصيب[١] لأنه يكون شكلا نصف دائرى على وجه التقريب.

ويرتكز حرفه الغربى فى جنوب شرقى البحر الأبيض المتوسط ،ووسطه فوق شبه جزيرة العرب ويرتكز حرفه الآخر عند الخليج الفارسى وخلف ظهر هذا الهلال تقوم الجبال المرتفعة ، وعلى ذلك تكون فلسطين عند نهاية الجزء الغربى منه وبلاد بابل فى الجزء الشرقى بينما تكون بلاد أشور جزءاً كبيرا من وسطه .

وهذا الهلال الخصيب ليس إلا إمتدادا لصحراء العرب، وهو يشبه شواطىء جون صحراوى تحيط به الجبال ، ولكن هذا الجون ليس مملوءاً بالمياه ولكنه مملوء برمال الصحراء التى تمتد نحو خمسمائة ميل .

وفى أيام الربيع بعد ما تسقط مياه الأمطار تتحول مناطق كثيرة من هذا الجون الصحراوى إلى أرض مغطاة بالحشائش يتنازع عليها سكان الجبال وسكان الصحراء، كل يريد امتلاك ما يقدر عليه ويتصارع كل منهما على الفوز به ، وهذا الصراع ما زال يحدث إلى اليوم وكان يحدث فى جميع الأزمان. بل إن تاريخ غرب

---

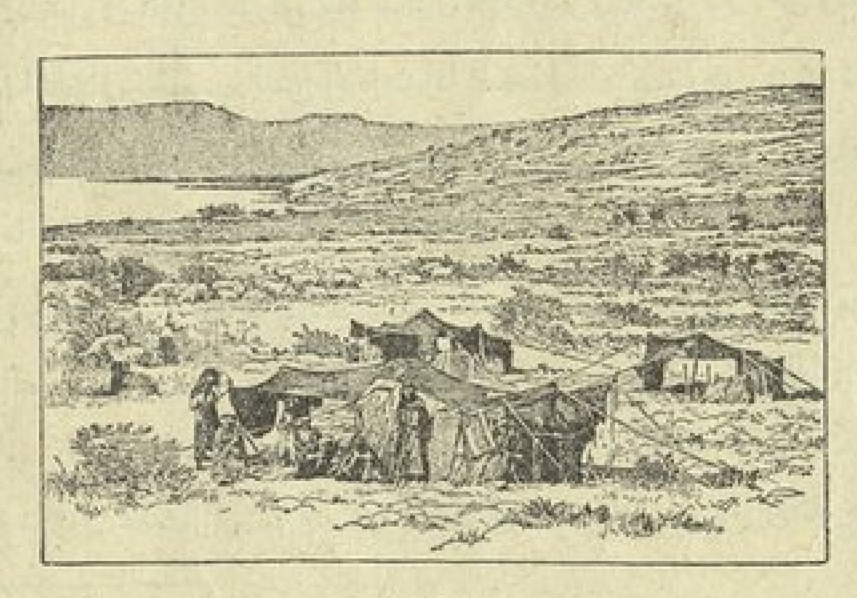
١ — لايوجد اسم جغرافى أو سياسى يطلق على البلاد التى تتجمع فى نصف هذه الدائرة ، ونحن مضطرون عند الحديث على هذا الجزء من الناحية التاريخية كوحدة أن نجد اسما له ولهذا أطلقنا عليه فى كتابنا المقرر على طلبة المدارس الثانوية Ancient Times (Boston 1916) اسم الهلال الخصيب وأصبح هذا الاسم منذ ذلك العهد شائع الاستعمال .

آسيا ليس إلا تاريخاً للصراع بين سكان الجبال وسكان الصحراء .

وحرمت الطبيعة بلاد العرب من الأنهار ولا تسقط فيها الأمطار إلا مدة أسابيع قليلة فى وسط الشتاء. ولهذا فإن أكثر مساحتها أراض صحراوية وليس فيها إلا جزء صغير يمكن للناس أن يعيشوا فيه بصفة دائمة .

ومنذ أقدم الازمنة حتى الآن كان سكان هذه المنطقة مجموعة من شعوب من الجنس الابيض اسمهم الساميون ، وهم الآن - كما كانوا دائما - ينقسمون إلى قبائل متعددة لم تتحد فى تاريخها لمدة طويلة فتكوّن أمة واحدة متماسكة وتشبه فى ذلك هنود أمريكا الذين ينقسمون إلى قبائل مختلفة يعرفون بها مثل السيوكس (Sioux) أو السيمينول (Seminole) أو الاريكوى (Iroquois)

ومن أهم قبائل هذه الشعوب السامية اثنان يعرفهما كل فرد حق المعرفة وهما العرب والعبرانيون الذين يعيش أحفادهم بين ظهر انينا فى أمريكا .



شكل ٥٣ : بدو ساميون من سكان الهلال الخصيب على مقربة من بحر الجليلية

يستطيع هؤلاء البدو ان يحطوا خيامهم المصنوعه من وبر الجمل الداكن اللون من مكان الى اخر حيث يجدون اماكن جديدة للمرعى .

ويتكلم هؤلاء العرب والعبرانيون حتى الآن لهجات لغة واحدة فى الأصل. وما زال العرب إلى يومنا هذا يفعلون مافعلوه أجيالا طويلة، يسيرون وراء المرعى فى بلاد الجزيرة العربية وما جاورها. وعندما تجف الحشائش على حافة الصحراء كان هؤلاء البدو، منذ أقدم الأيام، يتركون رمال البيداء ليقيموا على حافة الأراضى المنزرعة، فإذا أمكنهم أن يثبتوا أقدامهم ينقلبون على مدى الأيام من حياة البدو الرحل الى حياة الزراعة، وكثيرا ما كانوا يهاجرون إلى المناطق التى على حافة الصحارى فى جموع كبيرة. جموع تعيش حياة أقرب إلى حياة الهمجية. وكانت تنزل على تلك البلاد كما ينزل السيل. ويتركون الصحراء ويذهبون إلى المدن ثم لا يلبثون حتى يطغوا على من فيها من سكان، وقد تكرر ذلك مرات عدة خلال آلاف السنين نذكر منها هجرة العبرانيين إلى فلسطين كما تصفها التوراة وغزو جحافل العرب لمن جاورهم من الشعوب بعد اعتناقهم للدين الإسلامى، ووصلت فتوحاتهم إلى أوروبا وكادوا يطوقون البحر الأبيض المتوسط . فان تلك القبائل السامية التى خرجت للغزو واستقرت فى البلاد المختلفة على هيئة جاليات ثم أخذت تنتشر نحو الغرب على طول البحر الأبيض وشمال أفريقيا إلى أن وصلت إلى أسبانيا والمحيط الأطلنطى، ولكن لم يتم وصولهم إلى الاطلنطى إلا بعد قرون عديدة، ولنقصر الآن حديثنا على الساميين فى الصحراء ونبدأ بهم.

ففى فيافى الصحراء لا يعرف الناس حدودا معينة، والمرعى مباح لأول قادم، مثل الهواء لا يمتلكه أحد. فليس بين رجال القبيلة الواحدة من يمتلك أرضا، أو فيهم من يقال أنه غنى لأنه صاحب أرض واسعة أو فقير لأنه لا أرض له . ولا يعرف أهل الصحراء قانونا، فان البدوى ذا العين الفاحصة يرمى ببصره نحو التلال التى امامه ناظرا إلى قطعان القبيلة الأخرى ويتمنى لو تصبح ملكه، وهو يعلم ان ذلك يصبح محققا لو أنه ذهب وقتل الراعى الذى يجلس على مقربة من البئر، ولكن

يمنعه من ذلك علمه بأنه لو أقدم على ما فكر فيه فانه سيجلب الموت أو الدمار لأهله ، وأن دم هذا الراعى لن يذهب هدراً ، وسينتقم أهل هذا الراعى له دون أن ينتظروا من الحكومة أن تفعل شيئاً لأن عادة الأخذ بالثأر مرعية الجانب بينهم وتوقف كل شخص عند حده ولها ما للقانون من أثر رادع .

وفى مثل تلك البيئة لايمكن أن تقوم دولة لأنه لا يعرف أحد الكتابة أو حفظ المستندات وتكاد الصناعات أن تكون معدومة .

ويحيا رجال القبائل فى الصحراء حياة حرية مطلقة . وليس للحكومات القائمة فى بلاد العرب اليوم سلطة تامة على البدو الذين ينتقلون من مكان إلى مكان فى تلك البادية المترامية الأطراف، وتشبه سلطتها عليهم ما كان للسلطات الأمريكية من نفوذ على رعاة البقر الذين لم يردعهم قانون .

وينتقل رجال هذه القبائل ومعهم قطعان أغنامهم على حافة الهلال الخصيب حتى تلوح لأعينهم مدينة من المدن تحف بها أشجار النخيل فيذهبون اليها ويقصدون سوقها ليشتروا السلاح والثياب وبعض الأدوات التى لا يستغنى عنها البدو . وتعلم هؤلاء البدو منذ وقت بعيد نقل السلع من مكان إلى مكان فاصبحوا الناقلين للتجارة بين مدينة وأخرى ، ثم تقدموا بعد ذلك فصاروا أصحاب التجارة ، يتاجرون لحسابهم الخاص ويسافرون دون خوف أو وجل فى ذلك المتسع العظيم من الصحراء الذى يفصل بين سوريا وفلسطين وبابل . وأصبح هؤلاء البدو أعظم التجار فى العالم القديم كما أصبح احفادهم العبرانيون أعظم التجار فى أيامنا هذه .

والبرية وطن البدوى ، اعتاد على الحياة فيها وحيداً فصبغت روحه بالوقار ، وملأت خياله بكائنات لا يراها ولكنه يخشاها ، واعتقد أن تلك الكائنات سكنت فى كل شجرة أو صخرة وفى كل مرتفع أو عند مورد المياه . وكانت تلك المخلوقات هى آلهته التى اعتقد أن فى أستطاعته التغلب على أذاها إذا ما تمم

ببعض الألفاظ التى فيها قوة سحرية . كانت تلك التعويذات هى أقدم أنواع الصلاة ، وكان البدوى يعتقد أن تعويذاته تضمن له أن تلك الآلهة لا تصيبه بأذى بل ويذهب إلى أبعد من ذلك فيعتقد أنها تجبر هؤلاء الآلهة ليقدموا له المعونة .

وتصور البدوى أن سلطة كل كائن من هـذه الكائنات كانت تمتد على مكان محدودة فى هذا الكون المترامى الأطراف ، مثل بئر وما حوله من مراع ، أما البئر التالى والذى لا يبعد أكثر من مسيرة يوم واحد فإنه كان تحت سلطان إله آخر لقبيلة أخرى . لأنه كان لكل قبيلة إلهها الذى يعبده أفرادها ، وكان هذا الإله يسير مع أفراد القبيلة أينما ذهبوا يشاركهم فى طعامهم وفى أعيادهم ويقدم له كل شخص أول ما تلده إناث ماشيته وأغنامه . ولم ير ذلك البدوى المتنقل فى إلهه إلا إلهاً ذا خلق فج محب للقسوة وله عادات همجية طالما حملته على ذبح أبنائه ليرضيه ويتق غضبه ، ومن ناحية أخرى آمن هذا البدوى فى قرارة نفسه بالعدل والحق وكان يؤمن بأن واجبه يحتم عليه أن يكون عطوفاً على زملائه واعتقد أن ذلك من مر الله ، وأخيراً أصبح هـذا الشعور نظرية خلقية عالية .

وفى عام ٣٠٠٠ ق . م كان الساميون قد أخـذوا يتوافدون من الصحراء ليستقروا فى فلسطين فى الجزء الغربى من الهلال الخصيب ولم يأت عام ٢٥٠٠ ق . م حتى نراهم يعيشون فى مدن تحيط بها الأسوار . هؤلاء هم الكنعانيون أسلاف العبرانيين . وكان هناك ساميون آخرون استوطنوا فى الشمال وفى الشرق أشهرهم الأكديون ثم العموريون فيما بعد . أما الفينيقيون فاستوطنوا الشاطىء الشمالى لسوريا ، وكان هؤلاء القوم بدواً رحلا كغيرهم ولكن لم يلبثوا حتى أخـذوا يجوبون البحار وأصبحت ميناء جبيل Byblos من أقدم موانى فينيقيا وأهمها . وكانت غابات الأرز تتوج الجبـال التى تقع خلفها ، وكان خشب هـذه

الأشجار ثميناً ، وكان المصريون يحرصون على الحصول عليه مما حملهم على إنشاء الصلات التجارية بينهم وبين أمراء جبيل قبل عام ٣٠٠٠ ق م .

وما وافى عام ٢٠٠٠ ق . م حتى كان الساميون الذين عاشوا فى الجزء الغربى من الهلال الخصيب قد وصلوا إلى درجة غير قليلة من الحضارة استمدوا أكثرها من مصر وبابل ، لأن هذه البلاد التى تقع على طول الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط كانت فى الطريق الذى يربط بين تلك المملكتين ، ولهذا كانت دائماً على صلة بكل منهما .

وإذا كان الساميون قد غزوا الهلال الخصيب من جنوبه أى من ناحية الصحراء ، فإن سكان الجبال غزوه أيضاً فى شماله واتخذ بعضهم لنفسه موطناً فيه . ولم يكن هؤلاء الجبليون من الجنس السامى ولكنهم كانوا على كل حال من فروع مختلفة من الجنس الأبيض ، وقد تطاحن هؤلاء الجبليون مع القبائل السامية قروناً طويلة متنافسين على امتلاك الهلال الخصيب .

ونشأت أقدم الحضارات فى آسيا الغربية فى الطرف الشرقى من الهلال الخصيب فى وادى نهرى دجلة والفرات اللذين سنطلق عليهما من الآن اسم « الرافدين » ويبدأ هذان النهران فى الجبال الشمالية ثم يصلان إلى الهلال الخصيب ثم ينحى مجراهما متجهاً نحو الجنوب الشرقى ، وفى هذا المكان من بلاد الشرق أى على شاطىء الرافدين يمكننا أن نتتبع تاريخ بعض الشعوب القديمة فى مدى بضع آلاف من السنين ، ونرى تطور مدنيتها .

وينقسم تاريخ دجلة والفرات إلى ثلاثة فصول ، أقدمها تاريخ بابل فى الجنوب عند مصب النهرين . وعلى بعد ثلاثمائة وعشرين ميلا تقريباً من الخليج

الفارسي[1] أي عند المكان الذي يقترب فيه النهران من بعضهما ، نرى هذين النهرين وقد تركا المناطق الصحراوية في الشمال ويبدآن سيرهما في وادي واطيء خصب التربة كونته رواسب النهرين . وذلك هو الوادي المسمى أرض بابل الذي يكون الحد الشرقي للهلال الخصيب .

ولم تكن مدينة بابل ذات أهمية أثناء الألف سنة الأولى من تاريخ تلك البلاد ، وورد اسم الوادي في التوراة تحت كلمة « شنعار » وسنستعمل هذا الاسم عند الحديث على العصور القديمة لتلك البلاد لأن اسم بلاد بابل لم يصبح علماً على الجزء الشرقي من الهلال الخصيب إلا في بداية الألف الثاني قبل الميلاد ، فإننا إذا أصررنا على استعمال كلمة بلاد بابل فاننا نكون كمن يطلق اسم فرنسا عند حديثه على بلاد الغال في أيام يوليوس قيصر .

وسهل شنعار لا يكاد يزيد عن أربعين ميلا في العرض ، وتقل مساحته عن ثمانية آلاف كيلو متر مربع من الأراضي الصالحة للزراعة أي ما يقارب ولاية نيوجرسي في الولايات المتحدة الأمريكية أو بلاد ويلس في انجلترا . ومناخها يتبع مناخ البحر الأبيض المتوسط أي تسقط فيه الأمطار أثناء الشتاء فقط ثم تليها شهور الجفاف في الصيف وكمية الأمطار ضئيلة وهي أقل من سبع بوصات في السنة[2] ولهذا تحتاج الحقول إلى الري لينضج المحصول . وإذا وجد سهل شنعار من يعنى بشئون الري فيه فإنه يصبح من أجود الأراضي ، وكانت الزراعة هي المصدر الرئيسي للثروة لسكانه في الأزمنة القديمة .

---

١ ــ يصب نهرا دجلة والفرات في الخليج الفارسي ويحملان معهما رواسب تملأ هذا الخليج عاما بعد عام . ومنذ الايام الاولى في تاريخ بابل حتى الآن ملأ النهران من هذا الخليج مسافة ١٥٠ ميلا تقريبا

١ ــ مقدرة على حسب التقارير الانجليزية في السبعة والثلاثين عاما التي تبدأ من عام ١٨٨٧ وتنتهي في عام ١٩٢٤

أقدم الحضارات الهامة فى وادى الرافدين
« السومريون »

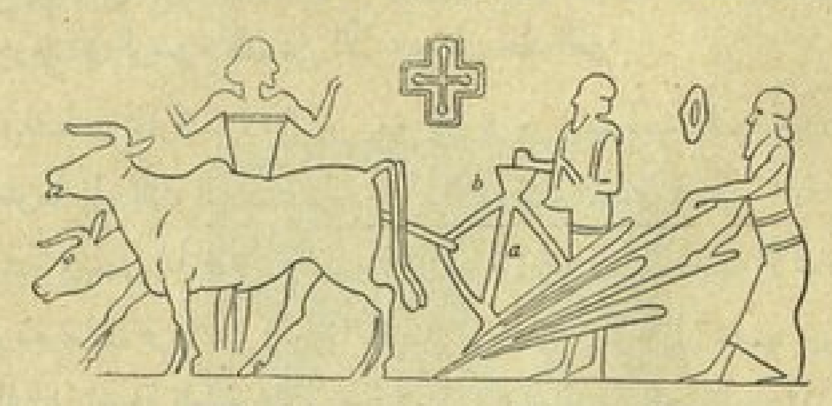
أثبتت الاكتشافات الأثرية أن أقدم الحضارات الهامة فى وادى الرافدين تطورت على يد قوم غير سامي الأصل، لم نعرف جنسهم الأصلى على وجه التحديد حتى الآن، وهم يسمون السومريون لأن المنطقة التى كانت لهم السيادة فيها من بلاد الرافدين كانت تسمى « سومر ».

ومن المحتمل أن هؤلاء السومريين كانوا قد بدأوا فى تجفيف المستنقعات التى كانت عند رأس الخليج الفارسى قبل عام ٣٥٠٠ ق . م وأخيراً امتدت قرى أكواخهم المبنية من الطوب اللبن من المنطقة الواقعة فوق بغداد الحالية حتى مصب النهرين وبخاصة على شاطىء الفرات لأن مياه دجلة واطئة كثيرا عن الأراضى المنزرعة .

وتعلم السومريون كيف يحافظون على مياه العيون بعمل جسور لها، كما عرفوا أيضاً توزيع المياه فى قنوات الرى، وعرفوا حصاد محاصيل الحبوب . وكانوا فى تلك الأيام يزرعون الشعير والقمح وامتلكوا الماشية والضأن والماعز . ولعبت هذه الحيوانات دورا كبيرا فى حياتهم إلى الحد الذى جعلوا فيه إحدى آلهتهم الهامة على شكل بقرة واعتقدوا أنها كانت تحمى قطعان حيواناتهم . وكان لهذه الآلهة معابد كشف عن واحد منها على مقربة من مدينة « أور » منذ عهد قريب وعثر فيه على نقوش على الأحجار نرى من بينها مناظر صناعة الألبان لدى السومريين، كما نرى فيها مناظر تمثل الثيران تجر المحراث أو الثيران والحمير[1] تجر العربات ذات العجل

١ — يوجد على بعض الآثار السومرية رسم لحيوان غريب الشكل اختلف فى وصفه كحصان أو كبغل أو كحمار آسيوى متوحش .

أو المركبات ، وقد رسمت المركبات مزودة بعجلات متينة حولها إطار من الجلد أو النحاس كما كشفت الحفائر عن بقايا مهشمة منها .



شكل ٤١ : آلة بابلية قديمة لبذر الحبوب

نرى فى هذا الشكل رسم آلة يجرها ثوران يمشى سائقهما الى جوارهما ٠ ونرى خلف السائق رجلا يمسك بكلتا يديه هذه الآلة التى تحفر بسنها المدبب فى الارض وتخط فيها عند سيرها ٠ وفوق سن المحراث قناة رأسية (أ) فى أعلاها قمع (ب) والى جانب الرجل الذى يقود هذه الآلة نرى شخصا ثالثا يسير بجواره يلقى باصدى يديه حبوبا من القمح فى القمع بينما يضع يده الاخرى فى غرارة للحبوب معلقة فى كتفيه ٠ وكانت الحبوب تنزل من القمع الى القناة ومنها الى الخندق الذى حفره السن المدبب للآلة ٠ هذا الرسم منقوش على اناء حجرى صغير (نقلا عن كلاى)

وعرف السومريون صناعة المعادن فى وقت مبكر وكان من بينهم صناع مهرة عرفوا كيف يطرقون النحاس وعرفوا طريقة صبه ، ونرى من تحليل بعض أدواتهم أنها تحتوى على نسبة عالية من الصفيح مما حمل بعض الباحثين على القول بأنهم عرفوا فى وقت مبكر صناعة البرونز وهو أكثر صلابة من النحاس .

وصنعوا من النحاس أسلحة وآلات ، وأدوات للزينة وغيرها كما صنعوا أيضاً تماثيل للمعبودات ، وإلى جانب النحاس توصلوا أيضاً إلى معرفة الذهب والفضة والرصاص . وكونت الزراعة وتربية الماشية الجزء الأكبر من الثروة التى كانت أساساً للحياة السومرية ، ومع ذلك لم يأل السومريون جهداً فى التقدم بصناعاتهم ولم يقف بهم الأمر عند حد الموارد الميسورة لهم بل استوردوا

الخامات من بلاد أخرى ، وساعدهم صوف الأغنام على تطور صناعة النسيج والحصول على ملابس صوفية بالرغم من أن الازار الذى نراه حول وسط السومريين فى الرسوم كان على الأرجح من جلد الغنم .

ونشطت تجارة هؤلاء الناس مع غيرهم من امم آسيا الغربية وكانت سلعهم التى حملوها إلى تلك البلاد عبارة عن الأدوات المصنوعة من المعدن والبضائع الصوفية وبعض الحاصلات الطبيعية كالبلح والحبوب كما أثبتت الأبحاث أن هذه التجارة وصلت غرباً حتى البحر الأبيض المتوسط وشرقا إلى مصب نهر السند وقد قام الدليل بصفة قاطعة على وجود الصلة التجارية مع وادى السند [١] من العثور فى خرائب المدن القديمة فى سهل شنعار على أختام وأوان وخرز من صناعة سكان وادى السند القدماء . أما فى ناحية الغرب فإن تجارة بلاد الرافدين كانت تتلاقى وتتداخل مع تجارة مصر فى بلاد شرقى البحر الأبيض المتوسط ، ومن المحتمل جد أنها كانت تصل إلى مصر نفسها . ولا شك أنه كانت هناك صلة بين مصر وبلاد الرافدين ، لأن كلا من الحضارتين كانت تخرج أشياء مصنوعة متماثلة الطراز وذات أشكال خاصة ، مثل دبوس القتال الذى على شكل الكمثرى ، والأختام الأسطوانية واستعمال حيوانات مرتبة فى أشكال خاصة فى الفن الزخرفى فى كل من الحضارتين.

---

١ ـ كشفت حفائر السير جون مارشال (Sir John Marshall) التى قام بها لحساب مصلحة الآثار الهندية فى السند والبنجاب عن وجود بقايا حضارة مبكرة يرجع تاريخها الى عام ٢٥٠٠ ق.م. وكان فى هذه المدن منازل مكونة من طابقين على الاقل ومبنية بالطوب الاحمر . وكان فى هذه المنازل حمامات وكانت فيها أنظمة دقيقة لتصريف المياه . وكانت بعض الحيوانات تجر مركبات على عجلتين واستعملوا الفيلة الاليفة فى حمل الاثقال . وبالرغم من أن النظام الاقتصادى لوادى السند قام على الزراعة فان الصناعة كانت مزدهرة وقام صناع المعادن بصنع أدوات من النحاس جعلوها أوانى وأوعية من الفضة . وعرفوا أيضا التزجيج وأظهروا فيه بعض المهارة . وصنعوا اختاما حفروها بمهارة ودقة تثبت لنا أنهم عرفوا الكتابة .

وكان سكان وادى السند معنيين الى حد كبير بالتجارة ولا بد أن قوافلهم كانت ترحل نحو الشرق بصفة منتظمة مخترقة تلال بلوخستان حيث عثر العلماء على مدن شبيهة بمدن وادى السند .

وقد عثر العلماء فى حفائرهم ، فى آسيا الغربية على آثار تثبت أن هذه التجارة قد امتدت الى الربع الشمالى الغربى أى الى البلاد الواقعة حول شاطىء البحر الابيض المتوسط .

وقادت التجارة وإدارة الحكومة هؤلاء السومريين فى عصر مبكر إلى إثبات بعض البيانات بواسطة حفرها حفراً سطحياً بالجزء المدبب من نبات الغاب فوق



شكل ٥٥ : ختم عثر عليه في دلتا وادى السند (الالف الثالث ق٠م)

لايزيد حجم هذا الختم عن بوصة مربعة ، وهو أدق عمل فنى وصل الى ايدى علماء الاثار من حفائر وادى السند ، ويمكن اعتباره من آيات الصناعة الدقيقة فى الحضارات القديمة ٠ ونرى على هذا الختم رسما غاية فى الدقة لثور براهما واسمه « زبو » وفوق الثور كتابة لم تحل رموزها الى الآن ٠ (رسم عن صورة فوتوغرافية من كتاب مارشال)

سطح مستو لقطعة من الطين اللين فإذا وضعوا الطين فى الشمس جفت وأصبحت صلبة ، فإذا ما وضعوها بعد ذلك فى فرن لحرقها فإنها تصبح لوحة فخارية تكاد لا تتعرض للفناء ، وأبقت الأيام على بعض اللوحات الفخارية التى يرجع تاريخها إلى أقدم العهود ونستطيع أن نميز بسهولة الصورة الأصلية لبعض العلامات التى جاءت فى كتاباتهم ، ونحن نسمى الآلة التى كتبوا بها على الطين بالقلم (Slylus) وكان بعض هذه الأقلام يصنع من شرخة صلبة من نبات الخيزران ولكن بعضها كان من العظم أو الخشب ،

وفى بعض النقوش نرى كاتبا وفى يده قلم ، وكان مثل هذا الكاتب لا يحفر خطوط صورة وإنما كان يلتجىء إلى طريقة أخرى ، فإذا أراد مثلا أن يرسم خطاً فإنه كان يرفع قلمه ثم يضغط على حافته فيغمسها فى الطين ثم يرفعه مرة ثانية ويضع حافته مرة أخرى إلى جانب الأولى وهكذا ، وإذا تأملنا شكل القلم نجد حافته على

المعنى الأصلى أو المشتق	أشورى	بابلى قديم	الرسم كما كان يكتب فى السومرى القديم	الرسم الأصلى
طائر				
سمكة				
حمار				
ثور				
شمس يوم				
حب				
بستان				
يحرث يعزق				
عصا رماية رمى إلى الأرض				
يقف يذهب				

شكل ٥٦ : رسم يوضح الصور الأصلية لعشرة من العلامات المسمارية (جمعها ورسمها الأستاذ آرثر بوييل)

شكل يشبه المثلث أو المسمار لأن رأسه أعرض من الناحية الأخرى ، وكانت كل علامة أو صورة تكتب بمثل ذلك القلم تصبح مجموعة من علامات مركبة من خطوط يشبه كل منها المسمار ونحن نسمى هذا النوع من الكتابة مسمارية نظراً لشكلها (مسمارية ترجمة لكلمة Cuneiform وأصلها من Cuneus اللاتينية ومعناها مسمار) . ولم يطل الزمن حتى أخذت الصور المرسومة بهذا النوع من الكتابة تبعد عن شكلها الأصلى فتصعب معرفتها حتى جاء الوقت الذى لم يعد للشبه بين العلامات المكتوبة وأشكالها الأصلية أى وجود .

ووصل الأمر بالكتابة السومرية أن أصبحت تحتوى على ستمائة علامة منها علامات معنوية ومنها علامات صوتية ، وكانت الأولى تمثل الآراء أو الأشياء والثانية تمثل الأصوات ، وكانت تستعمل كمقاطع فى الكلمات وكانت بعض الكلمات تتكون من أكثر من علامة صوتية يضاف إليها فى أغلب الأحيان علامات معنوية لتكون مخصصة لها . ولم يتطور عن هذه الطريقة السومرية أبجدية حروف لتحل محل المقاطع أى أنه كانت هناك مقاطع مثل «كر» ، «بن» ، ولكن لم توجد علامات للحروف ك أو ر أو ب أو ن التى كونت هذه المقاطع ، ولهذا لا يمكننا أن نقدم للقارىء أبجدية كما فعلنا عند حديثنا على الكتابة المصرية [١] .

وترينا تلك المدونات التى على الطين أن السومريين اعتادوا أن يبدأوا شهورهم مع كل قمر جديد وأن السنة كانت تتكون من اثنى عشر شهراً قمرياً ، ولما كانت مدة الاثنى عشر شهراً قمرياً تقل فى طولها عن السنة الحقيقية ، فإن الكاتب السومرى اعتاد أن يضيف على السنة شهراً إضافياً كلما وجد أنه وصل إلى نهاية السنة التقويمية قبل الفصول بشهر أو ما يقرب منه .

وورث اليهود والفرس هذا التقويم الخاطىء غير العملى وما زال سائداً بين

---

١ — اقرأ قصة حل رموز اللغة المسمارية فى الفصل السابع من هذا الكتاب .

يهود الشرق والمسلمين . ولم يكن السومريون يعدون السنين بل كانوا يفعلون ما فعله المصريون فى مستهل حضارتهم ، وهى تسمية كل سنة باسم حادث هام وقع خلالها .

وكان للسومريين نظام فى حساب الأعداد يخلط بين النظامين العشرى والستينى ، وكان لديهم علامات لرقم واحد والعشرة وللستين ، وكانوا يضعون هذه العلامات حسب قيمتها ، كما نضع أرقامنا ، ولكن حسب ترتيبها فى أرقام مفردة وعشرات وستينات ، بدلا من أرقام مفردة وعشرات ومئات ، ولكنهم لم يعرفوا الصفر .

أما وحدتهم الأساسية فى الموازين فهى الـ « مينا » وتنقسم إلى ستين « شيكل » وكل ستين « مينا » تزن « تالنت » ، وظلت هذه الأوزان سائدة فى العالم القديم حتى أيام اليونان وكانت الميناتزن رطلا من أوزاننا الحالية ، إذ وصلت هذه الوحدة إلى العالم الغربى من صلته بالشرق .

وكان مركز الحياة والثقافة السومرية فى المدن ، وكان المعبد فى المدينة هو نواة حضارتها والمركز الرئيسى فيها ، يقوم فى وسطها تحيط به الأسوار الضخمة التى تفصله عن باقى اجزائها ، وفى داخل تلك الأسوار قامت أماكن العبادة ومخازن المعبد والمكاتب ، يشرف عليها جميعا الكهنة الأغنياء يعاونهم الكتبة الذين كانوا يؤجرون ويرعون أملاك المعبد . وقام المعبد مقام البنوك لأن الكهنة كانوا يقرضون الناس باسم الإله ، ويتقاضون الأرباح باسم الأله أيضاً .

وكان برج المعبد يعلو فوق كل المبانى ، وكان شكله على وجه التقريب مثل مكعب ولكن يقل عرضه كلما ارتفع . وحول هذا البرج ثلاث مدرجات من سلالم ضخمة مبنية حول الجدران تصل بالزائر الى الباب فى منتصف البرج فوق باب المعبد ، وفى بعض الأحيان كانوا يزرعون الأشجار فى مستويات مختلفة حول هـــذا البرج ، ينقلون اليها الطمى ويجعلون منها حدائق جميلة فى مدرجات على ارتفاعات متعددة . وفى أعلا البرج معبد مربع الشكل ، فيه بهو لا سقف له ، وخلف البهو مكان مقدس

ومن أهم المعابد ذات البرج تلك التى قامت فى مدينة نِبور (Nippur) لتكون حرماً لإله الهواء « إنليل » (Enlil) مما جعل من مدينة نبور بلداً ذا قدسية خاصة بين جميع المدن السومرية.

ولما كان هذا النوع من المعابد مبنيا على شكل يجعل جوانبه تنحدر إلى الداخل كلما ارتفعت عن الأرض فتصبح قريبة الشبه بالجبال، وكان السومريون أنفسهم يسمونها « بيوت الجبال »، فمن المعقول أن أهل سهل شنعار أرادوا أن يبنوا الآلهتهم بيوتا تليق بهم فوق جبال صناعية. وكان المعبد ذو البرج الذى بنى فى مدينة بابل فيما بعد سببا لنشأة قصة برج بابل التى جاءتنا عن طريق القصص العبرانى، ولاشك أن طراز تلك المعابد كان له أثر رائع فى نفس كل من وقعت عليه عيناه وكان نوعا جديدا فى العمارة وصل اليه السومريون وأصبح ذا أثر كبير فى الطرز المعمارية. [1].

وكان يقوم معبد آخر إلى جوار المعبد ذى البرج، وكان هـــذا المعبد القليل الارتفاع هو المعبد الأساسى وكان بسيطا فى نظامه إذ لم يحتو إلا على بهو يليه الهيكل وكان الفلاحون يأتون إلى هذا الهيكل القائم تحت ظل المعبد ذى البرج يحملون قرابينهم من الحبوب والبلح والتين والزيت واللبن والعسل وكذلك بعض الحيوانات.

---

١ — لم يبق الا القليل من بقايا تلك الابراج البابلية واختلفت الآراء فى معرفة شكلها الاصلى معرفة لايدخلها شك . وقبيل الحرب العالمية (الاولى) عثر مرة اخرى على لوحة مسمارية من عصر متأخر سطر عليها ابعاد برج بابل .

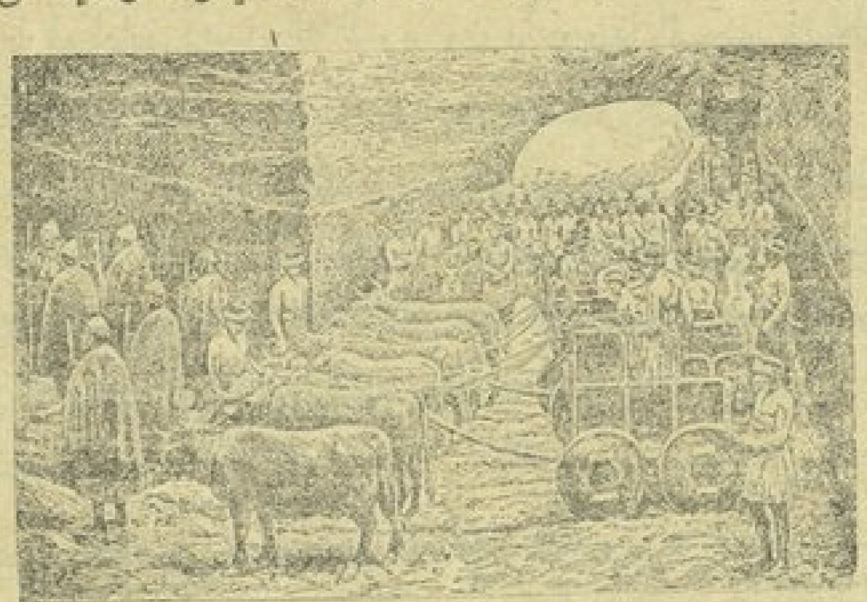
وتمكن كولدوى Koldway ـ الذى قام بحفر خرائب مدينة بابل ووجد القاعدة المربعة للمعبد أن يرسم رسما تخيليا لما كان عليه المعبد ذو البرج عند بنائه ، وساعده فى ذلك عثور البعثة الامريكية الانجليزية تحت رئاسة الاستاذ وولى (C.L. Woolley) على بقايا برج مماثل حفظت فيه أجزاء من مدرجات السلالم الثلاثة فى مدينة « أور »

ومات كولدوى فى أوائل عام ١٩٢٥ ووافق المشرفون على اعماله على السماح بنشر الرسم شكل ٧٠ فى هذا الكتاب فى الاصل الانجليزى وهو رسم يمثل برج بابل كما كان فى العصور القديمة ومما يجدر الاشارة اليه أن الاستاذ وولى وزملاءه نشروا رسما فخما لمعبد أور كما كان فى أيام السومريين .

وكانت توضع هذه الأشياء فوق موائد القرابين وكان يؤخذ جزء منها ليكرس أمام الإله بعبارة أخرى أمام تمثاله .

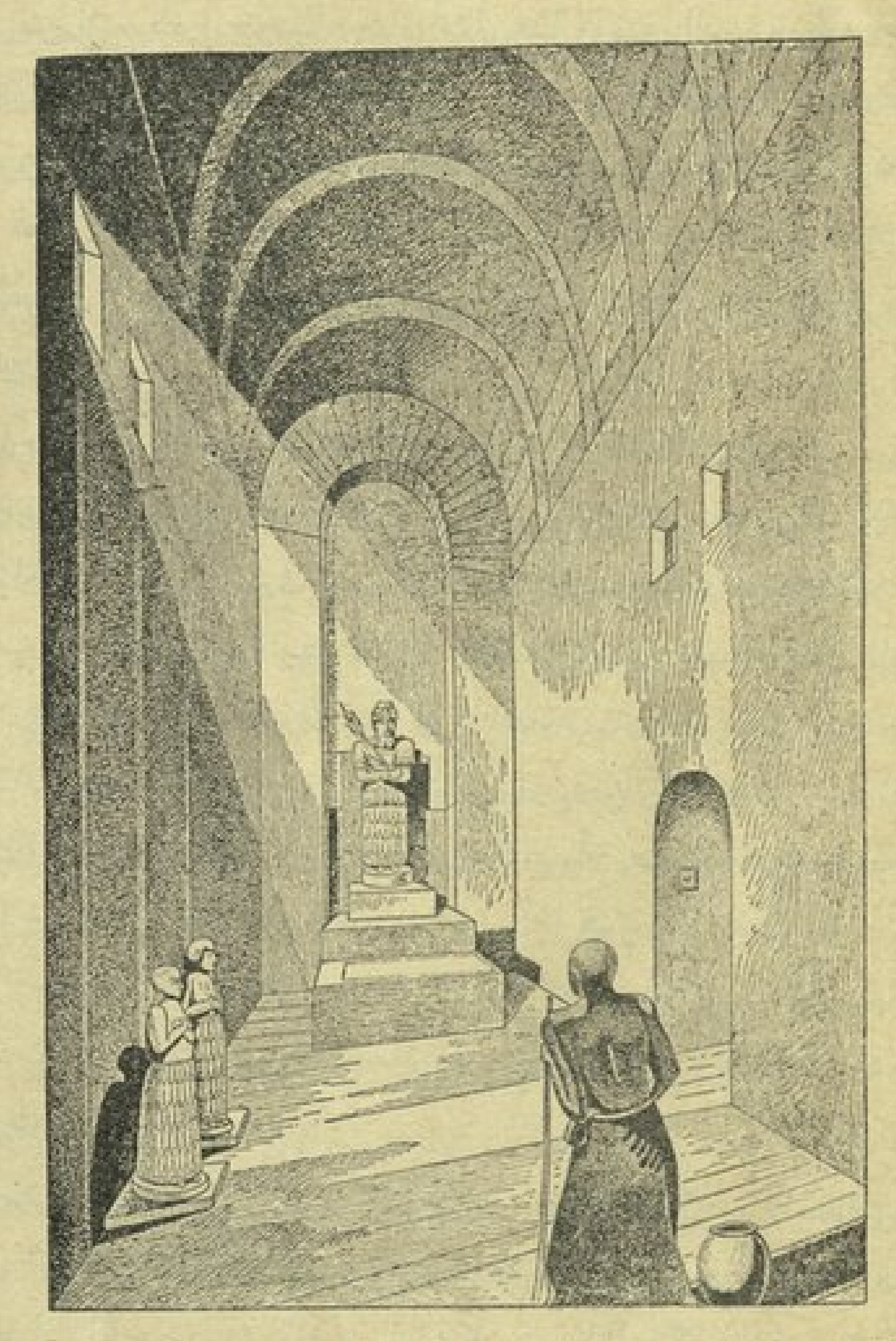
وفى خرائب هذه المعابد عثر الأثريون على أنواع كثيرة من الأدوات التى كانت تستعمل فى العبادة وعلى الأوانى التى كانوا يضعون فيها السائل ليصبوها على القرابين أثناء الصلوات ، كما عثر الأثريون أيضا على مناظر يرجع تاريخها إلى ذلك العصر وعرفنا من دراستها ، أنه كانت تقوم فى تلك المعابد احتفالات ذات معانى رمزية .

فمثلا كانوا يضعون جريدة النخل ومعها بعض شماريخ البلح فى إناء ثم يصبون فوقها الماء ، والتفسير المحتمل هو أن ذلك يمثل فضل الإله على البلاد



شكل ٥٧ : أهل بيت أمير ، « أور » ينتظرون الموت على باب مقبرته

عثرت البعثة الانجليزيه الامريكية تحت رئاسة وولى أثناء حفائرها فى أور على أجسام هؤلاء الرجال والنساء والحيوانات وما معهم من أشياء على باب مقبرة الامير • وقد تمكن الفنان الحديث بارشاد الاثريين من أن يتخيل هؤلاء جميعا وقد وقفوا على استعداد لقتلهم ، وقف كل فى مكانه الذى عثر فيه على جثته • وكان الاعتقاد السائد بينهم هو أن قتلهم على هذه الصورة يمكنهم من الانتقال الى العالم الاخر ليظلوا فى خدمة سيدهم هناك :



شكل ٥٨ : منظر داخلي في أحد المعابد البابلية من (الالف) الثالث ق.م
من حفائر المعهد الشرقي بجامعة شيكاجو — صورة لما كان عليه المعبد في الزمن
القديم — من رسم سيتون لويد (Seton Lloyd)

فهو الذى يرسل الفيضان كل سنة فى النهر لتبقى الزراعة فى الأرض . ونحن نستطيع أن نفرض أنهم كانوا يقومون بعمل أمثال هذا الطقس الدينى ووضع الهدايا والقرابين أمام آلهة الأرض وما عليها من نباتات ولآلهة الهواء والسماء والبحر ويصحبونها بأدعية ليأتى الماء وفيرا ويكثر المحصول . ويدعون أيضا أن تجنبهم الآلهة مصائب الفيضان المدمر مثل الفيضان الذى أرسله الإله مرة فخرب كل شىء ، ذلك الفيضان الذى كان الناس يتناقلونه عن آبائهم وأجدادهم ووصلت أخباره إلى العبرانيين .

واختلفت ديانة السومريين عن ديانة المصريين فى نقطة هامة . كان السومريون يدفنون موتاهم فى أغلب الحالات تحت أرضية بهو المنزل الذى يعيشون فيه أو تحت إحدى الحجرات ، ولو انهم فى بعض الحالات كانت لهم جبانات خارج المدينة . أما عقيدتهم فى الحياة بعد الموت فانها كانت غامضة وكانوا يتصورون أن الموتى يعيشون فى مكان مقبض تحت الأرض ملىء بالظلام والتراب ، يذهب اليه الناس جميعا لا فرق بين صالح ومجرم ، وانتشرت بينهم عقيدة بأنه اذا مات انسان فإنه سيحتاج فى حياته الثانية إلى أهل بيته ، فحرصوا على أن يضعوا معه ما يجنبه الحياة فى العالم الآخر بدون خدم وحيوانات . وقد رأينا فى حفائر مقابر أمراء أور الأوائل جثث الحرس والخدم من رجال ونساء والثيران ما زال مشدودا عليها فى المركبات ، قتلوها جميعا على باب حجرة الدفن لتلحق بسيدها ولتستمر فى خدمته بعد الموت .

وانتشرت بيوت الأهالى حول المعبد وكانت مستطيلة الشكل ومبنية بالطوب اللبن ، وكان البيت ـ فى أقدم العهود ـ يحتوى على قاعة رئيسية فيها أبواب توصل إلى الحجرات الأخرى . وفى العصور التالية كان يتوسط المساكن فناء غير مسقوف ولهذا كانت تلك المساكن ظليلة غير حارة ومناسبة لمناخ البلاد ، وكان الضوء يغشاه

من نوافذ على مقربة من السقف أو من أبواب ذات عقود عالية تفتح على فناء الدار أما المدن فكانوا يقيمونها فوق أكوام صناعية ، ولم يكن يزيد عرض إحداها عن بضع مئات من الأقدام ولكنها اتسعت مع مرور الزمن وزاد عدد سكانها ، ولكنها مع ذلك ظلت دائما محدودة ولم تنم واحدة منها نموا كبيرا كما نعهده الآن فى المدن الهامة .

كان الطوب اللبن هو المادة الأساسية لجميع المبانى العادية فى العالم القديم ، وكانت مساكن الفقراء فى بلاد الشرق القديم ، وما زالت حتى الآن ، تبنى بهذا النوع من الطوب . ويؤثر المطر كثيرا على جدران المساكن ولا تلبث أن تتهدم بل إن بعضها ينهار إذا أمطرت مطرا شديدا فى يوم من الأيام . وإذا حدث ذلك فى أيامنا الحاضرة فإننا نرى أن أصحاب هذا المسكن يسوون الأنقاض ويبنون مسكنا جديدا فوق مسطحها . وهكذا فعل من سبقوهم خلال آلاف السنين فأصبحت المدن بعد مرور القرون كوما عاليا من الأنقاض تعلوه البلدة التى يسكنها الناس . وفى كثير من بلاد الشرق ما زال السكان يعيشون فوق أنقاض مساكن آبائهم وأجدادهم ، ولكن هناك أيضا كثير منها هجره سكانه وأصبح أكواما خربة ، نرى من أمثالها الكثير فى جميع بلاد الشرق الأدنى مثل كوم طروادة فى آسيا الصغرى ، وتل مجدو فى فلسطين ومدينة الفنتين فى مصر .

وكانت الرقم ـ أى اللوحات الطينية ـ التى تسجل حسابات المنزل والخطابات والمطالبات والإيصالات والمذكرات ، تظل تحت أكوام المساكن التى تتهدم وتغطيها أنقاض الجدران ، أما المعابد والمبانى العامة فإن الرقم التى تظل فيها كانت تحتوى فى أغلب الحالات مدونات حكومية هامة ، وفى مساكن الحكام وفى مكاتبهم توجد رقم تحوى قصص الحرب والغزو .

وكثيرا ما كان يهتم أحد الحكام بتدوين وثائق تتعلق بتشييده للمعابد أو للقصور

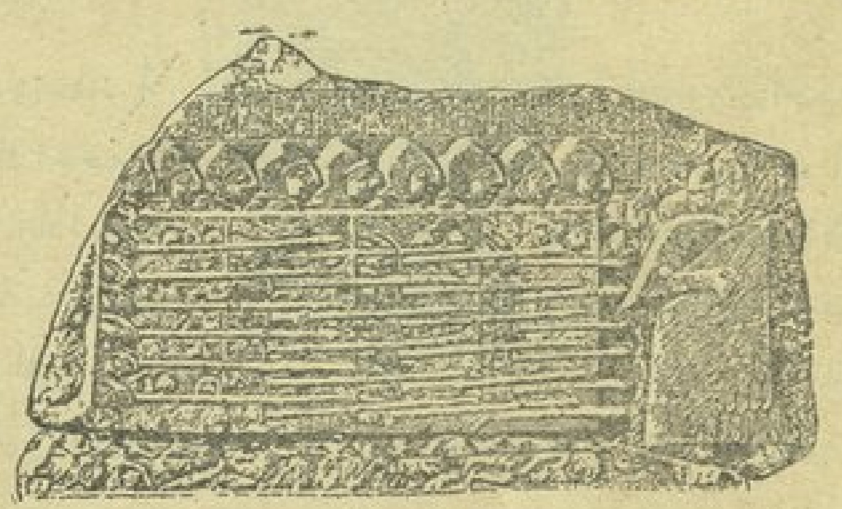
ووثائق عن انتصاراته وأعماله العظيمة ، وكان يضع أمثال هذه الرقم فى أساس مبانيه حتى يتسنى لمن يأتى بعده من الحكام أن يجدها ، وليست هذه الرقم هى كل ما يمكن العثور عليه مدفونا تحت تلك الأكوام بل غالباما يعثرالأثريون هناك ايضا على قطع فنية منحوتة .

وتحت هذه الأكوام ما زالت بقايا المساكن البابلية ذاتها . ولكن الحجر لم يستعمل إلا نادراً فى مبانى تلك المدن التى تهدمت . ومع هذا فان كوم أى مدينة منها غنى بما بقى فيه وهو مستودع للحضارة البابلية القديمة .

فمن خرائب المدن السومريه ، عرفنا كيف كانت الحياة فى شوارعها المزدحمة وعرفنا أن أهم طبقات السكان هم الملاك الاحرار ، الذين كانوا يملكون الاراضى التى يعمل فيها أرقاؤهم أو التجار الذين كانوا يملكون القوافل أو يرسلون بضائعهم فى القوارب التى تغدو وتروح فى النهر ، هؤلاء هم الطبقة المتوسطة ، ولكن الموظفين والكهنة كانوا الطبقة الأرستقراطية فى المدينة . وكانت كل مدينة من هذه المدن وما حولها من حقول ، تمتد إلى مدى بضع أميال وتكون وحدة سياسية مستقلة أو ولاية يحكمها ملك ، وتدلنا الوثائق المكتوبة وغيرها من الآثار على نوع الحياة التى كانت تسير عليها تلك المدن السومرية القديمة ، ونعرف منها أيضاما أحرزته من تقدم مدى أربعة قرون . وقد بدأت هذه الوثائق منذ عهد بعيد يرجع إلى ما قبل عام ٣٠٠٠ ق . م . ، وفيها نرى فضل الحكام السومريين على تلك المدن رغم ما كان يعانيه الناس من فداحة الضرائب وما سببته من ظلم ، فقد كان حاكم المدينة ذا نشاط خاص فى أيام الحرب ، زيادة عما تفرضه عليه الواجبات الدينية الكثيرة ذات المظاهر المتعددة ، وكان من أهم واجباته العناية بكل شئون الرى ، لأن القنوات والجسور كانت فى حاجة مستمرة إلى الإصلاح فلو أهملت لتعرضت الحقول إلى الجفاف والمحاصيل إلى الضياع وتنتشر المجاعة بين الناس إذا توقف جريان المياه .

وتقص علينا هذه الوثائق قصة أكثر من واحد من هؤلاء الحكام وتصوره لنا وقد خرج للحرب على رأس جنوده المدججين بأسلحتهم يسيرون فى كتائب ذات صفوف متراصة أو يحملون على أعدائهم فى مركبات ثقيلة ذات عجلات أربع ، فقد كان السومريون أقدم شعوب العالم فى تنظيم الحرب وجعلوا منه فنا رفيعا .

كانت الدويلات السومرية متعددة وحدودها متقاربة ، ولهذا كانت الحروب بينها كثيرة ولم تتمتع بالأمن فترات طويلة لأن كل دويلة منها كانت تحاول أن تستولى لنفسها على جزء من أراضى غيرها وكان سكان المدينة يسارعون وراء مليكهم لطرد المعتدين ، ولهذا فمن العبث أن نتحدث بشىء من التفصيل عن التاريخ السياسى خلال هذا العصر المبكر .



شكل ٥٩ : ملك أحد المدن السومرية يقود كتيبة من جنوده

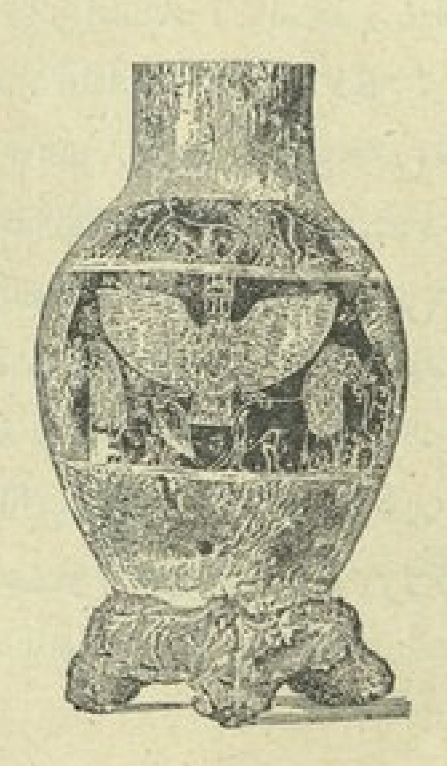
يسير الجنود معا فى صفوف متراصة خلف ملكهم الذى نراه فى يمين الصورة وقد تهشم وجهه من هذا الحجر . وهذا هو أقدم مثل لتجميع الرجال لتكوين وحدة حربية واحدة هى الكتيبة . ذلك هو الفصل الاول فى التاريخ الطويل لفن الحرب ، بدأ به أحد شعوب آسيا ، فى الوقت الذى لم تعرف فيه مصر مثل هذا التنظيم . ونرى فى الرسم الجنود السومريين وقد شرعوا حرابهم للقتال ولكنهم لايحملون أقواسا . وكل منهم يحمل درعا كبيرا يغطى جسمه ويلبس خوذة ضيقة ــ من المحتمل أن تكون من الجلد ــ فوق رأسه . وهم مرسومون يمشون فوق جثث رمزا لانتصارهم على أعدائهم .

وعثر على أجزاء من قوائم بأسماء ملوك بعض الدويلات السومرية . وهى لأسماء الحكام الذين خلف بعضهم بعضا وكانوا القوى المسيطرة فى ذلك السهل الذى أصبح يسمى بلاد بابل فيما بعد ، وليس من المعقول أن نقبل تسلسل الملوك كما جاء فى القوائم ، لأنه كثيرا ما كان يحدث أن مدينتين أو أكثر كانتا قويتين فى مكان محدود أى قريبة من بعضها ومعاصرة لبعضها ، وفضلا عن ذلك فإن الزمن المدون فيها لمدة حكم بعض الملوك طويل جدا إلى حد لا يمكن تصديقه ، ولكن بالرغم من أن هذه الجداول ناقصة جدا فإنها تحوى بعض الحقائق التى أكدتها الإكتشافاف الأثرية فى أور والوركاء ونيبور وأدب وغيرها . ولناخذ مثلا مدينة أور التى ذكرت فى قوائم الملوك بانها ثالث دويلة بعد الفيضان ، اذا سبقها كيش والوركاء .

ظهرت فى حفائر أور ونيبور نقوش تشير إلى حكام فى أور برزت أسماؤهم فى قوائم الملوك الخاصة بذلك العصر ، وكان أول ملك فى هذه المجموعة هو الملك « مس - أنىّ - بادّا » وقد خلفه ابنه « آن - أنىّ - بادّا » الذى بنى معبداً صغيرا للآلهة البقرة فى ضاحية من ضواحى أور وسجل هذا العمل على لوحة من المرمر وضعت تحت أساس المعبد ، وحكم بعد « مس - أنىّ - بادّا » أربعة ، وكان هؤلاء الملوك الخمسة هم الأسرة الأولى من ملوك أور .

وكشفت حفائر البعثة الإنجليزية الأمريكية فى خرائب مدينة أور عن مدنية بلغت حدا عظيما فى وقت مبكر جدا . فقد عثر رجال هذه البعثة تحت أنقاض المبانى المتهدمة على مقابر لأشخاص ذوى أهمية كبرى من المحتمل جدا أنهم كانوا حكام تلك المدينة ، تلك هى المقابر التى سبق أن تحدثنا عنها ورأينا رسمها فى شكل ٥٧ . بنى أهل أور القدماء تلك المقابر من الطوب اللبن والأحجار وكانت محتوياتها تنافس

فى الفخامة ما عثر عليه فى مقابر بمصر فى ذلك العهد. كان أحد الأمراء يحمل كساء للرأس مصنوعا من صفائح سميكة من الذهب وهو على درجة كبيرة من الفخامة ومزخرف برسوم دقيقة جداً حفرتها يد الصائغ الماهر، وكان هذا الأمير يعلق فى حزامه خنجراً من الذهب فى غمد من الذهب المشغول المفرغ؛ ووضعوا إلى جانبه فى قبره أوانيه الذهبية التى كانت تزين مائدة طعامه أثناء حياته، وكل هذه الأشياء



شكل ٦٠ — اناء من الفضة لاحد ملوك المدن السومرية

يزين هذا الاناء شريطان يدوران حوله وفيهما زخارف محفورة تمثل أحسن تمثيل الفن الزخرفى فى الحضارة السومرية المبكرة • ونرى فى الشريط العريض نسرا له رأس أسد يقبض بمخلبيه على أسدين يعض كل منهما تيتلا • وهذا التماثل فى ترتيب رسم الحيوانات من أهم ماوصل اليه الفن السومرى • وانتقلت هذه الرموز التى تمثل أزواجا من حيوانات ترسم متقابلة أمام بعضها الى أوربا وما زالت باقية حتى الآن فى الرسم الزخرفى وفى الرنوك أو فى الرسوم المميزة لبعض الملوك والامم • وقد ظهر النسر فى أعلام ملوك النمسا وبروسيا وغيرها من أمم أوربا وأخيرا وصل الى أمريكا ، وكلها مستمدة من النسر السومرى الذى يرجع تاريخه الى ما قبل خمسة آلاف عام •

التى أخرجتها يد الصائغ ترينا المهارة الفائقة والدقة الفنية كما ترينا أيضا سمو الذوق فى تصميم أشكالها .

وفى الأسرة الأولى فى أور كان الملوك قد وصلوا فى حضارتهم إلى الحد الذى مكنهم من تشييد معبد الإلهة البقرة وتزيينه بتماثيل تستدعى الإعجاب ، إذ وضعوا على الافريز الذى أمام المعبد تماثيل ثيران قوية مصنوعة من النحاس المصبوب ، بينما وقف نسر هائل له رأس أسد ناشراً ذراعيه فوق غزالين ـ وكلها من البرونز ـ كأنما يحمى بوابة المعبد . أما الحائط الأمامية فكان يزينها شريط عريض من الزخارف تمثل الرعاة وهم يحلبون الأبقار ، وغيرهم من العمال وهم يصفون اللبن ويصنعون الزبد . كان هذا الافريز فى الأصل موضوعاً فوق لوح ، حرفاه العلوى والسفلى مصنوعان من النحاس ، أما صور الأشخاص والحيوانات والأشياء الأخرى فكانت منحوتة من قطع من المحار أو الحجر الجيرى موضوعة فى أرضية مصنوعة من طبقة رفيعة من الزفت الأسود التى ملأت الفراغ بين خطى النحاس ، ولسنا نتوقع من تلك التماثيل الكبيرة التى تزين واجهة البناء أن تكون دقيقة الصنع مثل عمل الصائغ أو حفار الأحجار الثمينـــة ، ولكن النقوش وغيرها من الأشياء المنحوتة تظهر لنا الروح الفنية والمهارة الفائقة التى وصل إليها هؤلاء السومريون .

وكان التهافت الكبير على عمل الأختام سببا فى تقدم صناعة حفر الأحجار ووصولها إلى درجة رفيعة من التقدم ، فقد كان السومرى يبصم بختمه على الطين اللين لتقوم مقام التوقيع باسمه ، وهذه الأختام الشخصية هى أقدم ما وصل إلينا من أختام وكانت تختلف فى أشكالها فنها المستدير ومنها البيضاوى الشكل ومنها ما كان مربعاً أو مستطيلا ، وفى أكثر الأحيان كانوا يرسمون على الظهر المحدودب للختم شكلا لأحد الحيوانات .

ومع مرور الزمن ظهر ختم اسطوانى الشكل ، حل محل النوع القديم من الأختام ، وكانوا يحفرون جوانب هذا الختم الاسطوانى برسوم جميلة وأحياناً يكتبون عليها اسم صاحبها ، وكان تمرير هذا الختم الاسطوانى على الطين اللين يقوم مقام التوقيع ، شأنه فى ذلك شأن الختم الآخر ، ولم يلبث حفارو الأختام إلا قليلا حتى أصبحوا سادة ثابتى القدم فى صناعتهم وما زال أثرهم باقياً حتى الآن فى فنوننا الزخرفية .

ويبدأ تاريخ سومر — حسب ما وصلت إليه معلوماتنا حتى اليوم — بالعصر الذى تنتمى إليه حضارة أور . فقد أثبتت النقوش أن « مس - أنى - بادا » ملك له وجود تاريخى ، وهو أمر لم يتيسر لغيره من الملوك الذين حكموا قبله ووردت أسماؤهم فى قوائم الملوك ومن الجائز أن مدناً أخرى كانت مزدهرة فى الوقت نفسه فى سومر وكان تقدمها فى الثقافة لا يقل عن مدينة أور ولنضرب مثلا بمدينة « لجش » التى كشفت الحفائر فيها عن عدد من المبانى الهامة شبيهة بمبانى الأسرة الأولى فى « أور » ومن المحتمل أن سقوط أسرة أور الأولى كان نتيجة لحرب بينها وبين « لجش » لأن أحد حكام هذه المدينة يدعى أنه أخضع مدينة أور لسلطانه ، ومع ذلك فانه مسطور فى قوائم الملوك أن ملكة « أوان » استولت على « أور » ، وليس فى تلك القوائم ذكر لحكام « لجش » .

أما مدينة « أوان » فإنها كانت فى أرض « عيلام » ، ومن المحتمل أن « أور » كانت فى ذلك الوقت تحت حكم أجنبى . من ذلك نرى أن محاولة معرفة الوضع الصحيح لتاريخ « سهل » شنعار » ليس من الأمور السهلة ، ولن يتيسر لنا أن نصل إلى الحقيقة أو نرتب معلوماتنا المشوشة إلا بعد أن تمكننا الحفائر من العثور على المدن السومرية التى نجهل أماكنها حتى الآن . وقد أوصلتنا الحفائر التى تمت حتى اليوم إلى كثير من المعلومات وعرفنا منها أن جميع الدويلات السومرية كانت تمر

فى فترات غير آمنة يكثر فيها النزاع عندما يهاجمها عدو فيغزوها ويمعن فيها نهباً ، ولكن رغم ذلك كانت هذه الدويلات تقضى أيام السلم بين فترات الحروب لتنهض من كبوتها وتستعيد مجدها .

وانتهت هذه المنازعات الداخلية بين دويلات سومر - ولو مؤقتاً - عندما هاجمها غزاة ساميون ، فقد بدأ بدو الصحراء يستقرون فى سهل « شنعار » منذ بضعة قرون ، ومن المحتمل أن يكون بعضهم قد أتى من الشمال الغربى وسار فى محاذاة نهر الفرات ، لأن عدداً كبيراً منهم استقر فى ذلك المكان الضيق الذى يقترب فيه نهرا دجلة والفرات من بعضهما وتصبح المسافة بينهما نحو عشرين ميلا .

وأخيراً أصبح هذا الجزء من السهل يسمى « بلاد أكد » ، وأصبح اسم السكان الساميين « الاكديين » ، وهى منطقة ذات موقع تجارى ممتاز على الطريق الموصل بين بلاد الرافدين والبلاد الجبلية التى فى الناحية الشرقية منها وكانت تجارتها مصدر ربح ورفاهية لسكانها .

الانتصار السامى الأول

عصر سرجون

ظهر فى القرن السادس والعشرين ق . م . فاتح من الجنس السامى فى « أكد » إسمه « سرجون » [١] ، كان ماهراً فى الحرب فتمكن من هزيمة السومريين وجعل من نفسه سيداً على سهل « شنعار » بأكمله . هزم الدويلات السومرية وجنودها حملة الحراب وخضعت له كل البلاد حتى مصب نهرى الدجلة والفرات . ولم يقف الملك سرجون عند هذا الحد بل بعث بجنوده إلى منطقة الخليج الفارسى لمهاجمة عيلام .

وقاد سرجون رجاله الأكديين الذين كانوا يتسلحون بالقسى من جبال عيلام الشرقية ، واتجه بهم غرباً وصعد بمحاذاة نهر الفرات حتى وصل إلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط . وهناك قول، بأنه أرسل سفناً لاخضاع جزيرة قبرص وربما حدث صدام بين أسطوله وبين السفن المصرية التى كانت ـ كما سبق أن قلنا ـ تجوب مياه ذلك البحر، وترسو من آن لآخر فى موانىء المدن الفينيقية ؛ وليس مستحيلا أن تقود الصدفة فى يوم من الأيام إلى اكتشاف بعض الرقم التى كان يتبادلها ملك بلاد الفرات فى ذلك الوقت مع ملك وادى النيل الذى كان يعيش فى قصره الفخم فى منف .

ومن المحتمل جداً أن سرجون واصل زحفه بعد أن وصل البحر الأبيض المتوسط فذهب شمالا متوغلا فى المناطق الشرقية من آسيا الصغرى لكى يحمى التجارة التى كانت مزدهرة إذ ذاك بين مناطق مناجم الفضة فى الشرق الجنوبى من آسيا الصغرى وبين تجار بلاد الرافدين . كان سرجون أول زعيم فى تاريخ الجنس

---

١ ـ يضع بعض الباحثين الملك سرجون الاكدى فى القرن الرابع والعشرين ق.م. ويحددون عام ٢٣٥٠ ق.م. لبدء حكمه (المعرب)

السامى وكان أول حاكم يؤسس مملكة كبيرة فى غرب آسيا تمتد من عيلام فى الشرق إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط وتصل أيضاً إلى أعالى نهرى دجلة والفرات فى الشمال والغرب . وتركت فتوحاته العظيمة فى غرب آسيا ذكرى لم يقو الزمن على محوها بالرغم من أن حياته انتهت بالقتل على أثر ثورة قامت ضده ، ولكن أحد أحفادة وهو « نرام ـ سين » استأنف فتوحاته وأقام آثاره فى الفرات الأعلى .

لم يبق الأكديون بعد استقرارهم فى الهلال الخصيب على ما كانوا عليه من بداوة ، بل أدخلوا تغييرات كثيرة فى أساليب حياتهم ، فبنوا لهم مساكن ثابتة وبنوا بيوتاً من الطوب اللبن وتركوا خيامهم وبهذا لم يعد ميسوراً لهم أن ينصبوها فى المساء فى مكان ما ، ليطووها فى الصباح إلى مكان آخر .

وقد كشفت الحفائر منذ سنين قرينة فى تل « إشنونا » عن المقر الرسمى لأحد الحكام المحليين فى عهد الملوك الأكديين ، فلم يعد ذلك الحاكم يقيم فى خيام كما فعل أجداده ، بل كان يقيم فى بناء فسيح الأركان فيه بهوان ، وكان الجزء الخاص بعائلته مكوناً من صالة كبيرة يليها حجرة أخرى وعدة حجرات للخدم ، وحجرة استقبال وحجرة للنوم ومرحاض وحمام . وعمموا نظام البالوعات فى جميع أجزاء القصر ، وكان المجرى الرئيسى لتصريف المياه مبنياً من الطوب اللبن ومقبياً . وفى بعض المنازل الأخرى التى عاش فيها الأكديون ، عثر الباحثون على نوافذ ذات قضبان من الفخار وأبواب ذات عقود ، كما عثروا أيضاً على رسوم معمارية على الرقم ، وهذا دليل قاطع على عنايتهم بأمر البناء .

لم يكن لهؤلاء الأكديين معرفة بالكتابة فاقتبسوا الكتابة المسمارية عن السومريين ليكتبوا بها لغتهم السامية وكانت هذه هى المرة الأولى التى كتبت فيها لغة سامية ، واقتبس الأكديون أيضاً التقويم السومرى والأوزان والمقاييس ونظام الأعداد وطرق التجارة . ولم يقف اقتباسهم من السومريين عند تلك

الأشياء التي تفيدهم في حياة السلم بل عرفوا منهم أيضاً ما يفيدهم في الحرب ، فتعلموا كيف يصنعون خوذات من الجلد أو من النحاس تزن الواحدة منها أكثر من رطلين ، وكانت تلك الخوذات السومرية أقدم محاولة للانسان لاستخدام المعادن لحماية نفسه في الحرب ، وكانت هذه الخوذات نقطة الابتداء التي قادت الانسان فيما بعد إلى اختراع المراكب الحربية ذات الدروع المصنوعة من الصلب وأبراج المدافع في العصور الحديثة .

وكان فن النحت السومري مصدر إلهام للأكديين . وأمامنا مثل على ذلك وهو لوحة الملك « نرام — سين » المعروفة باسم لوحة النصر ، والتي عثر عليها في « سوسا » وتوجد الآن في متحف اللوفر ، وهي التي لايشك أحد في أنها من أعظم الأعمال الفنية في العالم القديم ، ويزيد في أهميتها أنها أقدم عمل فني عظيم أخرجته يد فنان من الجنس السامي . ولم يمض زمن طويل حتى أصبح حفارو الأحجار الثمينة من الأكديين منافسين لمن علموهم هذه الصناعة من السومريين ، ومما يدعو إلى الدهشة أن الفنانين الأكديين ركزوا اهتمامهم في أظهار التفاصيل الدقيقة في الأختام أكثر من اهتمامهم بالزخارف التي كان يعتني بها السومريون .

وبعبارة أخرى اقتبس الفاتحون الاكديون حضارة السومريين المغلوبين ، واختلط الساميون بسكان المدن غير الساميين في سهل بابل ، كما اختلط النورمانديون بالانجليز في انجلترا ، وفي أوقات الحروب كان الجنود الذين من أصل سومري يحملون حرابهم ودروعهم ويسيرون إلى جانب سادتهم الساميين الذين لا يحملون غير القسي ، وفي أوقات السلم لم يستطع السادة الساميون الاستغناء عن الكتاب السومريين الحاذقين .

اتحاد السومريين والساميين
«ملوك سومر وأكد»

حكمت عائلة سرجون نحو قرن ونصف من الزمان، ولكنهم رغم نجاحهم في الحرب، لم يستطع الملوك الأكديون منع الدسائس والانقسام بين رجال البلاط، وكان عهدهم مليئاً بالثورات والاغتيالات، وكان هناك مطالبون كثيرون بالملك إلى درجة جعلت الكاتب الذى كان يحرر قوائم الملوك عند وصوله لإثبات حوادث ذلك العهد، أن يقع فى حيرة يائسة فلا يزيد عن قوله «من هو الملك؟ ومن هو غير الملك؟».

وزاد الطين بلة أن بعض سكان المنطقة الجبلية غزوا البلاد فى ذلك الوقت التعس، ولكن انتهى الأمر بهزيمتهم وطردهم؛ وأصبح فى استطاعة المدن السومرية أن تقف على قدميها مرة أخرى وتعيد سلطانها فى البلاد. وأخيراً نهضت مدينة «أور» مرة أخرى، وأصبحت لها الزعامة على غيرها. وأصبح للسكان الساميين الذين مضى عليهم عدة قرون فى تلك المدن نفوذ فى التنظيم الجديد ونرى بين أسماء الحكام المحليين كثيرين ممن تدل أسماؤهم على أصلهم السامى، وأصبحت الأمة الجديدة تدعى باسم «سومر وأكد».

وازدهرت البلاد فى تلك الأيام وبذل الملوك كل ما فى وسعهم ليصلوا إلى أعلى مراتب الحضارة، فحققوا ما نسميه الحضارة البابلية.

استمر حكم ملوك «سومر وأكد» نحو ثلاثة قرون، كان القرن الأول منها عصر رفاهية تحت زعامة مدينة أور، ثم تلاه قرنان مليئان بالتدهور فيما تلا ذلك: وبالرغم من أن الحفائر لم تكشف عن كثير من المدونات الرسمية فى أور، فإننا نعرف أنها تقدمت

فى فتوحاتها نحو الشمال على طول نهر دجلة حتى شملت فتوحاتها بلاد « أشور » التى تظهر ابتداء من هذا الوقت فى صفحات التاريخ . وأرسلت أور الحملات الحربية شرقا إلى عيلام وغرباً على امتداد الفرات فوصلت إلى البلاد التى كان يقطنها قوم ساميون كانوا قد بدأوا يظهرون أيضاً وهم الذين نعرفهم باسم « العموريين » .

كانت هذه الفتوحات سبباً فى تجمع بلاد متعددة فى غرب آسيا تحت حكم واحد وكانت النتيجة المترتبة على ذلك هى اتساع نطاق التجارة فى غرب آسيا على صورة لم يسبق لها مثيل .

ونذكر كيف كان الناس فى العهد الحجرى يتاجرون فى الكهرمان والظران وغيرهما ، ثم تطور الناس بعد معرفتهم للزراعة فأصبحت كيلة القمح أو الشعير وحدة لتسهيل التعامل . فإذا اشترى أحد الناس من جار له قارباً يساوى قيمة عشرين كيلة من الشعير ، ففى استطاعته أن يعطيه ثوراً قيمته خمسة عشر كيلة ويتبقى عليه بعد ذلك خمس كيلات يعطيها له .

وأخذت قيمة المعادن تزيد شيئاً فشيئاً وأصبحت وسيلة صالحة للتعامل وأساساً لقيم الأشياء التى يتبادلها الناس وكانت الفضة هى المعدن الذى أخذ يشق طريقه ليصبح فى مكان العملة . وكما كان المصريون القدماء يستعملون حلقات من النحاس منذ عصر الاهرام للمعاملات البسيطة وحلقات من الذهب ذات وزن معين للمعاملات الكبيرة ، فإن البابليين القدماء كانوا يتعاملون بقطع من الفضة تزن الواحدة منها « شكل » أى جزء على ستين من وزن الرطل (المينا) وكانت هذه القطع الفضية على هيئة قرص مستدير لا يزيد فى حجمه إلا قليلا عن العملة الفضية التى قيمتها قرشان ، وأصبح ميسوراً للبابليين أن يحددوا الاسعار وقيم الاشياء بما يقابل ثمنها من قطع الفضة .

وكانت قيمة أى وزنة من الفضة ربع نفس الوزنة إذا كانت من الذهب ؛ ولكن قلت قيمة الفضة بعد ذلك عندما كثر تداولها بينهم .

واستلزمت التجارة تحرير كثير من الوثائق والحسابات وكانت كلها تكتب على رقم كثيراً ما عثر عليها الاثريون عند حفرهم لمدن هذا العصر ، وإذا فحصنا هذه الرقم نجد أنهم كانوا يستعملون صيغاً خاصة فى تحرير معاملاتهم التجارية مازلنا نستعملها حتى الآن ، وكانوا بوجه عام أول شعوب العالم الذين جعلوا تحرير المعاملات المالية أساساً فى الاعمال التجارية .

ولم يلزم البابليون أنفسهم باتباع أساليب خاصة فى التجارة فقط ، بل ألزموا أنفسهم أيضاً باتباع قواعد خاصة فى بعض العادات الإجتماعية ، وانتهى بهم الأمر أن أصبحت هذه القواعد قوانين تنظم الحياة بين الناس ويجب عليهم طاعتها .

وأصبحت مدينة أور قوية غنية فى فترة قصيرة بعد أن تمكنت من ضم منطقة واسعة إليها ، منطقة يحكمها قانون ينظم شئونها ، وتزدهر فيها الصلات التجارية مع شعوب أخرى بعيدة عنهم .

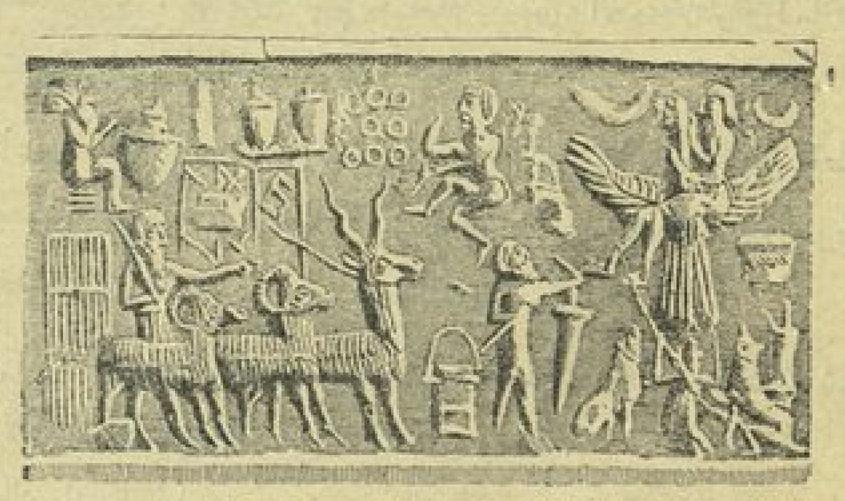
ونرى أثر ذلك كله فى المعبد الذى شيده ملوك أور ، والذى كشفت عنه الحفائر حديثاً وثبت منها أنه بنى فى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وهو دليل مادى قوى على ثراء المدينة فى ذلك العهد .

ولم تكشف الحفائر حتى الآن عن آثار أدبية فى مدينة أور أثناء حكم ملوك سومر وأكد ، ولكننا نكاد نجزم بأن ذلك التطور الأدبى الذى نراه فيما بعد فى المدن الأخرى التى ورثتها ، إنما بدأ فى أيام ملوك أور .

ولم تصل إلى أيدينا الرقم الأصلية التى تحتوى على آداب ذلك العصر ولكن كتب المدارس وبعض الرقم التى كان يتمرن فيها التلاميذ هى التى أبقى عليها الزمن وأصبحت فى أغلب الحالات مصدرنا الوحيد لدراسة بعض الوثائق الأدبية الهامة ، إذ كان فى المدارس رقم تحوى مؤلفات فى الأجرومية وقواميس للاصطلاحات وجداول

للعلامات الكتابية ، وكان فى استطاعة التلاميذ، أن يذاكروا الحساب والاجرومية فى الرقم التى فى المدرسة ، وكان يستطيع الواحد منهم أن يذهب إلى الرفوف التى توضع فوقها الرقم المختلفة ، فيجد أبحاثاً فى الطب ومعالجة الامراض التى كانوا يعتقدون أن السبب الاسامى لظهورها هو احتلال الشياطين والارواح الشريرة لجسم الإنسان .

وأراد أهل سومر وأكد أن يجدوا جواباً لما يطرأ على أذهان الناس فى أول جهودهم من تساول عن الموت والحياة ، فوضعوا قصصاً بسيطة تحدثوا فيها عن مخاطر الراعى « إتانا » عندما أصاب أغنامه العقم ولم تعد تلد له أحمالا صغيرة . صعد « إتانا » على ظهر نسر واتخذ طريقه نحوا السموات باحثاً عن عشب أصل



شكل ٦١ : اتانا يطير فى السماء

يجلس اتانا على ظهر نسر يطير وقد وضع ذراعه حول عنقه ونرى فوق اتانا فى يمين الصورة منظر القمر كما نرى فى الارض كلبين ينبحان وفى يسار الصورة نرى راعيا ومعه ثلاث عنزات ، وأمام العنزات يسير شخص آخر وقد رفع ذراعه ، وكلهم بما فيهم الحيوانات ينظرون مدهوشين نحو اتانا الذى رأوه باعينهم يطير فى السماء

وفى الجزء العلوى من الجهة اليسرى نرى فخاريا يصنع بعض الاوانى وأمامه خباز يصنع خبزا مستديرا .

وهذا الرسم مأخوذ من طبعة أحد الاختام فوق رقيم من الطين

الحياة . وبينما كان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق رغبته ، سقط ثانية على الأرض ، وهذه القصة هي أقدم ما عرفناه عن محاولة الإنسان للطيران .

وهناك قصة أخرى ، هي قصة صياد السمك « أداپا » الذي اشتدت به ثورة الغضب ، فكسر جناح آلهة الرياح الجنوبية عندما قلبت قاربه في الماء فدعاه إله السماء إلى عرشه وسأله عما حدث ثم رضي بعد ذلك عنه ، وقدم إلى « أداپا » خبز الحياة وماءها ، ولكن « أداپا » كان سيء الحظ فأعماه الغضب وملأت الشكوك نفسه فرفض أن يأكل ما قدمه الإله له ، وبذلك ضيع على نفسه وعلى بني الإنسان جميعاً فرصة الحصول على الكنز الأكبر وهو الخلود في الحياة . ولو أمعنا النظر في تحليل هذه القصة لوجدنا أنها محاولة لحل لغز الموت الذي يشغل دائماً ذهن البشرية ،

وهناك قصه أخرى ، هي قصة البطل « جلجَمِش » الذي خاطر وأتى أعمالا عظيمة ولكنه فشل أيضاً في الحصول على الخلود .

وفشل كل من حاولوا الوصول إلى سر الخلود ، اللهم إلا واحدا منهم فقط ، وقصته من القصص الغريبة ، نقرأ فيها كيف نجا هو وزوجته في فلك بعد الطوفان العظيم ، ثم أخذتهما الآلهة بعد ذلك إلى النعيم المقيم .

ولم يؤمل ملوك سومر وأكد في حياة سعيدة بعد الموت شأنهم في ذلك شأن عامة الناس ، لأن الخلود كان وقفاً على الآلهة دون سواهم .

وعرف العبرانيون فيما بعد بعض هذه القصص ، وخاصة ما كان يختص منها بخلق العالم وبالطوفان ، وزادوا على النص الأصلي بعض تعبيرات وتأثيرات من الحياة السومرية والحياة السامية ، ووجدت هذه القصص طريقها إلى كل من اللغتين السامية والسومرية .

وكانت أكثر هذه القصص تكتب باللغة السومرية القديمة التي كانوا يعتبرونها لغة لها قداستها ، واستمرت بينهم كلغة مقدسة مثل اللغة اللاتينية في وقتنا الحاضر

فى الكنيسة الكاثوليكية ، وبالرغم من زوال النفوذ السياسى للمدن السومرية فإن القصص الدينية ظلت تكتب باللغة السومرية قروناً عديدة بعد أن انصرف الناس عن الكلام بها ، وماتت من بينهم كلغة للتخاطب .

ووصلت الحضارة أثناء حكم ملوك سومر وأكد إلى أعلى مراتبها عندما امتزجت الحضارتان السومرية والأكدية، وأصبحتا حضارة واحدة لها طابعها المميز وهى ما نسميه الحضارة البابلية .

كان هذا العهد هو أعظم العهود فى تطور حياة الانسان فى سهل شنعار الذى كان عهداً مطبوعا بطابع التوسع التجارى . ولم ينس الناس فى مستقبل الأيام ما كانت عليه مدينة أور من فخامة ، وعظمة وعندما أخذ العبرانيون بأسباب الحضارة فى فلسطين كانوا يفخرون بأنهم من نسل إبراهيم الذى كانوا يعتقدون أنه كان من سكان مدينة « أور » عاش فيها فى أواخر أيام العصر الذى كنا نتحدث عنه .

الانتصار السامي الثاني - عصر حمورابي
« والعصر التالي له »

لم يكد يبدأ الألف الثاني ق . م . حتى سقطت مملكة سومر وأكد ولم تسترجع المدن السومرية بعد ذلك التاريخ مكانتها فى الزعامة السياسية .

ولم يكن القضاء على دويلة «أور» فى نهاية القرن الثالث والعشرين ق . م راجعاً إلى الحروب التى كانت بينها وبين الدويلات المنافسة لها فحسب ، بل كان راجعاً أيضاً إلى غزو أجنبي رزئت به البلاد من الشرق والغرب فى وقت واحد فقد جاء العيلاميون من الشرق واستولوا على المدن السومرية وأسروا آخر ملوك « أور » ونهبوا مقابر الملوك السابقين ، وجاء من الغرب قوم آخرون من الساميين ، وهم « العموريين » وبدأوا يغزون بلاد « أكد » وتمكن زعماء العموريين فى النهاية من فرض سلطانهم على بعض المدن فى الشمال ، وفى منتصف القرن الحادى والعشرين ق . م . نصب أحد هؤلاء الزعماء نفسه ملكا على بابل التى لم تكن حتى ذلك الوقت بلداً له أهمية سياسية كبيرة .

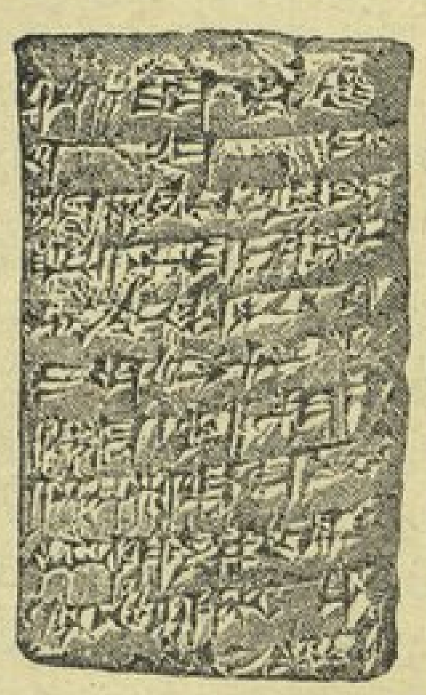
واستطاع هؤلاء الحكام أن يظلوا أصحاب السياسة مدى ثلاثة قرون وجعلوا من مدينتهم « بابل » فى النهاية مركزاً هاماً تجمعت فيه قوتهم الحربية وحضارتهم وأصبح اسمها علماً على سهل شنعار القديم الذى سمى منذ ذلك الوقت باسم « بلاد بابل » .

ولم يتيسر للملوك العموريين الأوائل الذين حكموا فى بابل ، الاستيلاء على كل بلاد سومر وأكد ، واستمر صراعهم مع العيلاميين وقتاً طويلا دون أن يحرزوا نصراً حاسماً عليهم .

وأخيراً جاء اليوم الذى تولى فيه العرش ملك يسمى « حمورابي » وكان ترتيبه السادس من ملوك بابل ، كان ملكا ممتازاً قضى السنوات الثلاثين الأولى من حكمه فى تدعيم مركزه فى الجزء الشمالى من بلاد بابل ، ثم التفت نحو الجنوب فانتصر على

الحاكم العيلامى الذى كانت مدن الجنوب تحت إمرته ، وبذلك أصبحت مدينة «بابل» فى عهده المدينة الأولى فى البلاد .

تولى حمورابى العرش فى عام ١٩٤٨ ق . م (١) وظل سبعة وخمسين عاما على



شكل ٦٢ : خطاب كتبه حمورابى ملك بابل

نرى في هذا الخطاب أثر السرعة فى الكتابة عندما أخذ الكاتب يحرر على الطين اللين ماكان يمليه عليه سيده الملك حمورابى ·

كانت أمثال هذه الرقم توضع في أفران لحرقها بعد كتابتها ثم تغلف بعد ذلك بطبقة أخرى من الطين يكتبون فوقها العنوان ، وكان ذلك الغلاف يكسره من يتسلم الرسالة ويرمى به لعدم الحاجة اليه

وفى هذا الخطاب يأمر الملك حمورابى أحد الحكام المحليين أن يستمع الى شكوى موظف يعتقد أنه مظلوم وأن القضاء لم ينصفه ·

---

١ ـ هذا هو التاريخ الذى فضله المؤلف · ولكن هناك آراء مختلفة فى تاريخ تولى حمورابى الملك ويرى « دلابورت » انه تولى الملك فى عام ٢٠٠٣ ق·م·
(Delaporte, Le Proche-Orient Asiatique, p. 120 3e Ed. 1948)
ولكن مورتجات وهو من أشد المؤمنين بالتقويم القصير الذى يقل بأكثر من مائتى سنة عن التقويم الطويل يرى أن تولى حمورابي للملك كان فى عام ١٧٢٨ ق·م·
Scharff-Moortgat, Aegypten und Verderasien in Altertuml, München 1950, p. 493
ولكن قبل مورتجات كان أولبرايت من المؤمنين بوجوب النزول بتاريخ حكم حمورابي الى عام ١٨٠٠ ق·م· بدلا من عام الفين (Albright, BASOR, 77, 1940).

العرش ، قضى منها الأعوام الاثنى عشر الأخيرة فى هدوء وطمأنينة بعد أن دانت له الأمور فالتفت نحو توطيد ذلك الملك فأثبت أنه بطل فى السلم ، كما كان بطلا فى الحرب ، وخلد اسمه فى التاريخ على أنه ثانى حاكم عظيم من الجنس السامى بعد الملك سرجون .

رمى حمورابى بناظريه إلى تلك المدن البابلية التى كانت تعج بالحياة وصمم على أن ينظم أمورها على صورة لم تعرفها من قبل فتم له ما أراد . وأهم المصادر التى أمدتنا بالمعلومات عن أعمال هذا الرجل العظيم ، هما أثنان ، يرجع تاريخ كل منهما إلى مايقرب من أربعة آلاف عام ، وأولهما مجموعة خطاباته ، وثانيهما اللوحة العظيمة التى سجل عليها قوانينه . فلأول مرة فى التاريخ نستطيع أن نعرف من تلك الخطابات دقائق الحياة المليئة بالعمل التى كان يحياها أحد الحكام الشرقيين فى آسيا . فترينا تلك الخطابات الملك حمورابى جالسا فى قاعة الحكم فى قصره فى بابل وقد جلس كاتم سره إلى جواره . وأخذ الملك يملى عليه ما يريده من رسائل فى جمل مقتضبة واضحة المعانى تحمل أوامره إلى ولاته الذين عينهم على المدن السومرية بعد أن أصبحت خاضعة له . فيأخذ كاتم السر قلمه من الكيس الجلد المعلق فى حزامه ويسطر له فوق الرقيم الصغير سطورا من الكتابة المسمارية . وبعد أن ينتهى الكاتب من عمله يرش الرقيم اللين بحفنة من التراب الجاف ليمنع الغلاف الطينى الذى يلف به من الالتصاق بالكتابة ، ويكتب بعد ذلك عنوان المرسل اليه ثم يبعث بالرقيم ليوضع فى الفرن .

ويأتى الرسل الى الملك بخطابات مماثلة ، يفتحها كاتم السر الذى يثق فيه سيده فيكسر الأغلفة أمام الملك ويقرأ بصوت مرتفع ما يبعث به موظفوه من جميع أنحاء المملكة . ويملى الملك ردوده فى الحال . فمثلا لقد فاض نهر الفرات وسبب بعض الخسائر وتوقفت الملاحة بين مدينتى « أور » و « لارسا » ووقف صف طويل من

السفن لا يستطيع السفر ، فيبعث الملك برده توا ، آمرا حاكم « لارسا » بتطهير المجرى فى الحال لتواصل السفن سيرها .

ويهتم الملك اهتماما خاصا بقطعان أغنامه ، وكأنما هى الغريزة البدوية مازالت فى دمه ، فيأمر الموظفين ليجيئوا إلى بابل للاحتفال بقص أصواف الأغنام فى فصل الربيع ، كأنما مثل هذا الحادث عيد من الأعياد الهامة .

ويتقدم التقويم شهرا كاملا عن الموسم المعتاد ، فيرسل الملك خطابا دوريا إلى جميع الحكام قائلا : « نظرا لظهور عجز فى السنة ، احتسبوا الشهر الذى يبدأ الآن أنه شهر أيلول الثانى » . ولكنه يلفت نظر الحكام إلى أن جميع الضرائب التى تكون مستحقة فى الشهر الثانى يجب أن تحصل ولا تؤجل إلى الشهر الذى يليه ، لأن تقديم الشهر يجب ألا يتسبب عنه أى تاخير فى الضرائب .

ويلفت الملك نظر جامعى الضرائب المتأخرين فى التحصيل ويذكرهم بشدة إلى ضرورة تأدية واجبهم ، والانتهاء منها دون أى تاخير . ويوافق الملك على توقيع العقاب السريع على موظف متهم بالرشوة ، ويمكننا أن نتصور الملك وقد اكفهر وجهه وهو يأمر باعتقال ثلاثة من موظفى باب قصره الذين غضب عليهم . وفى أكثر من مرة يذكر الملك حاكم « لارسا » بضرورة تنفيذ ما يصدر اليه من أوامر على أسرع وجه .

وكم من متظلم كان يأتى إلى الملك إذا أعياه نيل حقه على أيدى القضاة فى مدينته . فكان هؤلاء المتظلمون يأتون إلى حمورابى وهم واثقون من حسن معاملته ولا يرد أحدهم خائبا . وها هو رئيس خبازى المعبد ، تصدر اليه أوامر الملك بأن يسافر إلى مدينـــة « أور » ، ليعنى بأمر أحد الأعياد الدينية . ولكنه يتظلم من هذا السفر لأنه سيحرمه من وجوده فى بابل عند نظر قضية له ، ويرى حمورابى أن الرجل على حق فيأمر بتأجيل القضية .

ولا يقل اهتمام حمورابى بالشئون الدينية عن اهتمامه بإقامة العدل ، لأن كثيراً من خطاباته التى كان يمليها كانت تختص بممتلكات المعابد وإدارتها التى كان يظهر دائماً عنايته بها .

كانت عينه لاتغمض ولا تنام، مهتماً بكل شئون البلاد ، قوى الشكيمة ، سريع البت فى الأمور ، أدرك ذلك الملك أن الضرورة تقضى بتوحيد القوانين وقواعد المعاملات التجارية فى البلاد . وكان بعضها يتعارض مع البعض ولهذا جمع كل القوانين والمعاملات المدونة ، سواء أكانت لتنظيم التجارة أو الحياة الاجتماعية منذ أيام السومريين القدماء .

بوّب حمورابى تلك القوانين وأدخل عليها تحسينات وتعديلات كثيرة كما ألهمته حكمته ثم جمعها كلها فى مجموعة واحدة من القوانين. ولم يكتبها باللغة السومرية مثل بعض القوانين القديمة بل كتبها باللغة السامية التى كان يتكلم بها الأكديون والعموريون ، ثم أمر بنقشها على لوحة عظيمة من الحجر . نراه فى أعلاها يتلقى القانون من إله الشمس ، وضع هذه اللوحة وعلى صفحتها القانون الجديد فى معبد الإله العظيم « مردوخ » فى مدينة بابل ، وأبقى الزمن على هذه اللوحة حتى الآن ، وهى تحوى دون شك أقدم مجموعة من القوانين القديمة ، وكثيرا ما يعثر رجال الآثار على بعض أجزاء من قانون حمورابى مكتوبا على رقم كانت تحفظ فى قاعات المحاكم للرجوع اليها .

وينص هذا القانون على أن ينال الأرامل واليتامى والفقراء حقوقهم وألا يقع عليهم ظلم ، ولكن فى الوقت ذاته يحتفظ بكثير من الآراء القديمة التى تدل على بساطة القلب ، ومن أظهر ما فيه مبدأ معاقبة المعتدى بأن يوقع عليه الضرر الذى سببه . وهو مبدأ « العين بالعين والسن بالسن » ، وهو مبدأ ، كثيراً، ما تسبب فى الظلم عند تطبيقه تطبيقاً حرفياً . فمثلا إذا انهار منزل وقتل ابن الساكن فيه فإن عقوبة

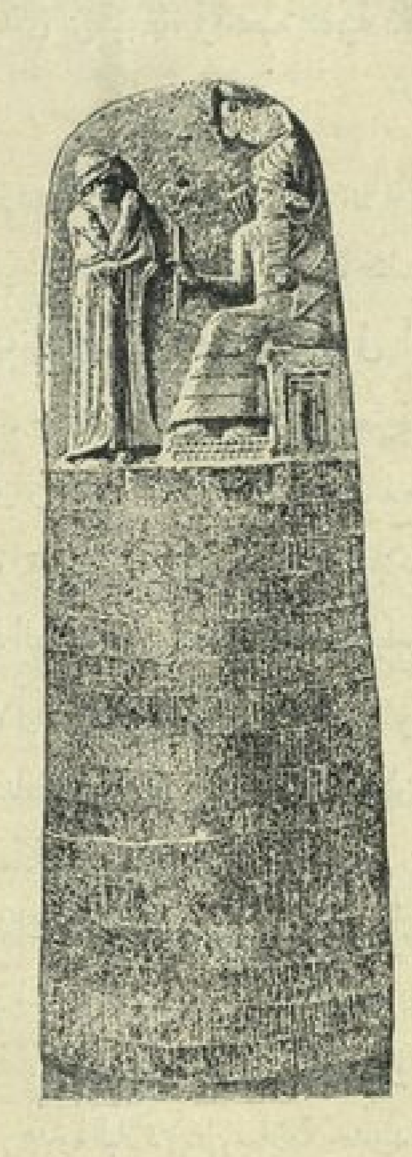
ذلك قتل ابن الشخص الذى بنى البيت، فيذهب ضحية ذلك شخص برىء هو الابن المسكين .

ورأى حمورابى ضرورة تنظيم أمور الزواج والاتفاق الشرعى بين الرجل والمرأة ، فأفسح لهذا الموضوع مكانا فى قوانينه . فاحتلت المرأة مكانا ممتازاً فى بلاد بابل القديمة - كما كان شأنها أيضاً فى مصر ، وكان فى استطاعة المرأة أن تمارس التجارة لحسابها الخاص ، وكان من بين النساء من احترفت مهنة الكتابة ، وكانت البنات تذهبن إلى المدارس لتلقى العلم جنباً إلى جنب مع الصبية .

وجاءت إصلاحات حمورابى بثمراتها فانتعشت البلاد انتعاشاً لم تعرفه من قبل . وكانت حاصلات البلاد الزراعية وخاصة الحبوب والبلح هى المصدر الهام للثروة ، ولكن كان لدى السكان أيضاً قطعان من الأغنام والماشية تمدهم بالجلد والصوف ، وأصبحت الأخيرة صناعة من الصناعات الهامة لأن الملابس الصوفية كانت منتشرة الاستعمال بين سكان آسيا الغربية .

كان أهل بابل فى ذلك العهد يصنعون آلاتهم وأسلحتهم من البرونز ، ولم يكونوا ليجهلوا وجود الحديد وإنما كان هذا المعدن نادراً إلى درجة لم تجعل له أى شأن هام فى الصناعة ، ولم يعم استعمال هذا المعدن إلا بعد ألف سنة أخرى .

وحافظ الجيش على هدوء البلاد وعلى سلامة حدودها ، وكانت قوافل الحمير التى تحمل تجارة البابليين تذهب من مدينة إلى أخرى ومن قوم إلى آخرين وهى آمنة مطمئنة . وكانت هذه الأسفار أمراً عادياً فى بلاد الفرات الأعلى فنشأت مراكز للتجارة ، وهذه مدينة من مدن الفرات أطلقوا عليها اسم « هرّان » أو « خرّان » وهى مشتقة من الكلمة البابلية « خرّانو » ومعناها « رحلة » . وكثيراً ما كانت بضائع التجار تملأ الأحواش مكدسة فى الغرائر ، وقد ميزوا كل حمل منها بلوحة صغيرة من الطين عليها اسم صاحبها . وكانوا يلقون بهذه العلامات التجارية عند



شكل ٦٣ : قوانين حمورابى - أقدم مجموعات القوانين

هذه القوانين منقوشة حول عامود من حجر الديوريت ارتفـاعه ثمانية أقدام تقريبا ومجموع الكتابة أكثر من ٣٦٠٠ سطر . وفوق الكتابة نرى حمورابى الى اليسار واقفا أمام اله الشمس الجالس فى الناحية اليمنى يتلقى منه القوانين

فتح تلك الغرائر ، ويعثر الحفارون على كثير منها الآن فى خرائب المدن ونرى على أحد وجهيها اسم التاجر وعلى الوجه الآخر طبعة الحبل الذى كان يحزم الغرارة .

ووصلت هذه العلامات التجارية وكشوف الحساب التى كانت تصحب الأحمال ، إلى مناطق بعيدة ، وكان يقرؤها التجار المحليون فى المدن السورية وفى البلاد الواقعة خلف ممرات الجبال فى الشمال . وهكذا أخذت الكتابة المسمارية البابلية تشق طريقها تدريجاً فى بلاد آسيا الغربية وبدأ تجار سوريا وكبادوسيا Cappadocia فى آسيا الصغرى يكتبون كشوف الحساب والمطالبات التجارية وخطاباتهم على الرقم كما كان يفعـــل البابليون . وانتشر نفوذ حمورابى التجارى فى غرب آسيا ، وظلت ذكراه بعد موته بأكثر من ألف سنة يرددها سكان سوريا وفلسطين فى أيام العبرانيين [١]

وأصبحت طبقة التجار قوية وكانوا يسمون فى بعض الأماكن «الحكام» ، ولكن المعابد ومالها من موارد عظيمة كانت مركز الحياة التجارية ، إذ كانت مهيمنة على أراض كثيرة ، وكانت لها تجارة واسعة كما كانت تقرض النقود فإن إقراض النقود كان أمراً عادياً ولكن أسعار الفائدة كانت مرتفعة ، إذ كان سعرها على قروض الفضة عشرين فى المائة فى السنة تدفع على أقساط شهرية ، ولما كثر تداول الفضة وأصبحت كثيرة فى أيدى الناس قلت قيمتها ، وأصبح استعمال الذهب قليلا ونادرا وكانت قيمته من اثنتى عشرة إلى خمس عشرة مرة من قيمة الفضة .

وصارت المصالح التجارية هى المصالح ذات الأثر الفعال فى الحياة البابلية ، بل ووصل أثرها إلى الدين أيضاً ، فكانت للمعابد ، كما ذكرنا ، مكانة كبيرة فى الحياة التجارية ولم تسع الديانة لمطالبة الأغنياء والأقوياء بما عليهم من حقوق للفقراء

---

١ — انظر سفر التكوين حيث ورد ذكر « امرافيل » والمظنون إنه تحريف لاسم حمورابى كما نطق به أهل غرب آسيا

والمساكين ويحتم علينا الإنصاف أن نذكر أن طقوس العبادة كانت تحوى بعض صلوات وأدعية اعترافاً بوجود فكرة الخطيئة وضآلة الإنسان ، ولكن كانت المنفعة الكبرى للديانة تتركز فى أن الانسان كان يستطيع أن يحصل من الآلهة على ما يريده من منافع حقيقية وأن يتجنب غضبها .

وظل الناس يعبدون الآلهة السومرية القديمة ولكن زعامة بابل السياسية مكنت سكان تلك المدينة من وضع إلههم السامى « مردوخ » فوق جميع الآلهة الأخرى ، وزجوا باسمه فى جميع الأساطير القديمة ، فظهر اسم « مردوخ » مكان اسماء بعض الآلهة السومريين القدماء الذين كانوا يلعبون أدواراً هامة فى تلك الأساطير .

وفى الوقت عينه احتلت الإلهة « عشتر » السامية مكانها كالالهة الرئيسية فى بابل ، وكانت « عشتر » العظيمة الهة للحب ، وانتقلت عبادتها بعد ذلك إلى بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وأطلق عليها اليونانيون اسم « أفروديت » .

ومن الأشياء التى منحها الآلهة موهبة التنبؤ بالغيب ، وكان هذا الفن يسمى التنجيم ، وكان الكاهن الذى يقوم به يطلقون عليه اسم المنجم .

ومنذ العصور القديمة ، فى عهد ملوك سومر وأكد ، كان المنجم الماهر يستطيع أن يفسر العلامات الغريبة فى كبد شاة تذبح كقربان ، وكان السائل يؤمن أن فى استطاعة هذا المنجم أن يحدثه عما يكنه له الغيب ، وكان فى استطاعة المنجم أن ينظر إلى أماكن النجوم والكواكب ويعرف منها ماذا أمر به الآلهة ليحدث فى مستقبل الأيام ، وأخذت هذه الأساليب فى فن التنجيم طريقها إلى الغرب فانتشرت فيه ، فكانت قراءة الأكباد أمراً شائعاً فى روما فيما بعد) وتطورت قراءة النجوم فيما بعد فى أيام الكلدانيين وصارت علماً قائماً بذاته هو علم التنجيم الذى كان أساساً لعلم الفلك .

ولم يكن من الميسور تمرين الناس على أمثال هذه الأعمال فى المعابد أو إعداد الكتاب للأعمال التجارية أو لإدارة الحكومة دون وجود المدارس التى كانت فى المعابد أو كانت ملحقة بها . وكشفت الأبحاث الأثرية عن بناء مدرسة من عهد حمورابى ، وعثر فى بقاياها على الرقم التى كان يتمرن فيها الصبية والبنات ملقاة على أرض الحجرات بعد أن ظلت فى مكانها قرابة أربعة آلاف سنة ، وفى هذه الرقم نرى كيف كان الطفل يقضى الوقت الطويل الشاق فى التعليم الذى كان يبدؤه بفهم وكتابة نحو ستمائة علامة مختلفة .

كان اللوح الذى يتمرن عليه التلميذ مصنوعاً من الطين اللين وكان باستطاعته أن يمحو ما كتبه إذا مر عليه قطعة من الخشب أو الحجر . وكان التلميذ يقبض على قلمه بين أصابعه ويخط سطورا طويلة من ضغطات مفردة ، يكتبها فى أوضاع ثلاثة أفقية ورأسية ومائلة ، فإذا ما تعلم ذلك وأصبح يجيد استعمال قلمه علمه مدرسه كيف يكتب العلامات التى كانت كل منها تتكون من أكثر من ضغطة واحدة ؛ وكانت الخطوة التالية بعد ذلك هى أن التلميذ يتعلم كتابة الكلمات ثم الجمل القصيرة ، ومما كان يكتبه هؤلاء التلاميذ القدماء حكم وأمثال قيمة ؛ وهذا واحد منها يبين قيمة تقدير البابليين لفن الكتابة : « إن من يتفوق فى كتابة الرُّقم سيضئ كالشمس » وبمثل هذا كانوا يشجعون الصبية أثناء عملهم الطويل الشاق فى تعلم الكتابة .

ولم يصل إلينا إلا القليل النادر من الأعمال الفنية أو المعمارية التى ازدهرت فى ذلك العصر ، ويرجع ذلك إلى تحطيم مدينة حمورابى التى لم يبق منها قالب طوب واحد فى مكانه ، ولكننا نعرف مما كشفت عنه الحفائر فى المدن الأخرى أن بعض القواعد المعمارية التى كانت معروفة فى عهد السومريين ظلت متبعة بعد أن دخل عليها شىء من التطور ، بل هناك ما هو أكثر من ذلك فإننا ما زلنا حتى الآن

نستعمل بعضها ، ولنضرب مثلا بالعقد الذى رأينا أنه كان معروفاً فى مدينة « أور » وأنهم استعملوه فى بناء مقابر ملوكها الأوائل . وكذلك المصارف المقبية التى ظهرت فى العصر الأكدى . وفى عهد ملوك سومر وأكد كانت بوابات المنازل الخاصة مبنية على طراز العقد ، فلما جاء عصر الإمبراطورية الأشورية أصبح للعقد شأن بارز فى هندسة واجهة القصر الملكى .

كان أهم تجديد معمارى فى العهد المبكر للمملكة البابلية هو انتشار المعبد ذى البرج ، ومع ظهور هذا النوع من المبانى ظهرت أيضاً فكرة تزيين الأسوار ببناء دعامات لها على مسافات متقاربة منتظمة بحيث تبدو فيها نتوء يليه انخفاض ثم نتوء وهكذا (recessed panel) ، وكان هذا الطراز معروفاً للبنائين فى بلاد الرافدين منذ عهد السومريين ، كما نراه أيضاً فى مبانى الطوب لدى كثير من شعوب الغرب .

وأقام البابليون الأول أعمدة من الطوب أو الخشب غطوها بالفسيفساء ، ولكنهم لم يكثروا من الأعمـــدة بوجه عام بل كان استعمالها محدوداً فى طرزهم المعمارية .

ولم يخلف عصر حمورابى وراءه رسوماً أو تماثيل فنية كثيرة . فنحن نرى النقش المرسوم على الجزء العلوى من قانون حمورابى على حجر الديوريت ويمثل الملك وهو يتلقى القوانين من إله الشمس ، فنرى كيف نجح الفنان فى إعطاء هذا النقش مسحة من الهيبة والتأثير ، ولكننا نرى أيضاً أن البابليين كانوا يلفون أجسامهم فى ملابس صوفية ثقيلة ولهذا لم يتيسر للمثال الفرصة لإظهار محاسن الجسم الإنسانى .

وإذا أردنا التحقق من نجاح المثالين فى إعطاء صورة صحيحة للشبه فإننا لا نستطيع ذلك ، لأن تماثيل الأفراد تكاد تكون متماثلة لافرق بين واحد وآخر . وتضاءلت أيضاً دقة صناعة الأختام بعد أن بلغت أوجها فى عصر الملك سرجون

وبالرغم من الإقبال على هذه الأختام كسلعة تجارية فإن صناعتها فى عصر حمورابى كانت قد بدأت فى الانحطاط .

وكان هذا الانحطاط فى الفن نذيراً لما كان على وشك الحدوث ، فإن الأمة البابلية التى أحسن حمورابى تنظيمها لم تكد تعمر طويلا بعد وفاته ، فقد نزل قوم غزاة من الشرق على سهل بابل ؛ وكان وفودهم تدريجياً فى هجرات متتالية إلى بلاد الهلال الخصيب وخاصة بعد عام ١٩٠٠ ق.م . واستقروا أخيراً فى بابل . وهؤلاء القوم هم « الكاسيون » الذين لم يستطع خلفاء حمورابى صدهم .

وفى الوقت الذى زاد فيه عدد السكان الكاسيين [١] إلى درجة كبيرة منيت بلاد بابل لسوء حظها بغزاة آخرين جاءوا من الشمال الغربى وتقدموا جنوبا فى محاذاة نهرى الدجلة والفرات حتى احتلوا بابل ونقلوا ما غنموه منها إلى بلادهم .

هؤلاء الغزاة هم « الحيثيون » الذين لم يقصدوا من غزوهم لبلاد الرافدين احتلالها أو استيطانها بل نهبها فى هجمة سريعة عادوا بعدها إلى بلادهم وقد قضوا على آخر ملك من نسل حمورابى .

فلما انسحب الحيثيون من بلاد بابل ، وكان ذلك حوالى ١٧٥٠ ق.م لم يجد الكاسيون صعوبة فى فرض سيادتهم على البلاد ، وكان انتصارهم إيذاناً بزوال تقدم البابليين فى حضارتهم . وهوت بابل إلى الحضيض وظلت فى غفوتها دون أن تفيق حتى ظهرت كلديا على صفحة التاريخ . وهكذا انتهى أول الفصول العظيمة فى تاريخ بلاد النهرين ، أما الفصل الثانى فإن مسرح حوادثه لم يقع فى بابل بل انتقل شمالا إلى المنطقة التى تعرف باسم « أشور » ، والتى كانت أثناء حكم مملكة بابل إحدى الدويلات الصغيرة ثم أخذت تتقدم حتى وصلت فى النهاية إلى أن تكون قوة عالمية.

---

١ — من المحتمل أن يكون الكاسيون هم الذين أحضروا كثيرا من الخيل معهم الى بلاد بابل . ويجب الا يغيب عن أذهاننا أن الخيل لم تظهر فى مصر الا بعد ذلك الوقت ببضعة قرون .

الفصل السادس

آسيا الغربية : الآشوريون والكلدانيون

بلاد أشور القديمة ومنافسوها الغربيون

يحملنا الفصل الثانى من تاريخ بلاد الرافدين إلى أعلى النهر ، فنترك بابل ونذهب إلى الزاوية الشمالية الشرقية من تلك الصحراء التى تحيط بالهلال الخصيب ، فنجد هناك مرتفعا من الأرض يسهل الدفاع عنه ، ذا موقع منيع ، لايتيسر للمدن التى تحيط بها الأرض المسطحة ، فى سهل شنعار .

تلك هى المنطقة التى يحدها نهر دجلة فى الشرق ، وتشرف على الصحراء فى الغرب والجنوب ، وكان اسمها أشور (Assur) ومن ثم أصبح اسم المملكة كلها أرض أشور (Assyria) فيما بعد .

ونظرا لوقوع أشور فى منطقة جبلية مرتفعة فإنها كانت تتمتع بجو أصح من جو بلاد بابل الحار . وكان فيها أودية خصبة التربة تمتد بين ثنايا الجبال الشرقية والشمالية حيث كانت توجد بعض مدن تتنافس فيما بينها . وفى هذه المنطقة نرى مرتفعات جبلية كانت محاجر صالحة لقطع الحجر الجيرى والمرمر وغيرها من الأحجار الصلدة ، وفى هذا الأمر اختلفت أشور كثيرا عن بابل التى لم يكن بها أحجار للبناء ولهذا اقتصرت فى عمارتها على البناء بالطوب اللبن .

كانت تلك الأودية الشرقية خضراء بما فيها من المراعى وحقول القمح والشعير ، وكانت قطعان الماشية والضأن والماعز تنتشر على جوانب التلال ، وكانت الحمير هى الحيوانات الأساسية لحمل الأثقال والانتقال من مكان إلى آخر ، لأن الحصان لم يكن قد عرف فى ذلك الوقت ، وهنا ـ فى هذه المنطقة ـ عاش السكان على الزراعة وتطورت حياتهم فى ظلالها ، ولكن لم يمنع ذلك سكان بلاد أشور من أن ينشئوا

قبل مضى وقت طويل بعض الصناعات ويؤسسوا الصلات التجارية .

لم يكن سكان هذه المنطقة الواقعة إلى الشمال من بلاد بابل من الأصل السامى جميعا بل كان يعيش بينهم أقوام يتكلمون لغات غير سامية ومن أجناس غير سامية فى الألف الثالث قبل الميلاد كان يعيش فى المكان الذى تقوم فيه مدينة أشور بلدة سومرية عثر على آثار أهلها هناك ، وفى الوقت عينه كان أجداد القوم الذين يسمون الأشوريين يعيشون أيضاً فى تلك المنطقة ولكننا لا نعرف من أين جاءوا ولا نعرف إن كانوا من الجنس السامى أو من جنس غيره ، ولكننا نعرف أنهم كانوا يتكلمون فيما بينهم لغة سامية قريبة من اللغة التى كان يتكلمها أهل أكد حيث قامت أول مملكة سامية قوية فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد بقيادة الملك سرجون .

وبدأت أشور كغيرها من جاراتها السامية فى الجنوب دويلة مستقلة وكانت متأثرة بالحضارة السومرية ، واتصلت بغيرها من مدن السومريين ، وكتبوا لغتهم بالكتابة المسمارية ، كما أثرت بلاد سهل بابل على سكان أشور فى فنون النحت والعمارة .

نرى من ذلك أن أكثر مظاهر الحضارة المبكرة فى أشور جاءت إليها من الجنوب ، ولكن يجب ألا ينسينا ذلك أنها كانت معرضة أيضا لتأثيرات من الشمال ومن الغرب ، فمنذ منتصف الألف الثانى ق . م . ظهر فى آسيا الصغرى أقوام من الحيثيين محبون للحرب، اتجه بعضهم شرقاً إلى بلاد النهرين . وليس بمستبعد أن أشور كانت إذ ذاك فى مهب الرياح فتارة تخضع لغزاة من الغرب، ثم لا تلبث أن تقع تحت حكم الدويلات الجنوبية التى تزعمها سرجون ثم ملوك أور ثم حورابى أو غيره من حكام بابل .

وعلمت هذه الحروب المستمرة أهل أشور كيف يحمون حدودهم فى الشمال

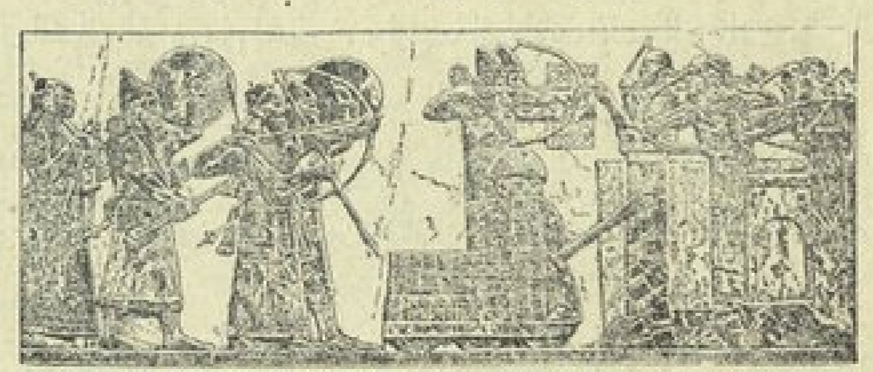
والجنوب بعد أن ظلوا نحو ألف عام منذ أن استولى سرجون على بلدهم ، ولسنا ندهش بعد ذلك إذا رأينا الدولة الجديدة تبنى نفسها على أساس حربى فقد كان هناك الجنود غير النظاميين ثم حل محلهم جيش دائم أصبح القوة الرئيسية للحكومة ، وتطورت هذه الدولة الحربية إلى تنظيم قوى ثابت لم تؤثر عليه المنافسات التى كانت بين الدويلات ، تلك المنافسات التى أضعفت مملكة بابل ثم انتهت أخيرا بالقضاء عليها .

وبعد أن زال كل أثر للمنازعات صار فى استطاعة مملكة أشور أن توجه جميع قواها التى توحدت للقضاء على أعدائها الخارجيين ، وساعدهم على ذلك أنهم كانوا قد استخدموا الخيل ثم المركبات فى جيشهم ؛ وفى النهاية أصبحوا أعظم قوة حربية رآها العالم القديم .

وفى نفس الوقت أغدقت التجارة ، وصلتهم بالشعوب المجاورة ، الأموال والقوة على الأمة الناشئة . وكانت قوافل تجارتهم تذهب إلى آسيا الصغرى (كليكيا) لأنهم أحبوا الاتجار فيما تدره مناجم الفضة ، وعرفوا بذلك طرق التجارة فى البلاد الواقعة إلى الغرب منهم وأصبحت أشور مركزا هاما على طريق القوافل الذى ربط بين البلاد الجبلية إلى الشرق منهم وبين البلاد الواقعة إلى الغرب منهم . وكان التجار الأشوريون قد حذقوا أساليب التجارة التى وصلت بها دويلة «أور» إلى مستوى عال فى عهد ملوك سومر وأكد . وعاش كثيرون من تجار بلاد النهرين فى محلات أسسوها فى أماكن متعددة فى جنوب شرقى آسيا الصغرى فى المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم «كاپادوسيا» Cappadocia حيث كشفت الحفائر عن عدد كبير من الوثائق التجارية فى هيئة رقم مكتوبة باللغة المسمارية شبيهة برقم أشور ، ونعرف من هذه الرقم أن لهؤلاء التجار الغرباء الذين وفدوا من الشرق كان قد مضى عليهم أكثر من مائتى سنة فى تجارتهم فى كاپادوسيا أى أنهم بدأوا فى الوقت الذى زادت فيه سطوة ملوك سومر وأكد . سنرى فى الفصول القادمة كيف لعبت هذه المراكز التجارية

دوراً هاماً فى حمل الحضارة ونشرها فى البلاد الواقعة إلى الغرب ، فنى كثير من المدن التى فى جنوب شرق آسيا الصغرى نجد رقم التجار الاشوريين ، وهذه الرقم أصبحت فى دراستنا بمثابة علامات توضح لنا الطرق التى سارت فيها الحضارة من بلاد الرافدين متجهة نحو جنوب شرقى أوروبا .

وأدى استغلال مناجم الفضة فى كليكيا خدمة كبيرة للتجارة والمعاملات وأثر عليها أثراً كبيراً لان الفضة حلت محل الحبوب كوسيلة للتبادل ولدينا ما يثبت أن بعض القطع المعدنية كانت مختومة بما يدل على وزنها وربما مكان اصدارها أيضاً . وفى نص من النصوص يقارن الامبراطور الاشورى سنحاريب



شكل ٦٤ : ملك اشورى يهاجم احدى المدن المحصنة (القرن التاسع ق.م)

يرجع تاريخ هذا الرسم البارز الى القرن التاسع .ق.م. ونرى فيه كيف وفق الاشوريون الى أجهزة الحصار . ونرى على اليمين مدينة تحميها أسوار مبنية بالطوب اللبن . ويبذل الرماة الذين يدافعون عن المدينة جهدا كبيرا فى صد هجوم منجنيق محمول على مركبة ذات عجلات ، ولا نرى فى الصورة من تلك العجلات الا الجزء الاسفل أما باقيها فانه مغطى بصفائح المنجنيق . وهذه الآلة الحربية ليست الا «دبابة» قديمة يحمى مقدمتها لوح من المعدن وفى الجزء الامامى منها برج للهجوم يكاد يصل ارتفاعه الى ارتفاع أسوار المدينة ويهاجم الجنود الاشوريون الذين فى البرج أعداءهم ويرمونهم بما لديهم من سهام بينما يحرك الجنود الاخرون الذين فى داخل الدبابة ذراع المنجنيق المصفح بالمعدن ليحدثوا به ثغرة فى السور . ويحرك عمليات الهجوم ضابط يجلس فى برج المراقبة الذى يعلوه قبة مصفحة بالمعدن وفى تلك القبة طاقات صغيرة لينظر منها . وفى المؤخرة نرى الملك الاشورى يطلق سهامه على المدينة .

وهذا الرسم من أقدم الرسوم التى وصلت الينا من قصور ملوك أشور . وهذا هو السبب فى أن الفنان لم يراع النسب فى الرسم ، وغالى مغالاة الاطفال فرسم الرجال وكأنهم بلغوا فى الطول أسوار المدينة .

الذى عاش فى القرن السابع ق . م صب بعض النقود البرونزية ، بصب قطع وزن كل منها نصف « شكل » مما يدل على أن الأشوريين كانوا يسكون القطع ذات نصف الشكل قبل سنحاريب ، وتلك القطع كانت دون شك الأصل السابق لعملتنا النقدية .

كانت أشور تعلق أهمية كبرى على صلتها بالغرب ، فلم تكن فى حاجة إلى المعادن فى تلك البلاد فحسب بل أنها لم يكن فى استطاعتها أن تحكم آسيا الغربية ، وهى دولة لاشواطىء لها ، إلا إذا وصلت إلى البحر الأبيض المتوسط . ولكن كانت هناك عقبتان تحولان بين أشور وبين ذلك البحر ، أولاهما مملكة ميتانى التى كانت إلى الشمال الغربى من أشور ، وثانيهما الولايات الغنية التى كانت تهتم بالتجارة وكانت تحكم موانى الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط .

ويجدر بنا أن نتحدث باختصار عن هاتين العقبتين لأن ذلك يكشف لنا عن حركتين كبيرتين لقومين من جنسين مختلفين ، كان وجودهما سببا فى توجيه تاريخ العالم المتمدن .

تكونت الطبقة الحاكمة فى ميتانى من مجموعة من قوم جريئين يحتمل أنهم كانوا بدوا نزلوا من المراعى الشمالية وكانوا أحفاداً لأوائل الناس الذين تعلموا تربية الخيول ، إذ عرف أولئك الأجداد كيف يربون الخيول ويمرنونها على الحرب وعلى جر المركبات الحربية قبل أن يترك أحفادهم بلادهم فى الشمال وينزلوا إلى الهلال الخصيب ، ولهذا كان ميسورا لبعض فرسانهم المهرة أن يندفعوا جنوبا أو غربا ويهزموا من وقف فى طريقهم من سكان منحنى نهر الفرات ، واهتم أولئك الناس بتربية الخيول إلى درجة أن أحد الفرسان الذين اشتهر أمرهم بينهم واسمه كيكولى Kikkuli كتب مؤلفا لمن يربى الخيول ، وقد عثر فى عاصمة خيتا على جزء من هذا المؤلف على رقم من الطين ، وهو دون شك أقدم ما وصل إلى أيدينا من مؤلفات عن تربية الخيول .

وظلوا فى أرض الفرات يحكمون البلاد ، وكانوا أقدم أرستوقراطية بناها أهلها على تربية الخيول ، وفى النهاية جعل فرسان ميتانى من أمتهم ولاية حربية لها خطورتها .

كان استخدام الجواد بدءاً لعصر جديد فى بلاد الهلال الخصيب ، فعندما كانت تهجم فرقة من العربات تجرها الجياد القوية السريعة وتنزل كالصاعقة على الجنود المشاة فإنهم كانوا يتفرقون كأوراق الخريف ، وهكذا استطاع حكام ميتانى بواسطة مركباتهم الحربية أن يصلوا فى انتصاراتهم فى الشمال الغربى إلى اختراق حدود « خيتا » .

ولم تقف أهمية ميتانى إلى ذلك الحد بل إن موقعها الجغرافى ساعدها على الوصول إلى أهداف أخرى . فإنها كانت ملتقى الطرق التجارية ودروب القوافل التى تبدأ من أشور وتعبر الفرات فى طريقها إلى الغرب . فلم يكن موقع ميتانى يجعلها عقبة كأداء فحسب بل إن ذلك ساعدها على غزو بلاد أشور فاحتلتها ، وكان الأشوريون مدى فترة من الزمن خاضعين لحكمها .

لم يكن الزعماء الميتانيون — بما لديهم من قوة لاستخدامهم الخيل — إلا فى الطليعة لهجرات كبيرة قام بها الأقوام الهندو — أوروبيون متجهين نحو الجنوب ونحو الغرب وانتشروا من الهند حتى الجزر البريطانية .

ونحن نعلم أن شعب ميتانى كان يحكم فى منتصف الهلال الخصيب حوالى عام ١٥٠٠ ق . م . وأن الميتانيين كانوا شعباً يمت بأصله إلى الدرجة التى تتفرع منها بعض الشعوب الأوروبية وأنهم كانوا يتكلمون لغة قريبة الشبه ببعض لغات أوروبا .

واستقر بعض القبائل الهندو - أوروبية فى آسيا الصغرى بين الاناتوليين القدماء ، أما الميتانيون أنفسهم فكانوا سداً منيعاً فى وجه تجارة أشور نحو الغرب مدى

قرن من الزمان بل ووصل بهم الأمر أن أوقفوا توسع أشور بوجه عام .

أما العقبة الثانية فى توسع أشور نحو الغرب فهى وجود سلسلة من المدن الفينيقية على الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، ووجودهم فى تلك المنطقة هو أقدم مظاهر تجمع الأجناس الذى كان السبب الرئيسى فى تشكيل التاريخ الإنسانى ابتداء من ذلك الوقت ، إذ نرى الهندو - أوروبيين فى الشمال والساميين فى الجنوب وبينما كانت أقدم النقط الأمامية للشعوب الهندو — أوروبية كانت فى مملكة خيتا فى آسيا الصغرى وفى بلاد ميتانى على الفرات ، نرى أن توسع الساميين أوصلهم إلى الشواطىء الشرقية للبحر الأبيض المتوسط إذ أصبحت موانى ذلك البحر التى كانت يوماً من الأيام فى أراضى البدو الساميين قد أصبحت سلسلة من الدويلات الغنية ذات التجارات الواسعة فى البحار ، ومكنتهم أساطيلهم من أن يصبحوا من ذوى الزعامة التجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط كله ، وأثبتت تلك المدن الفينيقية أنها عدو لملوك أشور لايستهان به .

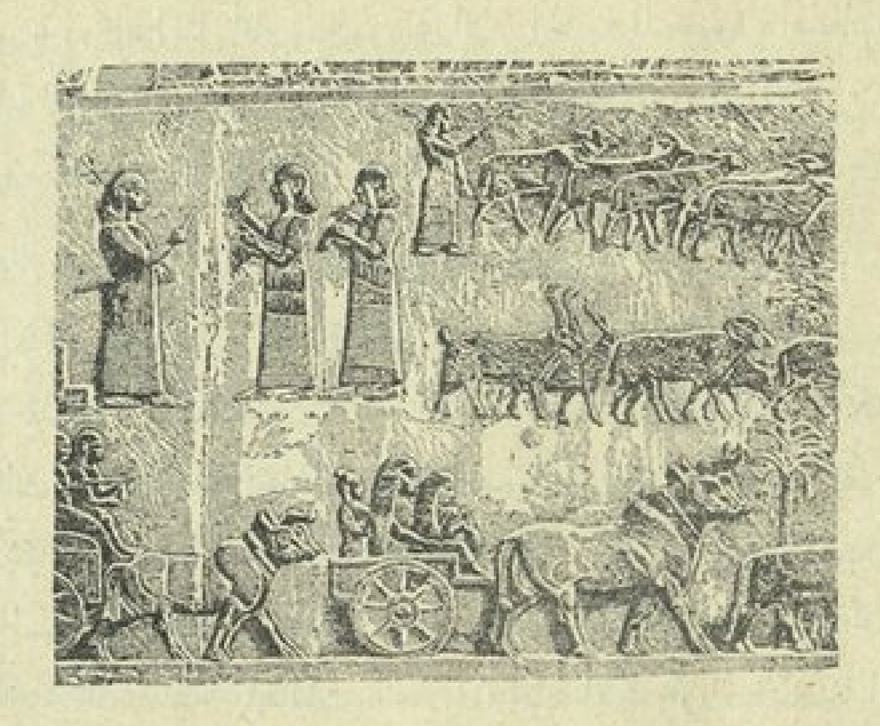
وبعد القرن السادس عشر ق . م . كان على الأشوريين أن يواجهوا الأخطار الناجمة عن هجرة جديدة لأقوام ساميين سواء فى الناحية التجارية أو فى الناحية السياسية .

وأعظم هؤلاء الأقوام أثراً هم « الأراميون » الذين نراهم حوالى عام ١٢٠٠ ق.م. قد أسسوا عدداً من الممالك المزدهرة فى الغرب وخاصة فى سوريا [١] ، واستطاعت تلك أن تبنى مدناً ملكية ذات قصور فخمة بما تيسر لها من أثر الحضارة الحيثية من جهة والحضارة المصرية من جهة أخرى . وإلى جنوبى المنطقة التى اســـتقر فيها الأراميون ، أى فى فلسطين كان قوم ساميون آخرون — وهم العبرانيون — بدأوا

---

١ — كثيرا مايسمى الاراميون بالسوريين ، وتسمى المنطقة الواقعة شمال فلسطين عادة باسم سوريا ، وعلى أى حال يجب الا تخلط كلمتى « سوريا وسوريين » (Syria, Syrians) بكلمتى « اشور واشوريين (Assur, Assyrians)

يحتلون الاراضى ويستقرون فيها . وفى أوائل سنى الالف الاول ق. م. كان الأراميون والعبرانيون ، ومعهم الفينيقيون الذين على الساحل احتلوا الجزء الأكبر من الطرف الغربى للهلال الخصيب وباعدوا بين بلاد أشور وبين ساحل البحر الابيض المتوسط .



شكل ٦٥ : كتاب أشوريون وأراميون يسجلون الغنائم المستولى عليها من احدى المدن الاسيوية (القرن الثامن قبل الميلاد)

يركب الاسرى من نساء وأطفال فوق عربات تجرها الثيران فى طريقهم الى الرق فى بلاد أشور ، ويسوق أحد الرعاة القطعان التى استولوا عليها · والى اليسار يقرأ ضابط أشورى من رقيم فى يده ، مذكراته عن الغنائم التى استولوا عليها فى المدينة ، ويقف أمامه كاتبان يدونان مايقول · ويمسك أول الكاتبين فى يده بلوح سميك من الطين (= رقيم) رفع منه القلم الذى يقبض عليه بين أصابع يده اليمنى · أما الكاتب الثانى فانه يفرد فوق يده اليسرى قرطاسا من البردى يكتب عليه بقلم فى يده اليمنى · وهذا الكاتب الثانى أرامى يكتب باللغة الارامية بالقلم والحبر · ويمثل هذان الكاتبان طريقتى الكتابة اللتين كانتا سائدتين فى ذلك العهد فى غرب آسيا ، احداهما الطريقة الاسيوية وهى الكتابة على الرقم التى كانت فى طريقها الى الزوال والثانية الطريقة المصرية أى استعمال الورق والحبر والقلم التى أخذت تعم العالم ·

وامتد نشاط التجار الأراميين إلى خارج بلادهم ، وذهبت قوافلهم إلى جميع البلاد الواقعة على الخليج الصحراوى حتى وصلوا إلى منابع نهر الدجلة وأخيراً أصبحت تجارة غرب آسيا فى أيديهم . وكثيراً مايعثر الباحثون على وزناتهم البرونزية بين خرائب نينوى مما يدل على وفرة عدد التجار الاراميين فى الاسواق الاشورية ، وكانوا مثل أقاربهم اليهود فى الامم الحديثة المتحضرة ، أصحاب النفوذ والزعامة التجارية فى عصرهم ولكن اليهود الحاليين يختلفون عن الآخرين فى أنهم يعيشون كأمة واحدة مثل الاراميين .

كان الاراميون جنسا ذا حظ عظيم من الحضارة . وفى عام ١٠٠٠ ق . م . بل وربما قبل هذا التاريخ بعدة قرون — كانوا يستعملون كتابة ذات حروف أبجدية تعلموها من الكنعانيين أو الفينيقيين ، وهـــذه أقدم أنواع الكتابة التى استعملت حروفاً أبجديه فقط[١] وتعلم الاراميون من المصريين استعمال القلم والحبر وهى أشياء لاغنى عنها فى استعمال الابجدية الجديدة . وكما كانت قوافل البابليين تحمل الرقم المسمارية إلى جميع بلاد آسيا الغربية ، فإن قوافل الاراميين بدأت تحمل إلى كافة أنحاء تلك المنطقة المطالبات التجارية والإيصالات محررة بالابجدية الجديدة التى أخذت تحتل مكان العلامات المسمارية ،

وهكذا انتشرت الأبجدية الفينيقية — الأرامية فى جميع بلاد آسيا الغربية ، وذهبت من الفرات إلى إيران بل وصلت إلى حدود الهند وأمدت شعوب شرق الهند بالأبجدية السنسكريتية (Sanskrit) وبهذا كان للأراميين فضل نشر تلك الأبجدية الشرقية الأصل فى كتابات جميع أبجديات الأمم المتحضرة الواقعة إلى الغرب من بلاد الهند .

---

١ — كان هذا صحيحا قبل اكتشافات رأس شمرا فى شمال سوريا (المعرب)

وحمل التجار الآراميون لغتهم (اللغة الآرامية) معهم أينما ذهبوا فانتشرت تدريجياً حول الخليج الصحراوى ، ومن الحقائق الهامة أن اللغة الآرامية انتشرت فى المدن الآشورية القديمة حتى أصبح المتكلمون بها أكثر عدداً ممن يتكلمون اللغة الآشورية نفسها .

وعندما كان يتلقى تاجر آرامى رقيما عليه بعض مايتعلق بعمله التجارى محرراً باللغة الأشورية ، فكثيراً ماكان يمسك بقلمه ويخط عليه مذكرات بالآرامية ، وقد عثر الأثريون على كثير من هـــذه الرقم الأشورية التى خط عليها أصحابها مذكرات بالآرامية فى خرائب المبانى الأشورية ، وانتهى الأمر بأن اللغتين الأشورية والآرامية أصبحتا تستعملان جنباً إلى جنب فى الأعمال التجارية ، واستخدمت الحكومة عدداً من الكتبة الآراميين فى الوظائف ، وكان من الأمور المألوفة جداً أن يرى الإنسان موظفاً آرامياً فى الحكومة الأشورية ، يكتب سجلاته على البردى يسطر مايشاؤه بالقلم والحبر بينما يكتب زميله فى العمل سجلاته على رقيم من الطين .

وأخيراً أصبحت الآرامية لغة الهلال الخصيب كله ، وحلت أيضاً محل اللغة العبرية فى فلسطين . وهى لغـة شقيقة ومشابهة للآرامية — وأصبحت لغـة التجار الآراميين بعد مضى عدة قرون اللغة التى كان يتكلمها السيد المسيح ويهود عصره فى فلسطين . ووصلت هذه اللغة أيضاً إلى بلاد خيتا إذ عثر فى ساردس (Sardes) فى غرب آسيا الصغرى على شاهد قبر عليه نقش باللغة الآرامية ، وفى نهاية الأمر انتشرت حضارة الآراميين التجارية انتشاراً واسعاً وتركت وراءها مؤثرات خلدت على الأيام أكثر مما تركته دولة أشور الحربية

ومما يدعو إلى الأسف أن أكوام المدن الآرامية فى سوريا لم يتم حفرها كلها بعد ، ولهذا لم يصل إلى أيدينا إلا آثار قليلة لتحدثنا عن تاريخ تلك المدن

وما زالت دمشق حتى الآن أعظم المدن السورية إذ يبلغ تعداد سكانها أكثر من ثلاثمائة ألف شخص ، ولكن بقايا المدينة الآرامية ما زالت تحت بيوت المدينة الحالية ومن المستبعد جداً أن يكشف أحد عن دمشق القديمة .

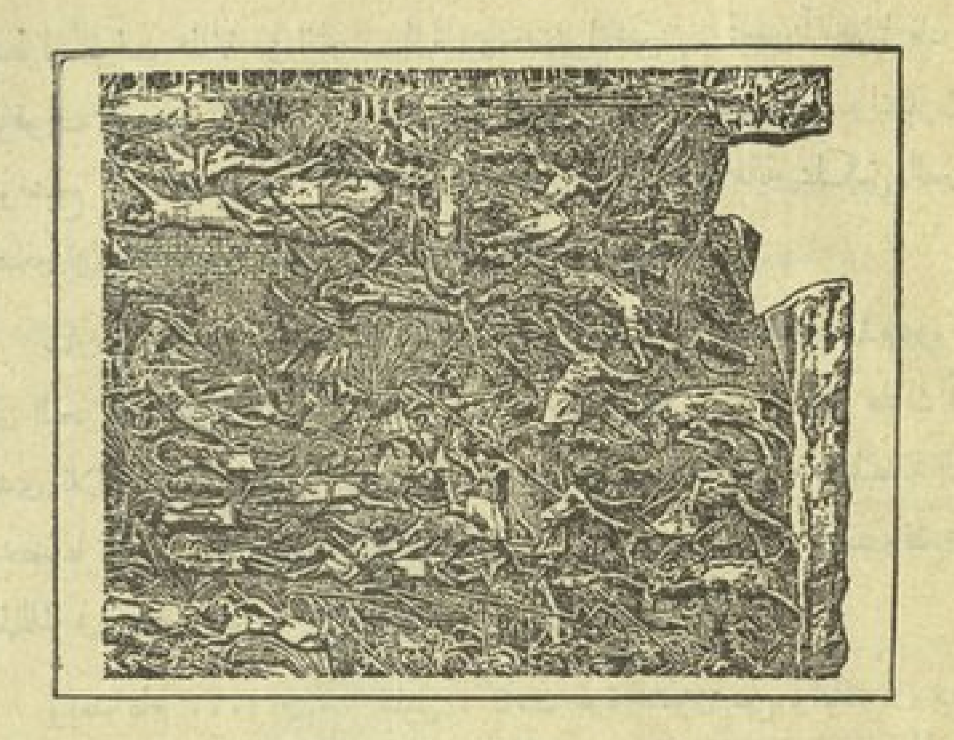
ونحن نفهم الآن كيف وقف الجيش الأشورى ينظر إلى تلك الصفوف المتراصة من الدول المعادية ، وكيف رأى نفسه فى موقف يفت فى عضد أية أمة مهما تحلت بالشجاعة ، فكان أمامهم مباشرة حكام ميتانى ثم الآراميون والفينيقيون ، وخلف هذه الشعوب قوتان عظيمتان ، مصر فى الجنوب الغربى وخيتا فى الشمال الغربى .

ففى القرن الخامس عشر ق . م . كانت الأمبراطورية الحيثيه منافساً قوياً لمصر ، ووقف الأشوريون ينظرون إلى الصراع بين هاتين القوتين على امتلاك الطرف الغربى من الهلال الخصيب إلى أن انتهت المعركة بينهما فى القرن الثالث عشر ق.م. دون نصر حاسم لأحدهما .

ورأى الاشوريون كيف أنهكت الحروب قواهما ، وما جاء عام ١٢٠٠ ق.م. حتى ضعفت كل منهما وزاد فى ضعفهما غزو آخر جديد هدد كلا منهما فانهارت أمبراطورية خيتا وتلتها الأمبراطورية المصرية بعد نصف قرن من الزمان .

ورأت ميتانى فى البداية أن مصلحتها تقتضى انضمامها إلى جانب مصر ولكنها لم تحتمل الثبات فى مهب المنازعات الدولية الكبيرة وانتهى الأمر بسحقها ، وكان المتنافسون فى حلبة الشرق الأدنى ثلاثة هم مصر وأشور وخيتا ، وكان تنافس ثلاثتهم قويا عنيفا ، ولم يات عام ١١٥٠ ق.م. حتى كانت القوتان الغربيتان قد انسحبتا من الميدان تاركتين أشور وحدها لتصبح الوارثة لأمبراطورية الشرق .

وبعد أن سقطت كل من ميتانى ومصر وخيتا . بقى الفينيقيون والآراميون وجها لوجه أمام أشور . وكانت دمشق مقر الملوك الآراميين الأقوياء الذين



شكل ٦٦ : جنود أشوريون يطاردون أعداء هاربين وصلوا الى مجرى ماء

يملأ مجرى الماء النصف الايمن من هذا الرسم وقد ميزه الفنان الاشورى بما رسمه فى أرضيته من أسماك وموجات ، وما كان يعوم على سطح الماء من جعاب وسهام جنبا الى جنب مع جثث جوادين ، نرى أحدهما عائما على ظهره وقد ارتفعت أرجله فى الهواء · ونرى أيضا جثتى رجلين حملهما التيار وفى أجسادهما غرست السهام · وهناك ثلاثة من الاحياء يحاولون الوثوب الى الماء فى الوقت الذى عاجلهم فيه الجنود بطعناتهم بالحراب أو رميهم بالسهام · ويحمل حملة الحراب الاشوريون دروعا طويلة ولكن الرماة كانوا فى حاجة الى اليدين ليستعملوا القوس والسهام ولهذا لايحملون دروعا كالآخرين · ونرى الموتى مبعثرين على الارض على شاطىء المجرى فى الجهة اليسرى من الصورة ، واخذت النسور تنقر عيون القتلى ، وفى وسط الصورة نرى جنديا أشوريا يقطع رأس عدوه والى جانبه جندى آخر وضع رجله على جسد ميت وأخذ يسرق مامعه من أسلحة · ولم ينس الفنان أن يرسم الزرع الذى كان على ضفة الماء فنراه واضحا بين الجثث كما نرى الاسلحة مبعثرة أيضا فى وسط الشجيرات ·

جمعوا ثروات طائلة من التجـــارة ، وحصنوا مدينتهم تحصيناً جعلها قادرة على الوقوف فى وجه أى تقدم أشورى نحو البحر الأبيض المتوسط . ولنضرب مثلا لتوضيح أثر قوة هؤلاء الملوك وهو نجاح دمشق فى حماية مملكتى العبرانيين الصغيرتين لمدة طويلة من الزمن من غزو الأشوريين .

سارت الجيوش الأشورية وعبرت الفرات حوالى عام ١٥٠٠ ق.م. ووصلت إلى البحر الأبيض المتوسط حوالى عام ١١٠٠ ق.م. ولـكن ظل ملوك أشور مدى ثلاثة قرون ونصف قرن عاجزين عن غزو وإخضاع هذه المنطقة الغربية إخضاعا تاماً بسبب وجود الممالك الأرامية والفينيقية والعبرية ، فقد وقفت هذه الممالك فى وجه الجيوش الأشورية حتى القرن الثامن ق.م.

وبعد عام ١٠٠٠ ق.م. بقليل ، كانت قوة أشور على وشك أن تبدأ فى تكوين أمبراطوريتها ، ولنقف الآن قليلا وننظر إلى الوراء لنستعرض ما أحرزته أشور من تقدم فى مدى ألفى سنة . كانت أولى آلات الأشوريين المعدنية مصنوعة من النحاس مثل باقى الشعوب القديمة . وخلال الألف الثالث ق.م. استعمل الأشوريون البرونز بكثرة وبدأوا منذ ذلك التاريخ يصنعون من هذا المزيج المعدنى أدواتهم وأسلحتهم حتى عام ١٠٠٠ ق.م. تقريبا ولهذا كانت أسلحة الجنود الأشوريين الذين ساروا للحرب نحو الغرب قبل الألف الأول ق.م. مصنوعة من البرونز ، ولـكنهم استعملوا بعد ذلك التاريخ أسلحة من الحديد .

كان الحديد معروفا للإنسان منذ عصر ما قبل الأسرات ، وعثر على أداة منه مدفونة بين أحجار هرم الجيزة الأكبر ، فقدها أحد العمال القدماء الذين كانوا يعملون فى بنائه ، ولـكن ظل استعمال الحديد نادراً حتى اكتشف الحيثيون مناجمه وطريقة إستخلاصه وصناعته فى الشمال الشرقى من آسيا الصغرى . ووزع ملوك خيتا هذا المعدن فى جميع بلاد الشرق الأدنى ابتداء من القرن الثالث عشر ق.م.

ومن ذلك نرى أنه فى القرون القليلة التى تلت عصر الحـــديد (Iron Age) أخذت أشـــور تستعد لتوسعها نحو الغرب ، وكان استعمال الحديد فى أدواتها الحربية عنصراً هاما فى نجاحها فى الحروب .

ولم يقتصر فضل الغرب ــ وبخاصة الحيثيين ــ على الآشوريين فى تعريفهم ومدهم بالمعادن بل أنهم قدموا للحياة الآشورية أشـــياء أخرى من مقومات … الحيتى الذى كان فى شمال سوريا ، كيف



: رمز الاله اشور

: نرى فى أعلى الرسم قرص الشمس المجنح … الفن المصرى ونرى الاله يرمى الاعداء بسهامه

وتحت رمز الاله ، نرى رمز شجرة الحياة التى جعل منها الفنان الاشورى رسما مزخرفا نخلة تقوم فى الوسط ويتفرع منها الجريد وأوراقه وخاصة فى الجزء العلوى ، وضفروا الاوراق على الجوانب أيضا فى شكل متناسب جميل

وأخذ اليونان هذا الرمز عن الاشوريين واستعملوا هذا الرسم كثيرا فيما بعد فى فنهم .

يقصون أعمال الملك وما أتاه من شجاعة فى صورة كبيرة منقوشة على أحجار عظيمة من المرمر كانوا يضعونها فى صفوف لتزيين جدران القصر .

وكذلك كان الحال فى العمارة . فقد كان لوجود الحجر فى أشور أثر مكن الأشوريين من الاتيان بما لم يستطعه البابليون فى أرضهم غير الجبلية .

وضع الأشوريون لمبانيهم أساسات ضخمة من الحجر كما كان يفعل الحيثيون والسوريون من قبلهم ، أما الأبنية نفسها فاستعملوا فى بنائها الطوب متبعين فى ذلك ما كان يفعله البابليون من قبلهم .

واقتبس الأشوريون من أهل بابل كثيرا من القصص الدينية ورموز الآلهة فقلدوها ودرسوها واحترموها ، ولكنهم لم يفرطوا فى إله قبيلتهم القديم — الإله آشور — الذى أطلقوا اسمه على مدينتهم وعلى قبيلتهم .

وعندما كان الأشوريون فى مجموعهم زراعا يعملون فى الأرض ، وذلك فى أوائل أيامهم ، ظنوا أن إلههم أشور إله الزراعة التى تحيا ثم تموت ثم يكتب لها الخلود مثل الإله أوزيريس فى مصر .

ومهما كان الأمر فإن شجرة الحياة كانت أقدم رمز للإله أشور ، وكان الأشوريون يقيمونها ويزينونها عند حلول فصل الربيع كما نفعل بعامود شهر مايو (Maypole) . وعندما أصبحت بلاد أشور فيما بعد أمة حربية رأوا فى إلههم أشور إله حرب لايرحم واعتقدوا أنه هو إله الشمس . فكان هذا الإله يقود الملوك الأشوريين إلى النصر ويطلق سهامه القاتلة على العدو فيفتك به . أما الرمز الخاص به فإن الأشوريين نقلوا الشمس المجنحة عن الحيثيين الذين كانوا فى شمال سوريا ، والذين كانوا قد نقلوها بدورهم من مصر .

وكانت الإلهة « عشتر » هى أعظم الالهات فى أشور ، فكانت الهة الحب ، وقد أخذوها عن البابليين .

لم يكن للديانة بين شعب أشور ذى النزعة الحربيـة القوية ، إلا أثر قليل على أخلاق الناس ، وكان الأشوريون فى هذا مثل من سبقهم من البابليين . ويرجع السبب الأكبر فى ذلك إلى أن كلا الشعبين تشابه فى عقيدته عن الحياة الأخرى وأنهم لم يؤمنوا بأنه سيكون هناك حساب فى الآخرة . أما موتاهم فكانوا — مثل البابليين — يدفنونهم تحت أرضية المنازل التى كانوا يعيشون فيها .

وكشفت الحفائر فى مدينة أشور عن عدد من الاقبية المبنية بالطوب تحت أرضية القصر الملكى ، ووجدوا فى تلك الاقبية أجزاء من توابيت حجرية كبيرة الحجم ، وتلك التوابيت هى بقايا أقدم المقابر الملكية التى ظهرت حتى الآن فى بلاد آشور ، لأن جثث ملوك أشور الاقوياء كانت موضوعة فى تلك التوابيت ، أولئك الملوك الذين عاشوا وحكموا وبنوا هناك قبيل نهاية ألفى سنة من التطور الذى مهد لظهور الامبراطورية الاشورية .

وفى خرائب المدينة الملكية التى عاش فيها الملك سرجون الثانى (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) عثرت بعثة المعهد الشرقى التابع لجامعة شيكاجو على رقيم مسمارى فيه جدول بأسماء ملوك أشور وعددهم مائة وسبعون. حكم أولهم فى أواخر الالف الثالث ق. م.

وبدأ كاتب هذا الجدول يدون سنى حكم كل ملك ابتداء من أحد الملوك الذين حكموا فى أوائل الالف الثانى قبل الميلاد ، وعندما يتم نشر هذه الوثيقة نشرا علميا صحيحاً سيكون لدينا تقويم دقيق إلى حد لابأس به مدى خمسة عشر قرنا من التاريخ الأشورى .

الأمبراطورية الأشورية

كان هدف التوسع الأشورى الأول هو إخضاع الغرب بغية الحصول على موقع حصين على البحر الأبيض المتوسط . وأملا فى السيطرة على الطرق التجارية بين الشرق والغرب ، فطالما أجبرت الأمم المجاورة المعادية التى تقطن الشمال والشرق والجنوب الملوك الأشوريين على أن يبعثوا بقواتهم وجيوشهم إلى هذه المناطق . وخلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق . م . كان الصراع محتدما بين الامبراطوريتين المصرية والحيثية حول احتلال مركز الصدارة فى الغرب ، ولكن الحكام الأشوريين رأوا أن يظلوا فى الشرق ، وحاولوا أن يقووا موقف آشور هناك . بيد أنه عندما وجه الأشوريون أنظارهم ثانية إلى التوسع والغزو صوب الغرب ، كانت قوة أشور فى الشرق فى خطر دائم ، ومن ثم اضطر الملوك إلى أن يقوموا بحملات تأديبية ضد بابل وعيلام ، والولايات الصغيرة فى جبال زاجروس ، أو أورارتوا (Urartu) فى شمال أرمينيا . وفى خلال القرنين الحادى عشر والعاشر ق . م . أصاب أشور انهيار وانحلال نتيجة لغزو قام به الأراميون الذين كانوا يقطنون الطرف الشرقى للهلال الخصيب . ولكن ما أن حل القرن التاسع حتى كانت جيوش أشور بدأت تسير للحرب . وعندما شرعت الإمبراطوريه الأشورية فى وضع خططها للتوسع تجاه الغرب موضع التنفيذ ، أنشأت الممالك الغربية أحلافا عدة لصد تقدم الغزاة من الشرق . بيد أن دمشق ، أهم مدينة فى الغرب والمدينة التى طالما كانت فى مقدمة المدن التى قادت المقاومة ، سقطت عام ٧٣٢ ق . م . ولم تلبث البلاد الغربيـــة أن أخضعت إخضاعاً تاماً وأصبحت تحت سلطان الامبراطورية الأشورية .

وفى وسط الحملات الغربية . وأثناء حصار السامرة ، تلك المدينة العبرية المنكودة

توفى الملك الأشورى (٧٢٢ ق . م) وعند ذلك آل العرش لابنه ، الذى تلقب عندما تولى العرش باسم سرجون تيمنا باسم سرجون السامى الذى كان أول الحكام العظام لبابل ، والذى حكم قبل ذلك بألفى سنة ، ووصلت الإمبراطورية الأشورية على يد سرجون هذا الذى نعرفه باسم سرجون الثانى إلى ذروة مجدها وغاية سطوتها كامبراطورية عسكرية . وكان خلفاؤه أعظم الأباطرة الأشوريين[1] ، وبنى سرجون الثانى قصراً ملكيا جديدا فى شمال شرق نينوى . وكان هذا القصر أكبر القصور التى عرفتها آسيا إلى ذلك الحين وأكبرها اتساعا وأعظمها رونقاً وبهاء .

ولقد أطلق عليه اسم دورشاروكن (dur-Sharrukin) (سارجونبرج Sargonburg) وكانت مساحة فنائه ميلا مربعاً ، تكفى لإيواء عدد من الشعب يبلغ تعداده ثمانين ألفاً ، وأما مبنى القصر نفسه فكان يشغل مساحة خمسة وعشرين فداناً . وهذا مالم تحظ به بابل فى أوج عظمتها وازدهارها إذلم يكن لها مركز للحكم مثل هذا ، وهكذا أصبحت أشور من نواح متعددة سيدة بلاد غرب آسيا .

ولكن عظمة سرجون الثانى هذه كانت دون مجد ابنه سنحاريب الذى كان سياسيا من أعظم ساسة الشرق الأدنى القديم . وكان اسمه ذائعاً مرهوباً بين شعوب البلاد التى فى آسيا الصغرى ، إذقام بحملات نهب فيها مدينة طرسوس Tarsus والحصون الإغريقية الأيونية التى تقع فى أقصى الشرق وكان ذلك بعد

---

١ ـ أهم ملوك أسرة سراجون الثانى هم : ـ

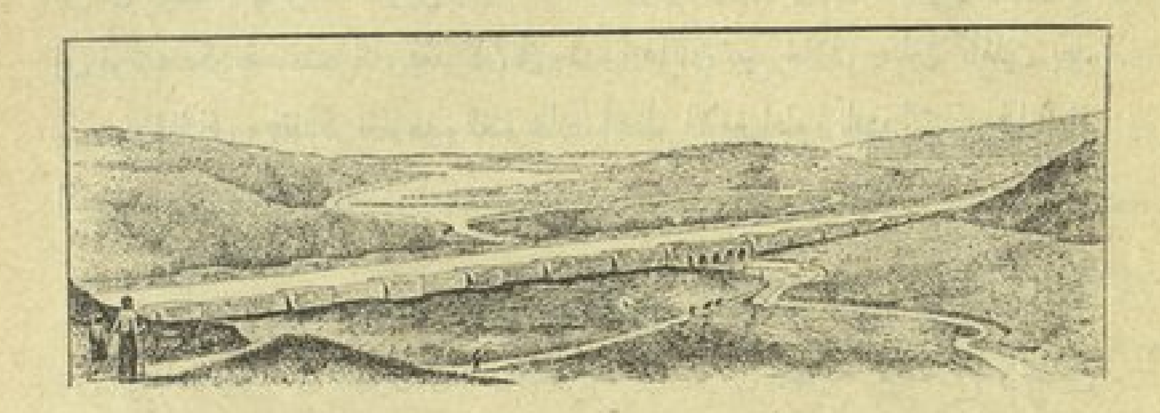
سرجون الثانى	Sargon II	٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق·م
سنحاريب	Sennaachrib	٧٠٥ ـ ٦٨١ ق·م
اسر حدون	Esarhaddon	٦٨١ ـ ٦٦٨ ق·م
اشور بانى بال	Assurbanipal	٦٦٨ ـ ٦٢٦ ·قم

(ويطلق عليه الاغريق ساردانابالس Sardānapalus

عام ٧٠٠ ق . م بقليل وبعد ذلك أخذت حملاته تتقدم نحو الجنوب ، فاستولت على المدن الفينيقية الساحلية التى تقع على شاطىء البحر الأبيض المتوسط حتى بلغت الحدود المصرية . وفى الواقع قضى وباء على جزء عظيم من جيش سنحاريب ، جاءهم هـذا الوباء من مستنقعات الدلتا . ذلك الوباء الذى نظر إليـه العبرانيون على أنه ملاك الرب (يهوى) وهـذا هو السبب فى أن سنحاريب لم يعبر حدود مصر . بيد أنه اتخذ سياسة حازمة قوية عنيفة إزاء مدينة بابل ، عدوته القديمة . إذ كانت هذه المدينة تقوم بثورة بعد أخرى مما جعل سنحاريب يصمم على القضاء على مدينة حمورابى قضاء مبرماً ، بل لم يجد بأساً من أن يحول مجرى إحدى القنوات لتغمر أطلال هذه المدينة التى فر عنها أهلها فأضحت أطلالا فوق أطلال .

وهكذا باتت بابل اثرا بعد عين . ولـكن القوة التى تكمن فى النيل ظلت مصدر خطر على التوسع الأشـورى . فكانت جميع الولايات التابعة للامبراطورية الأشورية ترزح تحت عبء باهظ من الجزية التى فرضت عليها ، ولهذا فلم يكن من العسير على مصر أن تثير الفتن بين هذه الشعوب الغربية التى ناءت بتلك الأعباء . تلك الشـعوب التى كان يحدوها الأمل فى التخلص من وطأة هـذه الجزية . ورأت أشـور أن تدخل مصر يجب أن يوقف عند حده . ومن ثم ظهر ابن سـنحاريب أمام أبواب القلاع الشرقية فى الدلتا عام ٦٧٤ ق . م . ولقد صد أول الأمر ورد على أعقابه ، ولـكنه عاود الهجوم ، ورغم أنه مات قبل أن يدخل الدلتا إلا أن مصر سقطت فى النهاية فريسة للجيوش الأشورية ، وأصبح حفيد سنحاريب لفترة من الزمن سيد النيل الأدنى .

ولم يأت عام ٧٠٠ ق . م حتى كانت الامبراطورية الأشـورية تحكم الهلال الخصيب بأسره وامتدت حول الخليج الصحراوى بل وشملت فضلا عن ذلك مساحة عظيمة من المناطق الجبلية الشمالية الواقعة بعدها وأدى إخضاع مصر إلى



شكل : ٦٨ ـ أقدم القنوات الصناعية المعروفة : أنشاها الملك سنحاريب

اكتشف المعهد الشرقى بجامعة شيكاجو أطلال هذه الاعجوبة التى تدل على المهارة الهندسية الفائقة في عام ١٩٣٣ . وكانت هذه القناة جزءا من مشروع سنحاريب الهائل للرى والذى كان يقصد من ورائه مد الحقول التى كانت حول نينوى بالمياه من الجبال الشمالية التى تبعد ثلاثين ميلا . ولما وجد المهندسون الاشوريون أنه لابد من نقل المياه فوق نهر صغير أنشأوا قناة حجريه هائلة يبلغ طولها حوالى ١٠٠٠ قدم وعرضها ٨٠ قدما . حيث تجرى فيها المياه بين سورين منخفضين يبلغ سمك كل منهما ٩ أقدام . وهكذا لم تكن المياه تجرى فوق النهر الصغير وكأنها فوق قنطرة فحسب ، بل كانت تجرى أيضا عبر وادى النهر الذى كان يبلغ اتساعه ١٠٠٠ قدم .

صورة لما كانت عليه عند تصميمها ـ عن سيتون لويد Setbn Lloyd

ضم وادى النيل الأدنى فى الغرب . ولكن مصر كانت بعيدة جدا وكانت أصعب من أن يحتفظ بها لوقت طويل ولما كانت الغزوات والفتوحات الأشورية تستند إلى قوة عسكرية مستمرة ، فقد كان فى مقدورها أن تبق خلال جيلين كاملين بعد سرجون الثانى ، فقد كونت هذه الفتوحات أعظم الإمبراطوريات التى عرفها العالم اتساعا وسطوة .

ولم يكتف سنحاريب بتوسيع نطاق القصور الملكية القديمة التى آلت إليه عن أجداده سواء فى أشور أو سارجنبرج . بل كرس جهوده لإصلاح وتجميل مدينة نينوى فى شمال أشور . وجعل منها عاصمة الإمبراطورية الأشورية الذائعة الصيت ، لكى يضمن للمدينة مورداً مائياً كافيا وصلها بالأنهار التى تجرى من الجبال الشمالية وذلك ببناء قناة صناعيه هائلة .

وقامت على ضفاف نهر دجلة قصور ضخمة هائلة ومعابد ذات أبراج مرتفعة مما أقامه الأباطرة الأشوريون ، وكانت أسوار نينوى الشاهقة الضخمة التى أنشأها سنحاريب تمتد قرابة ميلين ونصف على ضفاف نهر دجلة ، كما أن طول هذه الأسوار داخل المدينة بلغ قرابة ثمانية أميال . وجعل سنحاريب من قصره الفخم مركزاً يحكم منه العالم الأسيوى وجميع الشعوب الخاضعة له ، بيد من حديد .

وكانت إدارة هذه الإمبراطورية بأسرها تتركز فى ديوان الملك ، الذى وضع نظاما للرسل الملكيين . وشرع فى إنشاء الطرق وتمهيدها . وكان ذلك أول عهد لآسيا بإنشاء الطرق ومازال أحد هذه الطرق باقيا إلى الآن أنشأه سرجون الثانى ليصل نينوى بمدينة القصر ، سارجنبرج ، وعين الملك فى جميع النقط الهامة على الطرق الرئيسية موظفين ليقوم كل واحد منهم بالأشراف على جميع الأعمال الملكية وبتيسير إجراءاتها ، وبهذه الطريقة أمكن ضمان سهولة أمر انتقال الرقم البريدية ، والمحاصيل والبضائع

التى تتعلق بالقصور الملكية . وكان هذا النظام بداية لنظام البريد الذى كان له أن يبق معمولا به عدة قرون فى الشرق الأدنى .وكان الامبراطور الأشورى يتسلم الرسائل ويتلق التقارير من أكثر من ستين حاكما للولايات والمناطق التى كانت تحت حكمه ، وذلك عدا الرسائل التى تصله من عدد كبير من الملوك المغلوبين الذين كان يسمح لهم فى بعض الأحيان أن يظلوا فى مراكزهم وعلى عروشهم تحت السيطرة الأشورية ، ومما وصل إلى أيدينا ،عدد من الرسائل التى كتبها سنحاريب نفسه ، عندما كان وليا للعهد ، وأرسلها إلى أبيه الملك سرجون .

وكان هدف الدولة ومهمتها الكبرى هو الاحتفاظ بجيش قوى وفى الواقع كانت الدولة عبارة عن جهاز عسكرى هائل ، يلق الرعب فى قلوب الناس بدرجة لم يعرفها العالم حتى ذلك التاريخ . ويمكن أن نتصور مثل هذا الموقف ، وأن نقربه إلى أذهاننا إذا تخيلنا أن وزارة الحربية تصبح الإدارة الحكومية المركزية فى عاصمة المملكة وأن الحكومة كلها تكرس جهودها فى هذا السبيل . وهنا يجدر بنا أن نعيد ذكر حقيقه هامة ساعدت فى الوصول إلى هذه النتيجة ، وهذه الحقيقة هى أنه نتج من إلتقائهم بالحيثيين فى الغرب أن بدأ استعمال الحديد بين الأشوريين ومن ثم كانت القوات الأشورية هى أقدم الجيوش الكبيرة فى العالم التى زودت نفسها بأسلحة حديدية .

وفى قاعة واحدة لحفظ الأسلحة فى قصر سرجون عثر على ما يقرب من مائتى طن من الأدوات الحديدية ، ولهـــذا يمكننا أن نقول أن قيام الإمبراطورية الأشورية وسيادتها كان إلى حد كبير راجعا إلى ظهور الحديد واستخدامه .

كان الجزء الأعظم من الجيش الأشورى يتكون من رماة يعضدهم جنود من حاملى الرماح المدججين بالسلاح وحاملى الدروع . وإلى جانب هؤلاء كان الفرسان

وراكبو العربات من نينوى الذين كانوا بمثابة السوط الذى يلهب ظهر الشرق .
ولأول مرة فى التاريخ استخدم الأشوريون المنجنيق وغيره من آلات الحصار .
وكان من اليسير على هذه الآلات أن تصدع الأسوار الطوبية فى المدن الأسيوية
تلك الأسوار التى جففتها حرارة الشمس ، وتفتح فيها الثغرات ، وكان من العسير
أيضا على أية قلعة مهما كانت مناعتها أن تقاوم طويلا هجوم المشاة الأشوريين
الذين اشتهروا بالشدة فى الحروب .

فإلى جانب الأسلحة الحديدية والآلات الحربية اتسم الجنود الأشوريون
بقسوة فطرية خاصة ألقت الرعب والهلع فى نفوس أهل غرب آسيا وجعلتهم
يفزعون من ذكر قوات النينويين[1] وأينما ذهبت الجيوش الأشورية تركت
وراءها ذيلا من الخرائب والأطلال . وبين الأكوام التى يتصاعد منها دخان
الحرائق والتى كانت يوما ما مدنا عامرة ، وضعوا صفوفا متراصة من القوائم
الخشبية علقوا عليها جثث الحكام الثائرين بعد سلخ جلودهم وهم أحياء، بينما ارتفعت
حولهم اكوام القتلى، التى وضعها الجنود الأشوريون فوق بعضها ليشيدوا بذكرى
النصر العظيم . ويحذروا الآخرين من الاحتجاج أو الثورة . وخلال سحب من
الغبار، ارتفعت على جميع الطرق الرئيسية فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، رأى سكان
الممالك المهزومة قطعانا ضخمة من الماشية ، والخيل والحمير ، والماعز ، والخراف ،
ومعها قوافل طويلة من الجمال المحملة بالذهب والفضة التى استولوا عليها من البلاد
المهزومة وتجتمع كل هذه وتلك فى قصر الملك فى نينوى . ويسير أمام هذا الركب
زعماء هذه الممالك المغلوبة ، وقد ربطوا حول أعناقهم رؤوس أمرائهم السابقين
التى فصلوها عن أجسادهم ، ولا شك أن هذه الثروات المسلوبة كانت ضرورية لقيام
الجيش وسد حاجاته ، ولكنهم استخدموها أيضا فى أغراض أخرى غير حربية .

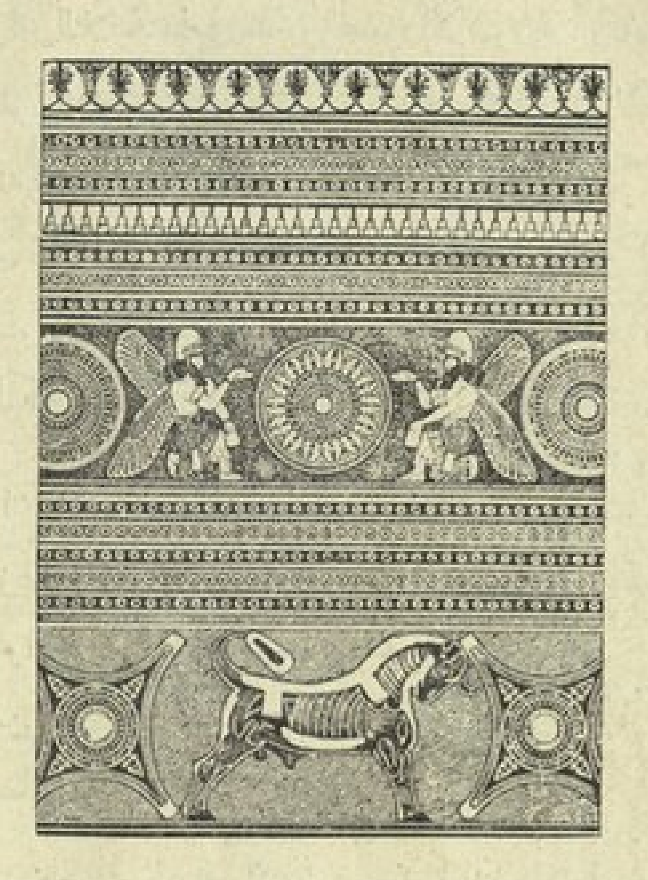
---

١ — انظر ناحوم فصل ٣ و ٢—٣

كانت القصور الأشورية منشآت معمارية توحي إلى الناظر بقوة منشئها الطائلة وكانت الأقواس الثلاثية تقام في مدخل القصور الأشورية . وكانوا يغطون جدرانها بطبقة من الطوب المزجج ذى الألوان الزاهية، وكانت هذه الأقواس هي الأصل الذى أخذ عنه الرومانيون فيما بعد عندما أقاموا أقواس النصر . وعلى كل من الجانبين قامت تماثيل من المرمر على هيئة ثيران ذوى رؤوس آدمية ، وفوق كل هذا ترتفع أسوار شاهقة تعلوها الأبراج مبنية من الطوب المحروق . يراها الناس فى المدينة الملكية من مسافة بعيدة .

أما فى داخل القصر فقد كان هناك أفريز سفلى مزخرف يمتد على الجدران مئات من الأقدام وعليه صور بارزة منحوتة فى المرمر . وعثر المنقبون الأثريون فى نينوى فى تل واحد على واحد وسبعين ردهة من ردهات القصر ، وأزاحوا النقاب عن ميلين من هذه الصور البارزة المرمرية التى نقلوا كثيرا منها إلى المتحف البريطانى .

وتمثل هذه النقوش أعمال الأباطرة سواء فى الحروب أم فى ميادين الصيد ، وتتشابه الصور الآدمية تشابها يبعث على الملل وقلما نرى إحساسا على الوجوه ، وربما كان الطابع الرسمى للصور وحجمها الكبير ، حائلا دون رسم صور معبرة دقيقة، وعلى أية حال فإن الحيوانات المفترسة التى نحتها المثالون الأشوريون كانت ناجحة ونجح هؤلاء الفنانون فى إظهار طباعها القاسية . ولقد سرت طبيعة النمر فى دماء الأشوريين حتى ظهرت فى رسومهم المنحوتة . ومن جهة أخرى . تعتبر التعبيرات العاطفية للألم والعذاب التى تظهر فى ملامح بعض هذه الأشكال الحيوانية الرائعة . نصراً فنيا جليلا . وإن كان المرجح أن المثال الأشورى قد توصل إليه إلى حد ما ، عن طريق دراسة الاسود والثيران الفخمة التى كانت ترسم على الأختام البابلية



شكل : ٦٩ ـ زخرف حائطى فى دار موظف فى بلاط سرجون الثانى

تتكرر هذه الرسوم الزخرفية على جدار من حجرة تبلغ مائة قدم طولا. ويلاحظ أن أشكال الثيران والمعبودات المجنحة صورت فى أوضاع يتلو بعضها بعضا مكونة حلقات متتالية فيها كثير من الانسجام الايقاعى فى الالوان

من اكتشاف المعهد الشرقى فى دور شروكن : وهى مدينة خورسباد الحالية

والصورة من عمل التمان (C.B. Altman)

القديمة فى عهد سرجون الأول منذ الفين من السنين ، وحقيق بنا أن نقر بأن تصوير الحيوانات فى فن النحت الأشورى قد فاق مثيله فى أى شعب من شعوب العالم القديم .

وكثيراً ما كان يرسم فوق الافريز المنحوت فى جدران القصر رسوم ملونة ذات مناظر جميلة وكانوا يضعون طبقة من الطلاء الأبيض فوق الطبقة الطينية السطحية لتصبح أرضية للمناظر المرسومة ، وتتكون الزخارف بصفة عامة من نطاقات وأشرطة مملوءة بالأشكال مثل المعبودات المجنحة أو الغزلان أو الثيران الخ . أو يملؤونها بزخارف مثل الأشكال الوردية ، أو التى تشبه النخيل . أو الأقراص أو الدوائر المقسمة أو مايشبه زخارف الأسوار .

وقد اكتشفت بعثة المعهد الشرقى فى خورسباد منذ عهد قريب فى دار موظف فى البلاط الملكى رسما على حائط يمتد بطول الحجرة ، والألوان المستعملة هنا هى الأحمر والأزرق والأبيض مع تحديد الأشكال باللون الأسود ، وقد دل التحليل الكيمائى على أن اللون الأحمر مأخوذ من سلفات الزئبق ، وأن اللون الأزرق مأخوذ من حجر اللازورد ونجح الأشوريون نجاحا كبيرا فى استعمال الألوان عند رسمهم للمناظر الملونة ، ونرى انسجاما جميلا فى ترتيب المواضيع المرسومة .

ومن الطبيعى أن يقتبس الأشوريون كثيراً من الحضارات التى سبقتهم إذ ظهر فن صناعة تزجيج القوالب الملونة من مصر وبابل منذ أمد بعيد ، كما نرى أن كثيراً من الرسوم الزخرفية فى أعمال الفنانين الأشوريين مصرية الأصل ، كما أن قطع الأثاث المطعمة بالعاج والأبنوس التى كان يصنعها العمال الفينيقيون تكشف أيضاً عن أصلها المصرى ، وكان العمال الفينيقيون فى نينوى يقومون بصنع أطباق من البرونز المنقوش بمهارة فائقة ، وهم فى ذلك يجمعون بين الطرازين المصرى والأشورى ،

ويخبرنا سنحاريب أنه كان لديه فى قصره « بوابة بنيت على نمط قصر خيتى » ، كما أن أسلافه طالما شيدوا بوابات مماثلة لتلك التى رأوها فى دولة الحيثيين فى الغرب ، وكان من أهم خصائص الأباطرة الأشوريين قدرتهم على استعمال ما يقتبسونه من شعوب أجنبية عنهم .

وقد تمكن سنحاريب عن طريق القناة الصناعية التى أنشأها أن يروى الحدائق الغناء التى زرعها على شاطىء النهر قبل نينوى وبعدها ، وفى تلك الحدائق استنبت كثيراً من الأشجار والنباتات الغريبة من جميع أنحاء أمبراطوريته العظيمة ، وكان من بين هـذه الأشجار شجيرات القطن التى قال عنها « إن الأشجار التى تحمل الصوف جناها القوم ومشطوا صوفها لصنع الملابس » . وجاءوا بهذه الأشجار من الهند . وهكذا نرى أن القطن ظهر أول ماظهر فى العالم القديم فى ذلك الحين ، ذلك القطن الذى يساهم بنصيب وافر فى إقامة صرح مجدنا الاقتصادى [١]

واهتم الأشوريون أيضاً ببعض الفنون الجميلة ، فازدهر الأدب لديهم ، وشرع سرجون الثانى مثلا فى جمع مكتبة من الرقم عليها مؤلفات قديمة ، وسار من جاء بعده على منواله وظلوا على شغفهم بالأدب واهتمامهم به . ويفخر « أشور — بانى — بال » حفيد « سنحاريب » وآخر الأباطرة الأشوريين العظام ، بأن أباه لم يهىء له سبل تعلم الفروسية وإتقان رمى القوس والسهم فحسب ، بل علمه الكتابة على الرقم وأدبه بأدب العصر وحكمته .

وكشفت الحفائر بين أطلال حجرات مكتبة « أشور — بانى — بال » فى نينوى عن مجموعة من اثنين وعشرين ألفاً من الرقم ظلت ملقاة على أرضها ألفين وخمسمائة سنة ، وهى موجودة الآن فى المتحف البريطانى . وجمع الملك فى هـذه

---

١ — لاشك أن شجرة القطن هذه تشابه القطن الذى ينمو فى المناطق الجنوبية فى الولايات المتحدة الامريكية .

المكتبة المؤلفات الدينية والعلمية والأدبية وفق نظام دقيق — حسب رغبته — وكانت دون ريب أقدم مكتبة عرفتها آسيا . لقد كان الأشوريون أعظم تقدما فى هذه الأمور من البابليين ، كما أن الحضارة الأشورية كانت أبعد من أن تكون ترديداً وصدى للحضارة البابلية .

بيد أن الأباطرة الأشوريين أتوا بخطأ سياسى جسيم، وإن كانوا لا يختلفون فى ذلك عن كثير من الحكام الذين جاءوا بعدهم ، لأن حروبهم أدت إلى القضاء على السكان الذين كانوا مهرة فى الصناعة والذين كانوا مصدراً للثروة والرخاء ، حدث هذا أول الأمر فى نطاق بلادهم ، ثم فى جميع أنحاء الممالك التى أخضعوها . ورغم اهتمام الأباطرة الأشوريين بإدخال نوع جديد من النسيج مثل القطن إلا أنهم لم ينشئوا ، أو بالأحرى لم يكن فى إمكانهم ، إقامة صناعات أو معاملات تجارية كالتى قامت فى بابل .

فلقد كان الشعب بصفة عامة شعباً زراعياً وكان من اليسير أن يستدعى الرجال من مزارعهم لفترات قصيرة لحماية حدودهم . فلما اتسعت الأمبراطورية لم تكن هذه الجماعات من القوات المؤقتة كافية لأداء الغرض المرجو منها .

وأصبح الزراع يستدعون بصفة دائمة من حقولهم ليملأوا مراتب جيش دائم آخذ فى النمو المطرد . وليس من المستبعد أن الطبقة الحاكمة قد حرصت على شراء الملكيات الزراعية الصغيرة بغية إنشاء ضياع شاسعة ، فإننا نقف على أنباء قنوات قد أهملت ، وعن حقول مهجورة ، عندما نقرأ عن جهود سرجون الجبارة لإعادة المجتمعات الزراعيه القديمة . ورغم كل هذا فإن هذا التوسع الحربى الذى قامت به الأمبراطورية وصل بها إلى درجة من الاتساع أصبح من العسير معها على هذا الجيش الدائم أن يحمى حدودها .

ولما توالت أنباء الثورات الجديدة ، أقلقت الحاكم فى نينوى وجعلته يأمر

رعاياه فى الممالك الأجنبية بدخول الجيش ، وليس يدهشنا بعد ذلك أن تأخذ قوى الأمة الأشورية فى الضعف وفقد القوة الكامنة فيها ، وقد رأينا هذا الجيش الذى بلغ تعداد الأجانب فيه حداً أصبح يهدد الأمبراطورية بالخطر ، ورأينا انهيار الصناعات واضمحلالها وهجر الحقول التى أصبحت معطلة ، فضلا عن أن الحركة التجارية فى البلاد باتت فى قبضة التجار الأراميين ، وأن اللغة الأرامية ذاعت بين المدن فى جميع أنحاء الأمبراطورية وانتشرت بها ، حتى فى مدينة نينوى ، وطغت على اللغة الأشورية نفسها

وإلى جانب هذا الضعف الداخلى ، كانت تهدد الأمبراطورية أخطار داهمة من الخارج . وهذه الأخطار جاءت ، كما درجت العادة منذ القدم من كلا جانبى الهلال الخصيب . فقد استمرت القبائل الأرامية فى احتلال بعض أجزاء الأمبراطورية شيئاً فشيئاً ، بعد أن نزحت من الصحراء .

ويدعى سنحاريب بأنه استطاع فى حملة واحدة أن يأسر مائتى ألف أسير من بابل معظمهم من الأراميين وفى نفس الوقت كانت هناك قبيلة صحراوية تعرف باسم كلدى (Kaldi) نطلق عليها الآن إسم الكلدانيين قد شرعت منذ عدة قرون فى الاستقرار التدريجى حول رأس الخليج الفارسى والإقامة على شواطئه فى سفوح الجبال الشرقية ، وكان هؤلاء الكلدانيون بدواً ساميين أخذوا يلعبون نفس الدور الذى لعبه الأكديون إزاء أكد والأموريون إزاء بابل .

ومن جهة أخرى ، كانت القبائل والجماعات الهندية الأوروبية موجودة دائماً عبر الجبال الشمالية ، منذ أيام الفرسان الميتانيين . حقيقة أن الميتانيين اختفوا منذ أمد بعيد ولكن قبائل غيرها وهى قبائل الميديين والفرس من الشعوب الهندو أوروبية كانت فى طريقها إلى القوة والسلطان .

وكان لهذه الحركات أثر بالغ فى زعزعة الأمبراطورية الأشورية دون شك ،

وكان المصريون قد تخلصوا من عبء السيطرة الأشورية . ولكن فرعون مصر ، وقد أفزعته جماعات البرابرة الشماليين ، إضطر إلى إرسال جيش لمد يد المساعدة للأشوريين .

ولم يحل عام ٦١٦ ق . م حتى كان الكلدانيون قد سيطروا على بابل وأصبحوا سادتها . ولقد زحف « نبوپولاسر Nabopolassar » الملك الكلدانى الجديد فى بابل ، الذى لقب نفسه « بملك أكد » ، زحف ضد الأشوريين وهزمهم فى موقعتين ، وبلغت فتوحاته بعدها حتى عاصمتهم القديمة أشور ، ولكنه فشل فى الاستيلاء على هذه المدينة ، وعلى أية حال فقد زحف الميديون من الجبال الشمالية فى السنة التالية (٦١٤ ق.م) وساروا بإزاء نهر دجلة ثم استولوا على أشور ، ووصل (نبوپولاسر) متأخرا فلم يشترك فى الهجوم ، ولكنه عقد تحالفاً مع سياكسارس (سياخار) (Cyaxares) وهاجما مدينة نينوى سوياً .

ولما كانت مدينة الأباطرة الأشوريين القوية قد عانت جيلا كاملا من الانهيار الداخلى ، فقد سقطت (عام ٦١٢ ق.م) بعد أن قاومت دون طائل هذه الهجمات المتكاتفة من الخارج . وعلى لسان النبى العبرانى ناحوم (الاصحاح الثانى ٨ ، ١٣ والإصحاح الثالث جميعه) نسمع صدى صيحة الفرح التى ترددت فى جميع أنحاء الإمبراطورية من بحر قزوين حتى نهر النيل عندما رأت الأمم أن السوط الرهيب الذى ألهب ظهور شعوب الشرق لم يعد له وجود . وكان سقوط نينوى سقوطاً أبدياً لا مرد له وعندما مرّ اكسينوفون (Xenophon) وصحبه العشرة آلاف أغريقى بهذا المكان بعد مضى قرنين من الزمان لم تكن الأمة الأشورية بعد ذلك اليوم سوى أسطورة غامضة ، ولم تكن نينوى عاصمتها سوى كومة هائلة من الأطلال لا تختلف عما نراها عليه اليوم . وفرت فلول الجيش الأشورى صوب الغرب وظلت فترة قصيرة من الزمن تقاوم بعد أن ساعدتها القوات المصرية ، ولكن ذلك

لم يدم طويلا فانهزموا وانتهت القوة الأشورية . حتى اللغة الأشورية كان مآلها إلى الزوال ، وأصبحت الأرامية هى اللغة التى يتحدث بها سكان دولة أشور . كما أصبحت أيضاً لغة بابل وهكذا انتهى الفصل الثانى الكبير للتاريخ على ضفاف بلاد الرافدين ولم يكن قد استغرق إلا أقل من قرن ونصف من الزمان (من حوالى ٧٥٠ حتى ٦١٢ ق.م)

وبالرغم من أن سقوط الأمبراطورية الأشورية كان سقوطاً مباغتا وعنيفاً إلا أنه ترك الأمم التى فى غرب آسـيا فى حالة تختلف اختلافاً كلياً عن الحالة التى وجدها عليه الأباطرة الأشوريون الأوائل .

تجمعت الشعوب الواقعة فى الناحية الشرقية فى البحر الأبيض المتوسط وخضعت لسلطة حاكم واحد ، فاتصلت يعضها اتصالا وثيقاً مستمراً أصبغها كلها بصبغة متشابهة وأصبح لبلاد الشرق الأدنى — للمرة الأولى فى تاريخها — حضارة عامة بينها .

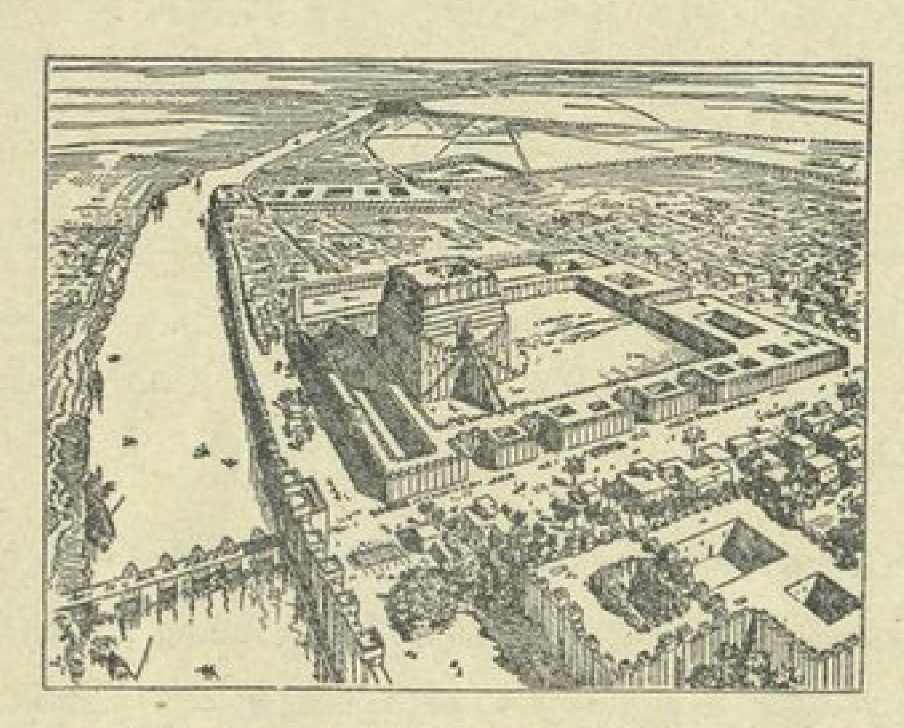
ومن الطبيعى أن تتقدم أساليب الحكم وأنظمتها فى مثل تلك الأمبراطورية ، وقد استفادت من ذلك الأمبراطورية الفارسية التى نشأت بعد سقوط دولة أشور بستين سنة ، واستمرت على اتباع ماكان هناك من تنظيم فى إدارة الحكومة . فقد خطت الأمبراطورية الأشورية خطوات واسعة وخاصة فيما يتعلق بنظامها الحربى العظيم فى سبيل الفكرة التى كانت منذ ذلك الحين فى نمو مطرد ، ألا وهى ضم قوة العالم فى قبضة يد واحدة ، هذه الفكرة التى كان لهـا أن تتحقق فى النهاية على يد الأمبراطورية الرومانية .

وبالرغم من فظاظة الحكم الأشورى وقسوته، فإنه كان خطوة فى تقدم الحضارة ، فإن بناء القصور الفخمة فى نينوى وفيما جاورها من المناطق كان الصفحة الأولى فى

مجد المعمار فى آسيا . وفى نفس الوقت كان لدى نينوى أول المكتبات التى عرفت هناك ، ويجب ألا ننسى أن الحكم الأشورى — كما سنرى فيما بعد — كان سبباً فى ذلك الصراع الدولى الذى مكن اليهود من أن يتصوروا إلههم تصوراً كله مجد وإجلال ، وذلك عندما قارنوه بإله الحرب الأشورى . ذلك التصور الذى كان له منذ ذلك الوقت أعمق الأثر على تاريخ الإنسان .

الامبراطورية الكلدانية

أسس الكلدى ، أو الكلدانيون ، سادة بابل الجدد ، امبراطورية جديدة كانت حياتها القصيرة هى الفصل الثالث الكبير فى تاريخ بلاد الرافدين ، إذ كانوا آخر السادة الساميين الذين حكموا بابل القديمة .



شكل ٧٠ : اعادة لتصميم مدينة بابل فى عهد نبوخذ نصر

ان البرج الذى يقع فى مقدم الشكل هــو معبد مردوخ الكبير تحوطه بعض المبانى والمعابد فى القسم المقدس الذى يقع فى المنطقة الجنوبية من المدينة . أما مجموعة المبانى فى مؤخرة الشكل عند منحنى النهر فهى قصر نبوخذ نصر ، ذى الحدائق المعلقة . أما فى الجانب الشرقى (اليمين) للحى المقدس فيتجه « طريق المواكب » صوب الشمال ليصل الى القصر . ويسير نهر الفرات عــلى الجانب الغربى (اليسار) للمدينة . وكانت عليه قنطرة (كوبرى) أقيمت منذ القرن السادس ق.م وقد أمكن اعادة رسم التصميم القديم بعد أن قام الالمان بحفائر هناك تحت اشراف العالم كولايفى (Koldewey) أكثر من ثمانية عشر عاما

(الرسم منقول عن كولايفى)

وأقام الكلدانيون عاصمتهم فى بابل . التى أعادوا إنشاءها بعد تخريبها على يد سنحاريب وسموا بلادهم أكد . ولكننا نطلق عليها اليوم اسم « كلديا » . وفى عام ٦٠٥ ق . م وعلى مقربة من بلدة قرقيش Carchemish على نهر الفرات ، هزموا جيوش الغرب المتحالفة التى كانت تشمل فلول الجيش الاشورى تعضدها قوات مصرية . وهكذا شملت أمبراطورية الكلدانيين الهلال الخصيب بأسره . أما فيما يتعلق بالميديين فقد تركوهم يحكمون الجبال الشمالية .

ولما قفل نبوخذ نصر راجعاً من انتصاره المبين فى موقعة قرقيش بدأ ذلك الأمبراطور الذى يعتبر أعظم الأباطرة الكلدانيين جميعاً، حكمه (٦٠٤ ق . م) الذى استمر أربعين عاما — وهو حكم بلغ فيه الرخاء مبلغه، ووصلت قوة الأمبراطورية إلى غايتها ، وليس أدل على ذلك من ذكره فى التوراة . فقد كان نبوخذ نصر إحدى الشخصيات العظيمة فى تاريخ الشرق . ولما نفذ صبر نبوخذ نصر إزاء تلك الثورات العنيدة التى قامت فى الغرب والتى كانت مصر تؤازرها وتظاهرها ، قام بحملات تأديبية ضد هذه البلاد وخاصة مملكة يهودا العبرانية الصغيرة . ثم نقل كثيرا من اليهود أسرى إلى بابل ، ودمر عاصمتهم « أورشليم » (٥٨٦ ق . م)

وبالرغم من الحروب الطويلة العنيفة التى خاضها نبوخذ نصر ، وجد هذا الملك العظيم من الوقت متسعاً ومن المال وفرة ليوسع من نطاق بابل ويجملها . ورغم أن نبوخذ نصر قد قلد آشور فى أشياء كثيرة إلا أنه فاق أسلافه الاشوريين فى عظمة وأبهة المبانى التى شرع فى إنشائها . فقد أعاد بناء المعابد فى الحى المقدس الشاسع ، حيث كانت تعبد الآلهة البابلية التى كانت تتمتع بتقديس تقليدى . وأنشأ طريقا لمرور المواكب يصل هذه المعابد بالقصر ، مارا ببوابة كبيرة هائلة تعرف « ببوابة عشتر » لأنها كانت مقامة باسم هذه الإلهة . وخلف هذه البوابة يقع القصر الملكى الشاسع ، وتقوم الدواوين الحكومية ، بينما ارتفع فوق الجميع المعبد

الشاهق الذى كان فى الواقع ، وقد علاه معبد مردوخ ، كأنه برج حقيق واستحق أن يسمى برج بابل . وزرع فوق سقف القصر الملكى أنواعا كثيرة من النباتات الاستوائية الجميلة ترتفع على مدرجات الواحدة تلو الاخرى مكونة حديقة تأخذ بالألباب ، وكانت هذه الحديقة تطل على بوابة عشتر فزادتها جمالا وبهاء . وهناك فى ظلال النخيل وأشجار الرخس التى توحى بالترف والدعة كان الملك ينعم بساعة من ساعات الراحة مع نساء بلاطه ويمتع ناظريه بعظمة مدينته . وتلك الحدائق المدرجة فوق قصر نبوخذنصر ليست إلا حدائق بابل المعلقة التى ذاع صيتها بين أهل الغرب حتى عدها الاغريق إحدى عجائب الدنيا السبع . وهكذا أصبحت بابل مدينة ملأى بالمبانى الفخمة مثل مدن أشور ومصر .

وشهدت بلاد بابل مدينة كبيرة للمرة الاولى ، فقد وسع نبوخذنصر من نطاقها وأنشأ حولها الأسوار الضخمة المحصنة لحمايتها وتشمل هذه الاسوار سوراً يمتد من نهر دجلة إلى نهر الفرات عبر السهل المحصور بينهما . وفى نفس الوقت كان ليصل بين ضفتى نهر الفرات عند بابل قد أقام أقدم قنطرة عرفها الناس ، وليست تلك القوائم الحجرية المهدمة التى مازالت ممتدة فى بطن المجرى القديم لنهر الفرات إلا بقايا أقدم ما وصل إلينا من هندسة القناطر ، وكانت بابل نبوخذ نصر هذه هى التى أدهشت هيرودوت بعجائبها بعد مضى قرن من الزمان ، تلك الدهشة التى نرى أثرها فى الوصف الذى كتبه هيرودوت لهذه المدينة . « وتلك أيضاً هى بابل التى شاع ذكرها بين جميع الشعوب المسيحية ، على أنها المدينة الكبرى التى كانت مقرا لسبى العبرانيين ، ولكن لم يبق من هذه الأمجاد التى ذاع صيتها بين العالمين سوى النزر اليسير ، وقد استمرت الأبحاث الأثرية الألمانية فى هذه المنطقة من ١٨٩٩ حتى ١٩١٧ بيد أنها لم تكشف النقاب إلا عن أطلال ضئيلة لجدران من الطوب اللبن ، وباستثناء بوابة عشتر لم يبق هناك سوى بعض الآثار البسيطة التى لا يمكن الاستدلال منها

على عظمة بابل، ولا توحى بتلك الحياة المترفة السعيدة التى ازدهرت فى يوم من الأيام فى طرقاتها وميادينها العامة .

ويبدو أن الكلدانيين قد هضموا الحضارة البابلية واستساغوها ، كما فعل غيرهم من الغزاة الساميين الآخرين الذين وفدوا على هذا السهل القديم . فازدهرت التجارة وراجت الأعمال ، كما خطت الفنون والصناعات خطوات واسعة فى سبيل التقدم والنهوض ، وعظم الاهتمام بالدين والأدب ، وسجلت مؤلفاتهم على رقم مكتوبة بالمسمارية ، كما جرت العادة منذ القدم .

وتقدم العلم تقدماً ملحوظا فى فرع خاص من فروعه وهو الفلك . فقد واصل البابليون العادة القديمة فى محاولة قراءة المستقبل مستدلين بالأجرام السماوية . وكانوا ينظرون إلى الكواكب المعروفة إذ ذاك ، (عطارد ، والزهرة ،والمريخ ، والمشترى، وزحل) على أنها القوى التى تتحكم فى مصائر البشر ، كما أن الآلهة البابلية الخمسة الرئيسية ، كانوا يمثلون هذه الكواكب السيارة الخمسة .

ووصلت إلينا أسماء هؤلاء الآلهة البابليين على أنها أسماء الكواكب الخمسة ، ولكنها تغيرت عندما وصلت إلى أوروبا فترجموها إلى كلمات تلائم الحياة الرومانية ، فأصبح كوكب عشتر ، إلهة الحب ، هو فينوس (الزهرة) ، بينما بات كوكب الإله الاعظم مردوخ كوكب جوبيتر (المشترى) وهكذا دواليك ، وظل علم الفلك القديم حياً إلى يومنا هذا ، فتخرج من أفواهنا جمل دون تفكير فى معناها مثل قولنا « نجمه السعيد » أو « عمل بجمة نحس »

ولقد ترك علم الفلك الكلدانى أثراً لا يمحى ، فى تقويمنا فيما يتعلق بالأسماء التى نطلقها على أيام الأسبوع . فهذه الكواكب الخمسة التى ذكرت منذ هنيهة بالإضافة إلى الشمس والقمر تكون مجموعة من سبعة أجرام سماوية ، كان كل منها إلها على جانب عظيم من الأهمية . ولما كانت العبادة الكلدانية قد انتشرت فى سوريا

وذاعت . فقد جرت العادة أخيراً على العبادة والتغنى بمدح كل إله منها فى يوم خاص معين . وهكذا كانت عبادة كل إله من هذه الآلهة تتكرر بعد مرور سبعة أيام . ثم أطلق اسم الإله الذى يعبد فى يوم ما على ذلك اليوم نفسه ، وهكذا أصبح اليوم المكرس لعبادة الشمس ـ الأحد [يوم day ـ الشمس Sun] وبات اليوم الخاص بعبادة القمر ـ الاثنين [يوم day ـ القمر Mon] وهكذا حتى نهاية الأسبوع ، وعرف اليوم الأخير المخصص لعبادة زحل باسم يوم ساتورن وهو يوم السبت . ولما كانت اللغة الإنجليزية قد وصلت عن طريق الشعوب الشمالية فقد دخلت فيها بعض العناصر النورسية وظهرت فى أسماء بعض أيام الاسبوع مثل (Wodon's day, Wednesday) (أى يوم الاربعاء) أو (Thor's day, Thursday) (أى يوم الخميس) ومع هذا فإن هذه الاسماء جميعها ترجع إلى الآلهة البابلية القديمة التى ما زالت أسماؤها محفوظة بين الشعوب الغربية يذكرونها كلما نطقوا باسم أى يوم من أيام الاسبوع .

وهناك ما هو أهم من ذلك ، فإن خدمات علم الفلك البابلى لم تقف عند ذلك الحد ، بل أن هؤلاء الناس لاحظوا السماء وكواكبها إلى أن أصبح ذلك العلم بينهم أعظم من مجرد معرفة الغيب . وإذا رجعنا بالتاريخ إلى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد فى عهد ملوك سومر وأكد نجد أن علماء الفلك فى ذلك الوقت لاحظوا خسوفا للقمر ، وهى حقيقة استفاد منها علماء الفلك المحدثين ، بيد أن مثل هذه الملاحظات كانت فى ذلك العهد البعيد أمر صدفة واتفاق كما أنها لم تكن على جانب كبير من الصحة . فضلا عن أنها كانت لا تجرى وفق نظام ثابت . وبمرور الزمن جرت العادة على التحقق من هذه الظواهر على نطاق أوسع ، حتى جاء عام ٧٤٧ ق.م فى عهد الملك البابلى نبوخذنصر ، حين أصبحت هذه الملاحظات تدون بصفة دائمة وتسجل بدقة بالغة وتحفظ وثائقها فى مكان خاص . ولسوء الحظ لم تبق لنا كل هذه المجموعة من السجلات ، وأقدم ما وصل إلينا منها حتى الآن هو رقيم يرجع تاريخه إلى عام ٥٦٨ ق.م وعليه أقدم المعلومات الفلكية الدقيقة . ونعلم الآن أن علماء الفلك

الكلدانيين ظلوا يكتبون هذه الملاحظات فترة تربو على ثلاثمائة وستين سنة. وأصبحت هذه المجموعة أول سلسلة طويلة للأرصاد الفلكية، وأول الوثائق ذات القيمة فى الدراسات الفلكية. وفى الواقع لم يقم علماء الفلك المحدثون بمثل هذه الارصاد الفلكية المستمرة خلال مثل هذه الفترة التى استغرقتها الارصاد البابلية [1] ومما هو جدير بالذكر أن هذا العمل العلمى استمر حتى بعد أن فقد الشعب الكلدانى استقلاله ووقع تحت سطوة الحكم الفارسى.

وهناك ما هو أعظم قدراً من جميع هذه المستندات الكثيرة والملاحظات ذلك هو استفادة علماء الفلك الكلدانيين منها قبيل عام ٥٠٠ ق. م وبعد أن مضى على جميع هذه الأرصاد بصفة مستمرة ما يقرب من المائتى والخمسين سنة، استطاع أحد الفلكيين الكلدانيين ويدعى « نبو - ريمانو Nabu-rimannu » أن يستخدمها فى وضع جداول لتحركات الشمس والقمر، سجل فيها حسابه للوقت الذى يستغرقه هذان الجرمان السماويان فى دورتيهما اليومية والشهرية والسنوية وهلم جرا... كما أرخ أيضا وقت كسوف الشمس وخسوف القمر، وأوقات وقوع بعض الأحداث الفلكية الهامة. لقد حسب طول السنة بثلاثمائة وخمسة وستين يوما، وست ساعات وخمسين دقيقة، وواحد واربعين ثانية، وهذا الجدول الزمنى الرائع الذى وضعه نبو - ريمانو كان أقدم بحث علمى ذى قيمة انشائية فى علم الفلك وحوى عظمة لم يصل إليها العقل البشرى من قبل.

وحسابات نبو - ريمانو قاربت الصواب إلى حد يدعو إلى الدهشة ولنضرب مثلا ببعض أشياء فى الدورة السنوية للشمس والقمر، فإن الأرقام التى ذكرها فى جدوله لم تفرق إلا أقل من عشر ثوان خلال العام كله. بيد أنه بعد مضى ما يزيد

---

١ - ان السلسلة الوحيدة التى استغرقت وقتا طويلا، وكانت تقوم بصفة مستمرة لمثل هذه الأرصاد، والتى يمكن ان تقارن بسلسلة الكلدانيين الفلكية هى الارصاد الخاصة بمنتصف النهار فى جرينتش بانجلترا التى بدأت عام ١٧٥٠ م

قليلا عن قرن من الزمان ، وضع فلكى آخر كلدانى الأصل اسمه « كيدينو Kidinnu »
مجموعة مشابهة من الجداول كانت اكثر دقة من سابقتها . فلم تزد أرقامه التى بين بها
الوقت اللازم لدورة الشمس والقمر السنوية عن ثانية واحدة من الوقت الحقيق، بل
أن بعض حساباته لدورة الأجرام السماويه تعد اكثر دقة وصدقا من الأرقام التى
كان يستخدمها فعلا الفلكيون المحدثون إلى عهد قريب . ويرجع الفضل فى ذلك
إلى أن الفلكى الكلدانى كان تحت تصرفه سجلات عن الأرصاد القمرية خلال
فترة ثلاثمائة وستين سنة ، وهذا لم يتيسر لأى عالم فلكى محدث ، وأثبت كيدينو
أيضا أن هناك اختلافا بين طول السنة التى يقاس بين الاعتدالين ، وبين قياسها على
أساس الوقت بين مرتين لاقتراب الأرض إلى أدنى بعد ممكن من الشمس[1]

ولقد آلت الأبحاث الفلكية التى استغرقت قرنا من الزمان والتى قام بها الكلدانيون ،
بالاضافة إلى حسابات نبو ـ ريمانو وكيدينو إلى الاغريق ، فانكبوا على دراسة
مسائل هـــذين الفلكيين الكلدانيين اللذين أطلقوا عليهما اسمى : نبوريانس
Naburianos وكيديناس Kidenas وعندما حاول المهندس الأغريق ميتون
Meton أن يدخل تقويما علميا فى أثينا اقتبس طول سنته من جداول نبو ـ ريمانو
ووصف أحد علماء الفلك المحدثين هـــذين الفلكيين بقوله : « لهما كامل الحق أن
يوضعا بين أعاظم الفلكيين » ، إن هذين الكلدانيين اللذين أطلعا البشرية لأول
مرة فى التاريخ على نظام ثابت لعالم الكواكب وأصبحا مؤسسى علم الفلك ، يجدر
بنا أن نذكرهم باحترام وأن تظل اسماؤهم خالدة بعد ان عفت ذكرى ملوك العالم
القديم ومحاربوه .

وبينما نجد أن دولة الكلدانيين فاقت فى مضمار العلم كل ما جاءت به أشور ،

---

١ ـ هذه الفكرة هى الواقع هى اكتشاف التغير البطىء فى درجة ميل محور الارض وهو التغير الذى يسمونه عادة قبل تسليم الاعتدالين

نجد أن فن المعمار فى بابل الكلدانية قد تأثر إلى حد بعيد بمؤثرات أشورية . بيد أن الكلدانيين قد تصوروا أنهم بعملهم هذا يعيدون مجد الحضارة التى قامت فى بابل أيام حمورابى ، إذ شغف الكتاب باصطناع أسلوب قديم فى الكتابة ، واستخدام تعبيرات عتيقة ، وكان الملوك يحفرون تحت أسس المعابد سنين طويلة ، بغية الحصول على الوثائق القديمة التى توضع فى أسس البناء وقواعده (مثل وثائق حجر الزاوية لدينا) والتى دفنها ملوك العصور الغابرة .

وإذا اعتمد شعب على الماضى فلا يعنى ذلك شيئاً سوى أنه فى طريق الاضمحلال، فعلى أثر موت بنوخذنصر (عام ٥٦١ ق . م) . الذى يعد عهده ذروة الحضارة الكلدانية ، يبدو أن البلاد المتحضرة فى الشرق الأدنى قد فقدت الكثير من قوتها وفتوتها السابقتين ، وعجزت عن أن تسير إلى الأمام أو أن تسجل انتصارات حضارية جديدة ، أو تكتشف سبلا للمعرفة لم يصل إليها من عاشوا قبلهم ، مثلما كانت تفعله هذه الشعوب ، أى شعوب الشرق الأدنى ، خلال ثلاثة عصور زاهرة على ضفاف النيل ، وثلاثة عصور أخرى مشابهة على ضفاف الرافدين . وفى الواقع كانت قوة الشعوب السامية وقدرتها على التحكم فى العالم القديم وأدله على وشك الاقتراب من نهايتها ، وأوشكت أن تخلى السبيل أمام شعوب جديدة من العنصر الهندو ـ الأوروبى الذى رأينا بعضاً من أقوامه ــ حكام الميتانى ــ يظهرون فى الهلال الخصيب .

الفصل السابع (١)

غرب آسيا – قدوم الأقوام الهندو – أوروبية

الشعوب الهندو ـ أوروبية وتوزيعها

لقد رأينا كيف كانت الصحراء العربية موئلا لعدد كبير من السكان الرحل الذين ينتقلون بصفة مستمرة من المناطق العشبية على حافة الصحراء مهاجرين إلى المدن ، ليبدأوا حياة مستقرة . وكما يوجد أراض عشبية فى الجنوب فإننا نجد أراض مماثلة لها فى الشمال تمتد فى نطاق واسع من الدانوب الأدنى وتتجه صوب الشرق على طول الشاطىء الشمالى للبحر الأسود ، مخترقة جنوب روسيا متوغلة فى آسيا شمالا وشرقا حتى بحر الخزر (قزوين) .

وكانت هذه المناطق آهلة بسكان من البدو الرحل فى العصور الغابرة ، وبين الحين والحين مدى آلاف من السنين ، كان ينحدر هؤلاء البدو الشماليون إلى أوروبا وغرب آسيا ويستقرون بهما، تماما كما انحدر الساميون من الصحراء الجنوبية إلى منطقة الهلال الخصيب .

واندمج بين هؤلاء البدو الشماليين، منذ عصور موغلة فى القدم ، عنصر من الجنس الأبيض يعرف باسم الهندو ـ أوروبى . وأصبح هؤلاء الهندو ـ الأوروبيون أجداد الشعوب الناهضة القوية التى تقطن أوروبا وأمريكا اليوم . ومن زمن قديم بدأ الناس فى الهجرة متجهين فى سبل متفرقة حتى استقر بهم المقام فى منطقة واسعة تبدأ غربا من الحدود الشرقية للهند متجهة صوب الغرب ومخترقة كل أوروبا حتى المحيط الأطلسى، ومن هنا جاءت تسميتهم بالهندو ـ أوروبيين ، بيد أن هذا النطاق الشمالى العظيم قد قوبل فى الجنوب بنطاق مماثل من الشعوب السامية ، يمتد من بابل فى الشرق مخترقا

---

١ ـ يقابل هذا الفصل ، فى الاصل الانجليزى ، الفصل الثامن .

فينيقيا والممالك اليهودية صوب الجنوب حتى قرطاجنة وبعض المدن السامية التى أسسها الفينيقيون فى غرب البحر الأبيض المتوسط .

وسنرى ابتداء من الآن أن تاريخ العالم القديم ليس تاريخاً للصراع الذى احتدم بين هذا النطاق السامى الجنوبى الذى جاء من المناطق العشبية الجنوبية ، وبين النطاق الهندى الأوروبى الشمالى ، الذى قدم من المناطق العشبية الشمالية ليواجه الحضارة القديمة الممثلة فى النطاق الشمالى ، وهكذا ، إذا نظرنا إلى الجدول فى شكل ٧١ نجد أن كلا الجنسين يواجه كل منهما الآخر عبر البحر الأبيض المتوسط ، وكأنهما جيشان عظيمان يقفان قبالة بعضهما على خط يمتد من غرب آسيا حتى المحيط الأطلسى وتمثل الحروب التى نشبت فيما بعد بين روما وقرطاجنة بعض العمليات على الجناح السامى الأيسر بينما يمثل انتصار الفرس على الكلدانيين حدثاً مشابهاً على الجناح السامى الأيمن .

انتهى هذا الصراع الطويل بانتصار الهندو — أوروبيين انتصاراً مبيناً وتم لهم التغلب على قلب الجيش وجناحيه عندما أصبح للإغريق والرومان السيادة المطلقة على عالم البحر الأبيض المتوسط بأسره . وتلا هذا النصر صراع طويل آخر نشب بين أعضاء النطاق الشمالى أنفسهم فى سبيل الوصول إلى مركز الصدارة فيه .

وأخذت السيادة فى النطاق الشمالى تنتقل من طرفه الشرقى إلى طرفه الغربى مبتدئة بالفرس ، ثم الإغريق ، وأخيراً الرومان الذين بسطوا سلطانهم على حوض البحر الأبيض المتوسط والعالم الشرقى .

ولكن دعنا الآن نعود ثانية إلى ذلك الوقت الذى سبق هجرة الشعب الهندو — أوروبى عن وطنه الأصلى فى المناطق العشبية فنرى أن الدراسات الحديثة لم تقطع برأى فى هذا الموضوع بتحديد المنطقة التى كان يقطنها هذا الشعب أول الأمر . ويتجه الرأى الآن إلى أن موطن هذا الشعب كان فى منطقة المراعى العظيمة

الواقعة على الشواطىء الشرقية ، والشرقية الشمالية لبحر قزوين ، وربما عاش هناك الأجداد الأولون الذين انحدرت منهم كل الشعوب الهندو — أوروبية فيما بعد ، وكانوا يتكلمون بلغة واحدة عندما كانوا لايزالون شعبا واحدا .

وكانوا يجوبون هذه المناطق بحرية مطلقة باحثين عن المراعى الخصبة لقطعانهم بحكم أنقسامهم إلى قبائل متعددة ، إذ كانوا يملكون أنواعا من حيوانات مستأنسة تشمل الماشية والأغنام . واحتل الجواد مكان الصدارة بين حيواناتهم المستأنسة ، فلم يستخدم الهندو — أوروبيون الخيل فى الركوب فحسب ، بل استخدموها أيضا فى جر عرباتهم ذات العجلات ؛ واستأنسوا الثور وكان عوناً كبيرا لهم فى جر المحراث لأن بعض هذه القبائل ركن إلى حياة مستقرة وقام بزرع الحبوب وبخاصة الشعير . ولما كان هؤلاء القوم يجهلون الكتابة ، فلم تقم لهم إلا حكومة ونظام إدارى بسيط ، وربما بدأوا فى استخدام النحاس ، فى الفترة التى شرعوا فيها يهاجرون ويرحلون ، وأخذت قبائل هذا الشعب تجوب تلك المناطق مستبعدة عن بعضها البعض وتوغلت فى نجو الاتها حتى فقدت الاتصال فيما بينها ، وترتب على ذلك اتساع شقة الخلاف بين الألسن واللهجات وتباينت التقاليد واختلفت العادات ، واصطبغت كل منها بصبغة محلية خاصة . وكان فى استطاعة هذه الجماعات الهندو — أوروبية المتباينة أن تتفاهم فى بادىء الامر مع بعضها البعض عند التقائها ، فلما زادت شقة الخلاف بين اللهجات تدريجياً ، جاء اليوم الذى حدث فيه أنه إذا التقت تلك القبائل المشتتة لم تستطع التفاهم مع بعضها ، وفى النهاية فقدت هذه القبائل كل معرفة بأصلها أو بمن كانوا يتصلون بهم فى القرابة ، إذ أن معرفة أصل هؤلاء الشعوب وصلتهم بغيرهم أمر لم يكتشف إلا منذ زمن قريب . وكانت النتيجة النهائية لذلك فيما يتعلق باللغة هى مانراه الآن فى لغات أوروبا الحديثة . وفى امكاننا أن نتبع أكثر من لفظة واحدة

مشتركة من شعب إلى شعب مبتدئين بانجلترا غرباً ومتجهين صوب الشرق عبر أوروبا حتى شمال الهند كما نرى فى هذا الجدول .

الهند الشرقية السنسكريتية	الفارسية القديمة والافغانستية	الاغريقية	اللاتينية	الالمانية	الانجليزية
الشرق			الغرب		
bhrâtar	brâtar	phrâtêr	frâter	bruder	brother
mâtar	mâtar	mêtêr	mâter	mutter	mother
pitar	pitar	patêr	pater	vater	father

أما فى الغرب فإن أقدم جماعة معروفة لنا هى الجماعات التى وفدت من الاراضى العشبية الشمالية ودخلت آسيا الصغرى قرابة عام ٢٥٠٠ ق.م. وهؤلاء الغزاة الذين أسسوا الامبراطورية الحيثية. واندفعت جماعة أخرى نحو الجنوب والجنوب الغربى واستطاعت أن تخضع السكان الذين كانوا يقطنون المنحنى الغربى لنهر الفرات ، حيث أصبحوا الطبقة الحاكمة لأمة جديدة تدعى أمة الميتانى التى سبق لنا الإشارة إليها ، وإذا بعدنا أكثر من هذا نحو الغرب نجد أن أكثر القبائل الهندو - أوروبية التى سبقت غيرها فى الهجرة نحو الغرب عبرت الدانوب وتوغلت فى شبه جزيرة البلقان حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م. ولا شك فى أن بعض هؤلاء كانوا قد استقروا بإيطاليا فى ذلك العهد . وكانت هذه القبائل الغربية فرعاً من الفروع المختلطة لأجداد الأغريق والرومان ، أو على الأقل كانوا أول من أدخل أقدم اللهجات اليونانية والرومانية (اللاتينية) إلى بلاد الأغريق وإيطاليا . وكان لهؤلاء الناس أثر كبير وخاصة بعد قيامهم بحملاتهم التى شنوها لإخضاع منطقة البحر الأبيض المتوسط ، ولكن لندع هؤلاء وشأنهم الآن ولنتابع سرد قصة توغل هؤلاء الهندو - أوروبيين أولا فى آسيا الصغرى (الأناضول) ثم فى تقدمهم نحو الطرف الشرقى للهلال الخصيب ،

النطاق الهندو – أوروبي

الاراضى العشبية الشمالية
أجداد الشعوب الهندو – أوروبية

الشرق ... الغرب

- الآريون في شمال الهند (سانسكريت)
- الفرس
- الميديون أرمينيا وميديا
- الميتانيون اعالى الفرات
- عدة شعوب هندو – أوربية من آسيا الصغرى « الحيثيون والفريجيون والاسكيثيون والارمن الى جانب الاغريق »
- الاغريق في اليونان وفي فينيقيا
- الاغريق في ايطاليا وفي صقلية
- الايطاليون (ايطاليا)
- الكلتيون (من فرنسا الى آسيا الصغرى)

شـــعوب آرية

البحر الابيض المتوسط

الهـلال الخصيب

النطاق السامي

- بابل • (كلديا فيما بعد)
- اشور
- سوريا آراميون خاصة في دمشق
- فينيقيـا
- فلسطين خاصة اليهود
- مستعمرات فينيقية في شرق البحر المتوسط وقبرص
- صقلية كورسيكا سردينيا
- قرطاجنة شمال أفريقيا
- مستعمرات فينيقية في جنوب اسبانيا

الشرق ... الغرب

الاراضى العشبية الجنوبية
الشعب السامى الاول

شكل : ٧١ – جدول يبين النطاقين السامى والهندو – اوروبى

الحيثيون

عندما ينظر الإنسان إلى منطقة الجبال المرتفعة فى غرب آسيا ، يحس بأن خلف هذا الستار المنيع من الجبال بل وبينها نفسها ، حدثت هجرات وحركات إنسانية هامة . وهذا أمر حقيق فقد كانت هذه المنطقة مسرحا لحوادث هامة مدى وقت طويل ، وسنتحدث الآن عن دورها الذى قامت به .

تشمل هذه المنطقة المرتفعة نطاقا شاسعا من الأراضى يمتد من البحر الإيجى غربا متجها صوب الشرق محاذياً للجانب الشمالى للهلال الخصيب ثم يتوغل شرقا بين بحر قزوين والخليج الفارسى ، حتى الهضبة الإيرانية فى الشرق . وتكفينا نظرة سريعة على خرائط هـــذه المنطقة لترينا أنها كانت تشمل من الغرب إلى الشرق الأناضول (أو آسيا الصغرى الحيثية) وأرمينيا وميديا وإيران وفى هذه المنطقة الشاسعة تقدمت الشعوب النيوليتية حتى وصلت إلى حضارة عصر البرونز ، وكانت عناصر حضارتها متشابهة وتتصل ببعضها البعض . فإن بعض الأوانى الفخارية الجميلة التى عثر عليها حديثاً فى إيران تشبه شبها تاما مثيلاتها من الأوانى الفخارية التى اكتشفت فى الأناضول أى فى الطرف الآخر من المنطقة .

وليس فى مقدورنا أن نجد لهذه الحضارة المتوغلة فى الإتساع خاصية تعرف بها ، بيد أنه فى استطاعتنا أن نطلق عليها إسما جغرافيا ، وأن نسميها « حضارة المنطقة المرتفعة » لأن الاعتقاد السائد هو أن هذه الحضارة نشأت فى الأصل فى الهضبة الإيرانيـة ، ولقد اكتشفت كميات من أوانيها الفخارية ومصنوعاتها البرونزية فى غرب إيران وفى ميديا ، وتتصل بهذه الحضارة حضارة اخرى أعرق منها فى القدم وهى حضارة بلاد عيلام فى أول عصورها . أما فيما يتعلق بالشعوب التى نمت بينها حضارة المنطقة المرتفعة ، وأصل هذه الشعوب ، فليس لدينا عنها من المعلومات

إلا النزر اليسير ، ولا شك فى أنها لم تكن جميعا من أصل واحد . ومن الجائز جدا أنهم لم يكونوا من الهندو - أوروبيين فى بادىء الأمر . وقد لعبت الشعوب التى كانت تقطن الأناضول دورا هاما فى نمو حضارة الأرض المرتفعة ، وتلك هى الشعوب الحيثية التى كانت تستوطن آسيا الصغرى بسبب ما كان فى جبالهم من معادن .

كان الجزء الأكبر من آسيا الصغرى أو الأناضول [1] تحت سيادة الحيثيين ، وهى شبه جزيرة شاسعة تتراوح بين ستمائة وسبعمائة ميل فى الطول ، وبين ثلاثة وأربعمائة ميل فى العرض، أنها تقرب من ولاية تكساس. وفى وسطها منطقة مرتفعة مستوية السطح تكاد تشبه الصحراء . وحول هذه المنطقة المرتفعة فى الوسط الشبيهة بالهضبة ، نرى سلسلة من الجبال تكتنف الجزء الأكبر منها وتصل إلى البحر ، وعلى جانبي سلاسل الجبال توجد وديان وسهول خصبة تدر محاصيل طائلة . وتغطى الغابات منحدرات الجبال وخاصة تلك التى تواجه البحر الأسود . أما الشواطىء الشمالية لآسيا الصغرى شرقى نهر الهاليس Halys فإنها مرتفعات جبلية غنية بالمعادن وخاصة الحديد . ولهذا كان الحيثيون أقدم الشعوب التى نشرت استعمال الحديد عندما أخذ يحل مكان البرونز فى بلاد البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى .

ولعله من الأصوب أن نطلق على سكان الطرف الغربى لمنطقة « الأرض المرتفعة » فى قارة آسيا فى العصر الذى سبق غزوات الهندو - أوروبيين ، اسم « الأناضوليين القدماء » ، إذ لا شك فى أن هؤلاء القوم كانوا يقطنون هذه المنطقة

---

١ - أناتوليا (أو الاناضول) كلمة اغريقية ترادف الكلمة اللاتينية Oriens أى الشرق ولكن تداولها قد حدد معناها لانها تستعمل للدلالة فقط على آسيا الصغرى حتى الفرات الاعلى من ناحية الشرق . وقد اثبتت اخر الابحاث الاثرية أن الشعوب الاولى التى سكنت فى الاناضول ليس هم أجداد الحيثيين المعروفين فى التاريخ ، اذ أن الحيثيين وفدوا بعد ذلك ، ولهذا يمكننا أن نسمى السكان الاوائل « الاناضوليون القدماء » وهو اصطلاح لايدل فى الواقع على أصلهم أو جنسيتهم .

عندما بلغ تقدمهم الاقتصادى حد المرحلة النيوليتية فقط . وكان من عادة هؤلاء الأناضوليين القدماء أن يهاجروا ، فاتجه بعضهم إلى أطراف آسيا الصغرى من الناحية الغربية ، وهاجروا منها إلى كريت ، ورحل بعضهم إلى بلاد اليونان نفسها وكان ذلك فى العصر الذى سبق عصر معرفتهم للمعادن . ونحن نذكر كيف هاجر بعضهم من الطرف الشرقى لآسيا الصغرى إلى فلسطين فى جماعات كبيرة فأثروا فى سكانها وأصبحت معالم وجوههم وخاصة تلك الأنف المحدبة هى السائدة فى منطقة فلسطين بأسرها .

ونحن لا نعرف إلا القليل عن الأناضوليين القدماء . وقد يستلزم الأمر عشرات من السنين فى التنقيب والبحث لجمع شتات الحقائق لمعرفة قدر كاف عن حياة هذا الشعب وتاريخه . وقد عثر على عمق ثمانين قدما تحت أحد الأكوام الحيثية المعروف باسم تل اليشار Alishar على منزل من العصر النيوليتى فعرفنا منه الشىء اليسير عن بعض ما يتصل بحياتهم قبيل فجر « عصر المعادن »

أما الهندو - أوروبيون فإنهم جاءوا على الأرجح من الشمال ومن الشرق من ناحية جبال القوقاز حوالى عام ٢٥٠٠ق . م وكان هذا أول ظهورهم على صفحات التاريخ ، وقد دلت الاكتشافات الحديثة على أن هؤلاء الهندو - أوروبيين الذين أتوا إلى الأناضول هم الذين نعرفهم باسم الحيثيين الذين كانوا فى طليعة التحركات الهندو - أوروبية فى غرب آسيا التى انتهت أخيراً باحتلال الهلال الخصيب والسيطرة على الشرق الأدنى بأسره على أيدى الميديين والفرس .

وأدخل الهندو - أوروبيون الحصان المستأنس إلى آسيا الصغرى ومن ثم إلى جميع بلاد الهلال الخصيب ، ولم يتسبب عن هذا الغزو انقراض الأناضوليين القدماء بل خضوعهم لحكم الغزاة الجدد الذين أصبحوا الطبقة الحاكمة كما حدث فى بلاد ميتانى . أما فيما يتعلق باللغة فقد نشأت لغة مختلطة ، وتضمنت هذه اللغة المختلطة




شكل ٧٢ : حيثى قديم وسليله أرمنى حديث

الى اليسار رأس حيثى قديم كما حفرها مثال مصرى على حائط معبد فى طيبة بمصر منذ ثلاثة آلاف سنة . وهى تشبه الى حد كبير وجوه الارمن الذين مازالوا يعيشون فى القطر الحيثى كما نرى فى الرسم الذى على اليمين

الجديدة ألفاظا أناضولية قديمة إلى جانب الألفاظ الهندو - أوروبية . كما اختلطت الاصطلاحات النحوية، وظلت هذه اللغة المختلطة مدى ألف سنة إحدى اللغات الهامة فى غرب آسيا . وسنسمى هذه اللغة المختلطة « اللغة الحيثية » لنميزها عن لغة عصر ما قبل مجىء الهندو - أوروبيين . كان الحيثيون عند غزوهم للأناضول قوما لا مدنية لهم ، ولم تنشأ الحضارة الحيثية إلا بتأثير من حضارات الهلال الخصيب . فنحن نذكر كيف كانت القوافل البابلية تسير محملة بالتجارة منذ عصر بعيد إلى آسيا الصغرى ، ونذكر أيضا كيف استقر بعض التجار الأشوريين هناك . وكان وجود هؤلاء التجار سببا فى تعلم الحيثيين أساليب المعاملات التجارية ، ثم تعلموا بعد ذلك قراءة الرقم التى كان يسطر عليها التجار قوائم البضائع وأصنافها والمراسلات التجارية التى كان يبعث بها التجار الأشوريون مع تلك السلع . وقد عثر على كميات هائلة من هذه الرقم فى المدن الحيثية ، كما عثر فى الحفائر منذ وقت غير بعيد على كثير من الرقم احتوت على معاجم تحوى صفحاتها ثلاثة أعمدة من الكلمات : الأول سومرى ، والثانى أشورى بابلى ، والثالث حيثى . وهكذا تعلم الحيثيون كتابة الكلمات الحيثية بالكتابة المسمارية . وأصبحت الرقم شائعة الاستعمال بين الحيثيين ، ومن

المرجح أن استعمال هذه الرقم [١] قد وصل إلى كريت عن طريق هؤلاء الحيثيين، وتقدم هؤلاء الحيثيون تقدما كبيراً فى حضارتهم بعد أن تعلموا الكتابة، ولم يأت عام ٢٠٠٠ ق. م. إلا وأصبحوا شعباً على جانب كبير من الحضارة والرقى، وصارت لهم القدرة الكاملة على منافسة الشعوب العظيمة فى الشرق الادنى. ونهضوا مرتين لينافسوا مصر وآشور، وسنطلق على أولى هاتين الفترتين العظيمتين الامبراطورية الحيثية الاولى (من حوالى عام ١٩٠٠ إلى ١٦٥٠ ق. م) وعلى الثانية الامبراطورية الحيثية الثانية (من حوالى عام ١٤٠٠ إلى عام ١٢٠٠ ق. م)

وأقدم ملك حيثى وصل إلينا اسمه هو «أنيتا» (Anitta)، الذى قام فى مدينة كوسار Kussar فى المنطقة الشرقية لآسيا الصغرى. ولعل ذلك كان عام ٢٠٠٠ ق. م ولا نعرف على وجه التحديد المنطقة التى قامت فيها تلك المدينة. ومن الواضح الجلى أن الحيثيين لم يكونوا إذ ذاك أمة واحدة، بل كونوا عدة ممالك مختلفة كانت مثل الممالك الأغريقية فى صراع دائم مع بعضها البعض. ولكن القيادة العليا لهذه الممالك آلت أخيراً إلى مملكة الختى[٢] Hatti التى كانت تقع داخل المنحنى الكبير لنهر الهاليس فى وسط آسيا الصغرى وعاصمتها تعرف بحاتوساس (Hattusas). وقد تمكن ملوك ختى Hatti من أن يخضعوا الممالك المجاورة وكونوا بذلك أمبراطورية صغيرة وفى أوائل القرن الثامن عشر قبل الميلاد تولى الملك فى حاتوساس ملك قدير هو الملك «مورسيل» (Mursil)، أول الملوك الذين يحملون هذا الاسم. وفى الأيام التى أخذ فيها خلفاء حورابى Hammurabi يضعفون كان مورسيل الأول هو الذى تقدم

---

١ ـ حوت الرقم الحيثية كثيرا من علامات الكلمات البابلية مما مكن العالم التشكوسلفاكى « بدفتش هروتزنى » Bedfich Hrozny أثناء الحرب العالمية الاولى من حل رموز اللغة الحيثية المكتوبة بالطريقة المسمارية وزادت معلوماتنا عن الحيثيين بعد ذلك زيادة مطردة. وقد أثبت العالم الالمانى أميل فورر Emil Forrer أن الرقم التى اكتشفت فى عاصمة الحيثيين تحوى أمثلة من سبع لغات الى جانب اللغة الحيثية

٢ ـ « الختى » هى أصل كلمة الحيثى والحيثيين التى وردت فى التوراة

مع نهر الفرات واستولى على بابل وأطاح بآخر فرد من أسرة حمورابى . بيد أن خلفاء مورسيل لم يكونوا مثله فى المقدرة فلم تلبث الأمبراطورية الحيثية الأولى أن سقطت قبل أن تصطدم بمصر .

وقامت الأمبراطورية الحيثية الثانية قرابة عام ١٤٠٠ ق . م . واستمرت لمدة قرنين من الزمان صاحبة السلطان والنفوذ فى آسـيا الغربية . وكان مؤسس هذه الأمبراطورية هو «سبّيلو ليوما» Suppilulyuma أكفأ قائد عرفته آسيا الغربية منذ حملات تحتمس الثالث ، تلك الحملات التى بدأت فى فترة تقل عن القرن قبل بدء حملات الحيثيين الهائلة . فلما تقدم سبّيلو ليوما فى سوريا وعلى شواطىء الفرات بعد عام ١٤٠٠ ق . م أخذ يقضى على نتائج الانتصارات التى أحرزها سلفه المصرى فى تلك البلاد . ولم يكن هناك تحوتمس آخر ليرد عدوان هذا القائد الحيثى القوى . بل كانت هناك ثورة الملك أخناتون التى أضعفت من روح المصريين الحربية وأسلمتهم لليأس فلم يكن فى مقدورهم عمل شىء إلا أن يرقبوا تقدم الحيثيين فى سوريا واخضاعهم لها ، ثم ضمها إلى الأمبراطورية الحيثية . وعبر سبّيلو ليوما الفرات بعد ذلك ودحر قوات الميتانى ، وهكذا أصبح الفاتح الحيثى مسيطراً على جزء كبير من آسيا الغربية . وهناك رقيم له أهمية خاصة عثر عليه مع الرقم التى اكتشفت فى العاصمة الحيثية «حاتوساس» وهو رسالة جديرة بالاعتبار كتبت بالمسمارية موجهة إلى الأمبراطور الحيثى من إحدى ملكات مصر[1] وهى إما كانت أرملة إخناتون أو إبنته الثالثة التى تزوجت بتوت عنخ أمون ،

وهذه الرسالة دليل قاطع على سطوة وقوة الفاتحين الحيثيين لأن الملكة المصرية تقول له فى رسالتها ، أن ليس لها ولد ليخلف أباه المتوفى على العرش وترجو الحاكم

---

١ — يتجه أكثر الباحثين فى السنوات الاخيرة الى الايمان بأن تلك الملكة هى نفرتيتى ، وأنها فعلت ذلك بعد موت اخناتون عندما رأت بوادر انتصار أعدائه وانهيار حركته الدينية . (المعرب)

الحيثى أن يرسل إليها أحد أبنائه زوجا لها وملكا على مصر ،

ولو تم هذا الزواج لأصبحت للأسرة الملكية الحيثية حينئذ السلطة العليا على الأمبراطوريتين المصرية والحيثية ، ولأصبحت هاتان الأمبراطوريتان مجتمعتين أعظم أمبراطورية عرفها التاريخ . بيد أن الشك ساور الأمبراطور الحيثى فى أمر هذا العرض الغريب الذى تقدمت به الملكة المصرية ، وأراد أن يستوثق من الأمر قبل أن يبعث بابنه إلى مصر . ولكن عندما استقر رأيه على إرسال أحد أبنائه كان الوقت متأخراً جداً وفشل كل شىء . فعندما كان الأمير الحيثى الشاب فى طريقه إلى مصر كان أعداء أسرة اخناتون الأقوياء قد أطاحوا بالملكة الأرملة ، وألقوا القبض عليه وقتلوه . وهكذا خسر سبيلوليوما فرصة استيلائه على مصر دون حرب أو بذل أى مجهود .

وكان لديه أبناء آخرون . فتوجهم ملوكا على أهم البلاد فى سوريا وبهذا جعل الطرف الشمالى للأمبراطورية المصرية جزءاً من الأمبراطورية الحيثية . وفى الجنوب امتدت امبراطوريته حتى فلسطين ، التى ظلت تحت حكم مصر . أما فى الغرب فإنه عبر الفرات وامتدت حدوده حتى شملت جزءاً عظيما من دولة الميتانى ، كما امتدت حدوده الشرقية فى وقت من الأوقات حتى وصلت إلى أشور . أما فى الشمال والغرب فقد شملت الأمبراطورية الحيثية الثانية معظم آسيا الصغرى ، وأحست مدينة طروادة التجارية التى كانت تتمتع بقسط كبير من السطوة بضغط قوة الحيثيين، إذا لم تكن قد أصبحت تحت السيادة الحيثية ودانت بالولاء لأمبراطورها .

وهكذا باتت الأمبراطوريتان المصريةوالحيثية ندتين متنافستين فى سبيل الوصول إلى مركز الصدارة فى العالم ، وكانت منافسة عنيفة قوية بينهم استلزمت حرباً دامت أكثر من ربع قرن من الزمان بين أحفاد سبيلوليوما وبين الفراعنة سيتى الأول ورمسيس الثانى . وعندما كانت الحرب محتدمة بين الفريقين وخاصة بعد عام

١٣٠٠ ق . م ، بدأت دولة أشور فى نهضتها فسبب ذلك مضايقة للحيثيين . وأخذوا يعقدون المعاهدات بينهم وبين الملوك الموالين لهم فى سوريا، ينص فيها هؤلاء الملوك على أنهم يعتبرون الأشوريين أعداء لهم ويعاملونهم معاملة الأعداء ، ومن بين الرقم التى اكتشفت فى حاتوساس توجد نسخة من رسالة جديرة بالاهتمام يحث فيها الأشوريون الملك الشاب فى بابل ليهاجم أشور من الخلف .

وعندما نشبت الخلافات بين الحيثيين أنفسهم عقد حفيد سبيلو ليوما واسمه حاتوسيل Hattusil معاهدة صلح مع رمسيس الثانى وهكذا انتهى الصراع بين هاتين القوتين وقامت علاقات وثيقة بين الاسرتين المالكتين ، وتبادل ملكات مصر وملكات خيتا رسائل التهنئة على المعاهدة السلمية الجديدة ، وهذه الرسائل مكتوبة على رقم ويرجع تاريخها إلى حوالى عام ١٢٧٠ ق . م ، وعثر عليها الباحثون بين السجلات والمدونات الملكية التى استخرجت من خرائب العاصمة حاتوساس (بوغازكوى) . وبعث الامبراطور الحيثى بعد ذلك بابنته إلى مصر لتصبح زوجا لرمسيس الثانى . ورسم نحاتو رمسيس مناظر تمثل وصول العروس الحيثية على المعابد المصرية . بل إن بعض هذه المناظر رسم على أحد معابد هذا الملك (معبد أبو سمبل) على مقربة من الشلال الثانى .

لقد وصلت حضارة الامبراطورية الحيثية الثانية إلى مستوى عال من الرقى . وكان لها أثر كبير فيما حولها ولنتحدث عن أهم ما حققته .

نشأت الدولة الحيثية عن مجموعة كبيرة من الدويلات الضعيفة التى أخضعتها دويلة (ختى) ، وكان على كل دويلة من هذه الدويلات أن تقدم لجيش الامبراطور بعض المشاة وراكبى العربات فتكونت قوة الامبراطور الحربية من هذا الجيش المختلط بالإضافة إلى الجنود الذين يجمعهم هو نفسه من مملكته . أما الحكومة فإنها كانت تطبق مجموعة حكيمة من القوانين وكان الملك نفسه مقيداً بنصوصها ، ومما

يدل على تقدم الحضارة الحيثية أنه بعد توقيع معاهدة الصلح مع مصر رأى أحد ملوك الحيثيين (ربما كان الملك حاتوسيل) أن يدخل تعديلات جديدة على هذه القوانين جعلتها أكثر رحمة وإنسانيـــة عما كانت عليه من قبل ، وبقى من هذه اللائحة حوالى مائتى بند وهى جزء غير قليل من هذا القانون وهى مكتوبة على رقم وكثيراً مايشير فيها الملك إلى العقوبات القديمة التى كانت أكثر عنفاً وشـــدة ، وما أدخله عليها فصارت أكثر رحمة وأخف وطأة . كانت عقوبة سرقة رأس من الغنم تبلغ غرامة قدرها ثلاثون رأسا ، أما الآن طبقاً للقانون الجديد فقد خفضت هذه الغرامة إلى خمسة عشر رأساً فقط . ولم تطبق عقوبة الإعدام فى جرائم القتل ولا شك أن هذا القانون الحيثى كان أكثر عطفا ورحمة من القانون الآشورى . وكان أعظم شفقة وإنسانية من قوانين بابل أو مصر . وهذا الاحترام الذى أظهره الملوك الحيثيون نحو القانون أمر جدير بالإعجاب ، ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن سيلوليوما قد اعترف فى إحدى كتاباته بأن غزوه للأمبراطورية المصرية فى سوريا كان غزواً غير مشروع ، وأن الوباء الذى انتشر بين شعبه بعد ذلك كان جزاء عدلا من الآلهة عما أتاه .

ولا ريب فى أن هذه العقلية المستنيرة التى قادت خطى الملوك الحيثيين كان لها أثر كبير فى التقدم الملحوظ الذى حققه الحيثيون فى ميادين أخرى غير ميادين السياسة فقد بنى المعماريون الحيثيون أقدم مبانى هامة من الحجر فى آسيا . كما أن مدينة حاتوساس ذات الأسوار القوية المنيعة كانت فى الواقع أول مدينة كبيرة نشأت فى تلك القارة إذ فاقت مدينة بابل التى كانت معاصرة لها فى الاتساع ، أما مدينة نينوى التى أقامها الأباطرة الأشوريون فقد كان أمامها قرابة ستة قرون أوسبعة حتى تظهر فى الوجود .

وخير ما تظهر فيه عبقرية المهندسين الحيثيين هو ذلك الطراز المعمارى الجديد الذى أدخلوه على واجهة قصر الملك . وكانت هذه تتكون من ايوان مسقوف فى

الوسط ، يحمل سقفه عمودان ، وعلى كل جانب من الايوان برج مربع . وأطلقوا على هذا المبنى اسم « المنزل ذو البرجين » وقد اقتبس الملوك الأشوريون هذا الايوان وأدخلوه فى عمارة قصورهم . ثم وصل أخيراً إلى الفرس .

وعرف المهندسون الحيثيون أهمية النحت فى تزيين مبانيهم . فأقاموا على جانبى المدخل الرئيسى فى قصر الملك تمثالين من الحجر لأسدين حارسين على جانب كبير من الدقة والجمال . وفكرة تماثيل أوصور الحيوانات الحارسة مأخوذة عن المصريين الذين كانوا يصنعون تماثيل أبو الهول الذى اقتبسه الحيثيون عن المصريين أيضاً .

وزينوا الجدران بعمل افريز سفلى للحائط يتكون من قطع كبيرة مستوية من الحجر تنحت فيها صور بارزة . نقل الحيثيون هذه العادة إلى أشور . كما نقل الحيثيون أنفسهم رموزاً ذات قيم فنية ودينية عن مصر وبابل . فنجد مثلا بين الصور البارزة الحيثية قرص الشمس المجنح المصرى كما نجد رمز البابليين القديم وهو النسر الذى يفرد جناحيه ورأسه على هيئة رأس أسد وفى بعض الأحيان له رأسان أما قرص الشمس فقد انتقل شرقاً إلى الأشوريين والفرس ، وأما النسر فقد عبر البحر الأيجى واتجه صوب الغرب إلى أوروبا فيما بعد ومنها إلى الولايات المتحدة حيث أصبح النسر الأمريكى .

وتعتبر رقم الأباطرة الحيثيين أقدم قصص تاريخية تميزت بأسلوب أدبى ومكتوبة نثرا . فقد كان الكتاب الحيثيون يولون الأدب عظيم اهتمامهم ، وأدى بهم هذا الشغف إلى حب استنساخ المؤلفات البابلية القديمة وإقبالهم عليها . لقد كانت قصة البطل البابلى جلجمش (Gilgamesh) ذائعة معروفة فى جميع أنحاء آسيا الصغرى . وإلى جانب المؤلفات الدينية كان هناك أيضاً بعض أبحاث خاصة مثل ذلك البحث فى تربية الخيل الذى اقتبسه الحيثيون عن الميتانيين . وعلى عكس الكتاب الذين ظهروا فى الحضارات العظيمة الأخرى حرص الكتاب الحيثيون

على أن يعرفهم الناس بأنهم مؤلفون فأضافوا أسماءهم إلى مؤلفاتهم . فكانوا بذلك أقدم المؤلفين الذين شعروا بكيانهم كما يفعل الآن الكتاب المحدثون .



شكل : ٧٣ ـ أمير حيثي يصطاد أيلا

يقف الامير الحيثى فى العربة والى جانبه سائقها ، ويرمى الامير بسهمه ذكر الايل بينما يجرى كلب الصيد الى جانب الجوادين . والمنظر منقوش على حجر وهو بوجه عام مثل لابأس به للفن الحيثى . وفى أعلى الصورة كتابة باللغة الهيروغليفية الحيثية

وعندما بدأ الأباطرة الحيثيون فى تشييد المبانى الحجرية شعروا بحاجتهم الماسة إلى خلق طراز للكتابة يلائم الآثار الضخمة الهائلة لتزيين المبانى بالكتابات التاريخية كما فعل المصريون ، ولهذا ابتدعوا طريقة فى الكتابة أساسها استعمال الصور كعلامات ، ولا زالت بعض هذه الكتابات التاريخية التى كتبوها بهذه العلامات الهيروغليفية الجديدة . نراها على واجهة الصخور وعلى الجدران القائمة يشاهدها المسافرون فى منطقة متسعة من آسيا الصغرى من البحر الأيجى إلى الفرات ، ورغم أن هذه الكتابات الهيروغليفية التى كتبها الحيثيون لم تحل حتى الآن

حلا تاماً فإن الباحثين تقدموا فى ذلك تقدماً يستحق الإعجاب [١] .

وتوحى إلينا المدونات الحيثية باحتمال وجود عناصر مصرية وبابلية فى الديانة الحيثية. فقد عبد الحيثيون مجموعتين عظيمتين من الآلهة : آلهة الأرض وآلهة السماء. فإلى جانب « الأرض الأم » كان لديهم أيضاً إله للشمس التى آمن بها الحيثيون إيماناً صادقاً . وكان هذا الإله الأخير على جانب كبير من الأهمية جعلت الامبراطور الحيثى يسمى نفسه « الشمس » .



شكل ٧٤ : حلية بارزة من الفضة عليها نقش مسمارى ونص هيروغليفى حيثى .

كتب صانع هذا الطبق النص الآتى حول حافته باللغة الحيثية مكتوبا بالمسمارية « تاركونديموس ملك دولة مرا » . وعلى جانبى رسم الملك نرى نقشين بالعلامات الهيروغليفية الحيثية . ويرى الدكتور اجنيس جلب Dr. Ignace Gelb من علماء المعهد الشرقى ان لهذا النقش أهمية عظمى لان ترجمة النص الهيروغليفى هى : «تاركونديموس ملك دولة مرا» وبعبارة أخرى فان نقوش هذه الحلية الفضية المستديرة ليست الا نصا حيثيا واحدا مكتوبا بلغتين اى أنه مماثل لحجر رشيد فى مصر ونقش داريوس فى بهستون . فاذا حددنا قراءة بعض العلامات الهيروغليفية فانه يصبح من الميسور الانتفاع والاستعانة بها فى قراءة النصوص الاخرى وبمثل هذه الطريقة البطيئة المضنية يجتهد العلماء فى تحديد نطق أو معنى بضع علامات قليلة الى أن يأتى اليوم الذى يتمكنون فيه من حل جميع الغاز الكتابة الحيثية الهيروغليفية

١ يختلف الباحثون فى تحديد الزمن الذى ظهرت فيه الكتابة الحيثية الهيروغليفية ولو ان غالبيتهم يميلون الى الاعتقاد بانها لم تظهر حتى نهاية الامبراطورية الحيثية الثانية . وعلى اية حال فهناك ما يمكن أن يثبت أن ظهورها سبق قيام الامبراطورية الثانية .

ووصلت الحضارة الحيثية إلى ذروة ازدهارها فى الوقت الذى كانت فيه الأمبراطورية المصرية فى أوج عظمتها ، وفى الفترة نفسها التى كانت فيها « كنوسوس » Cnossus فى جزيرة كريت فى عصرها المجيد ، ويوم كانت طروادة فى غرب آسيا الصغرى قد بنت مدينتها السادسة العظيمة . ولما كانت الحضارة الحيثية تقع بين الحضارتين العظيمتين حضارة جنوب أوروبا وحضارة الشرق الأدنى ، فقد كانت همزة الوصل بين الطرفين وكان أثرها على الشعوب الإيجية تأثيراً مستمرا . فقد تلقى الأغريق عن العالم الحيثى مبادىء الفن ، وأصول المعمار كما اقتبسوا منه بعض العقائد الدينية .

وهناك أمر آخر له دلالته الكبرى وهو أن الحيثيين ، كانوا أصحاب الفضل فى نشر استعمال الحديد فى جميع أنحاء الشرق الأدنى . ويجب علينا ألا نخطىء الفهم ونعتقد أن مهمة الحيثيين اقتصرت على نقل الحضارات بين الأمم فإننا رأينا كيف ساهم الحيثيون بنصيب وافر فى حضارات الشرق الأدنى القديمة ، وقدموا له كثيراً من المبتكرات الجديرة بالاعتبار . واقتبس الأشوريون كثيراً منها ثم انتقل منهم إلى الفرس ، وهم شعب من الجنس الهندو — أوروبى الذى سكن فى غرب آسيا ، ولنبدأ حديثنا عنهم الآن .

الشعوب الآرية والنبى الايرانى زرادشت

أجمع الباحثون على أن القبائل الشرقية من النطاق الهندو ـ أوروبى كانت ترعى قطعانها فى منطقة المراعى العظيمة فى شرق بحر قزوين قرابة عام ٢٠٠٠ ق . م بعد أن تركت موطنها الأصلى ؛ وفى هذا الوطن الجديد كونوا شعباً يطلق عليه بحق اسم الشعب الآرى (١) ، وجعلوا من هذه المنطقة وطناً لهم لفترة من الزمن .

ولم يعرف الآريون الكتابة ، ولم يتركوا آثاراً لهم . ورغم هذا فإن معتقدات أحفادهم ترينا أن القبائل الآرية كان لها فى ذلك الحين ديانة رفيعة المستوى لخصت كل السلوك الانسانى فى أنه « أفكار طيبة ، أعمال طيبة » ولعبت النار دوراً هاماً فى هذه الديانة ، وكان لديهم جماعة من الكهنة أطلقوا عليها اسم « مشعلى النار » .

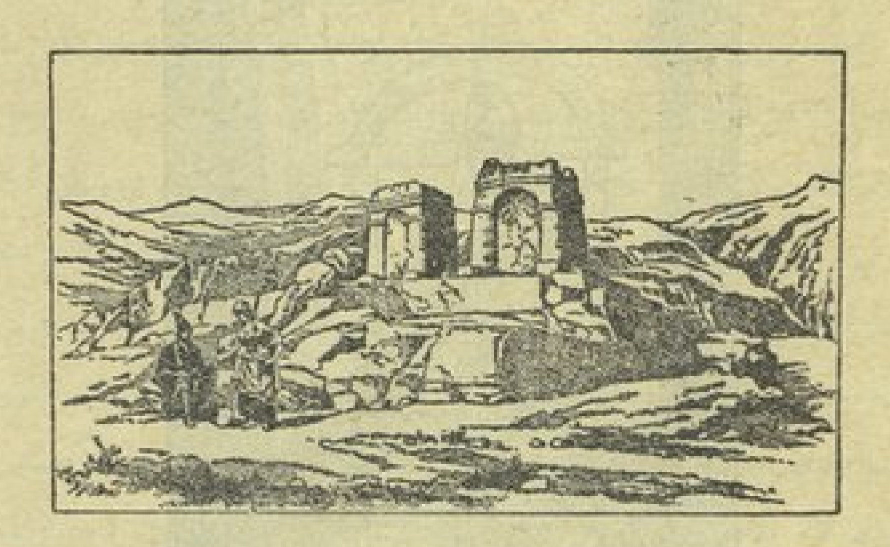
وعندما تشتت شمل الآريين . ولعل ذلك كان حوالى عام ١٨٠٠ ق . م انقسموا إلى مجموعتين فاتجهت القبائل الشرقية نحو الجنوب الشرقى واستقرت آخر الأمر فى الهند ، وفى كتبهم المقدسة المسماة وبالفيدا Vedas والتى كتبت باللغة السنسكريتية ، يتردد صدى أيام الوحدة الآرية ، كما احتوت هذه الكتب على كثير من الاشارات إلى الوطن الآرى القديم شرقى بحر قزوين .

---

١ ـ من المحتمل جدا أن الشعب الهندو ـ أوربى الاول لم يكن له اسم يطلق على جميع قبائله ، ونطلق كلمة « آرى » في بعض الاحيان تجاوزا على الشعب الاول هذا ،

ولكن ليس لهذا الاستعمال أساس من الصحة ، فان صفة آرى (التى جاءت عنها فيما بعد لفظة ايران ، وايرانى) تدل على جماعة من القبائل ماهم فى الواقع الا جزء من الشعب الاول ، انفصل عن ذلك الشعب واستوطن المنطقة التى تقع شرق بحر قزوين مباشرة ، ويجدر بنا أن نذكر عندما نسمع لفظة آرى يطلقها بعض الناس على الشعوب الاوروبية التى من أصل هندو ـ أوروبى أو يقول بعضهم أننا من سلالة آرية يجب ان نذكر أن هذا التعبير خطأ من الناحية التاريخية رغم كثرة استعماله ، وذلك لان الآريين ينتمون الى القبائل الشرقية من الشعب الهندو ـ أوروبى الاول ، أما الاوروبيون والامريكيون فينتمون الى القبائل الغربية من هذا الشعب ، أى أن الآريين هم أبناء عمومة الاوروبيين لا أجدادهم

واحتفظت قبائل الجماعة الثانية بلفظة « آرى » فى كلمة إيران ولذا نسميهم الآن إيرانيين . وهجر هؤلاء أيضا الوطن الآرى واتجهوا نحو الغرب والجنوب الغربى خلال الجبال التى تحد الهلال الخصيب ، وكان حكام الميتانيين قبيلة من مجموعة تلك القبائل الايرانية . وإذا توغلنا شرقا نجد جماعتين من الايرانيين[1] على جانب كبير من القوة . هما الميديون والفرس ، الذين قدر لهم أن يخضعوا الهلال الخصيب وأن يؤسسوا آخر امبراطورية شرقية عظيمة فى غرب آسيا .

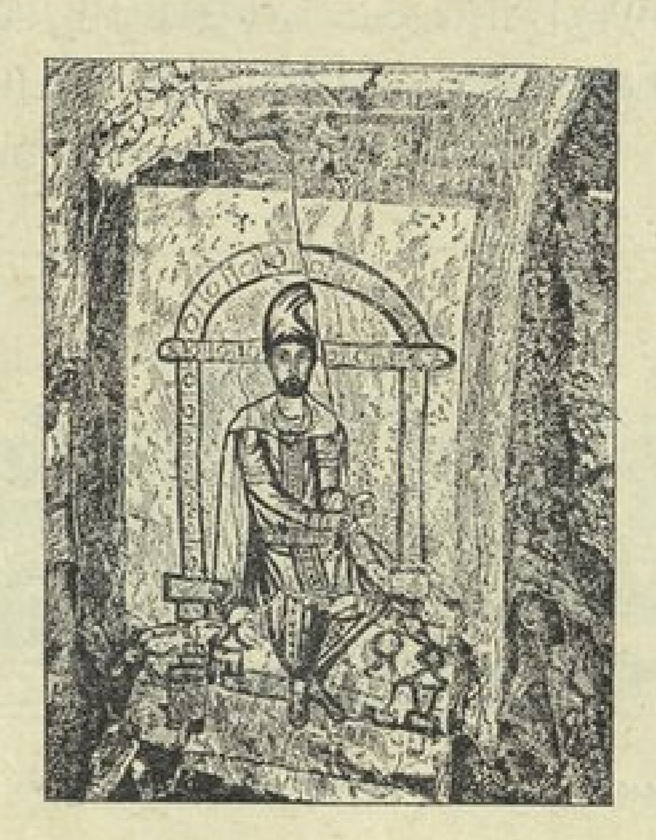


شكل ٧٥ : مذابح للنار على مقربة من مدينة برسبوليس من عهد الفرس القدماء

وقد رأينا قبل الآن كيف كانت الشعوب التى تقطن الجبال المحيطة بالطرف الشرقى للهلال الخصيب خطرا دائما منذ أقدم العصور ، يهدد سلامة سكان بابل وآشور ، ويذهب بطمأنينتهم . وكانت مملكتا عيلام ، وأورارتو Urarto بوجه خاص عدوتين خطرتين لآشور مما حدا بالأباطرة الأشوريين الى شن غزوات متوالية لنهب هذه البلاد حتى تمكنوا أخيراً من كسر شوكتها والقضاء عليها . ولعل

١ – لقد أطلق اسمهم على الهضبة الايرانية العظيمة بأسرها ، تلك التى تمتد من جبال زاجروس فى الغرب حتى نهر الهند شرقا . ولقد عرفت هذه المنطقة جميعها لدى الاغريق والرومان باسم أريانا Ariana تلك التسمية (مثل ايران) المشتقة بالطبع من لفظة آرى

آشور ارتكبت خطأ جسيما بهذا العمل لأنه ربما أمكن لهذه البلاد بما كان لديها من القوة ما يجعلها تصد تقدم الهنــدو ـ أوروبيين وأن تكونا دولة تحمى حدود الأشوريين والكلدانيين .



شكل ٧٦ : رسم ملون ، يحتمل ان يكون لزرادشت

عثر على هذا الرسم الملون فى معبد للاله « متراس » فى دورا على الفرات وقد كشفت عن هذا المعبد بعثة مشتركة من جامعة ييل والاكاديمية الفرنسية للنقوش والفنون الجميلة برئاسة الاستاذ كلارك هوبكنز Professor Clark Hopkins

(باذن من قاعة الفنون الجميلة بجامعة ييل)

ولما كانت الشعوب التى على الحدود قد أضعفتها غزوات الاشوريين فلم يلق الميديون أى عناء أو مقاومة ، واستطاعوا حوالى عام ٧٠٠ ق . م تقريبا تأسيس امبراطورية إيرانية قوية فى الجبال التى تقع شرقى نهر دجلة ، وأخيراً امتدت هذه

الامبراطورية من الخليج الفارسى حيث شملت بلاد فارس، وتتجه صوب الشمال الغربى مع سلسلة الجبال حتى منطقة البحر الأسود وبذلك أصبحت واجهة الجناح الشرقى للهندو ـ أوروبيين موازية إلى حد ما لنهر دجلة فى هذا المكان ولكنهم واصلوا تقدمهم وامتد هذا الجناح إلى مسافات أبعد فيما بعد، وأسس الميديون مدينة إكباتانا Ecbatana وجعلوها عاصمة لهم. وتقع هذه المدينة فى واجهة الممر الذى يخترق جبال زاجروس مؤدياً إلى الهلال الخصيب مباشرة، وإلى مدينة بابل رأساً.

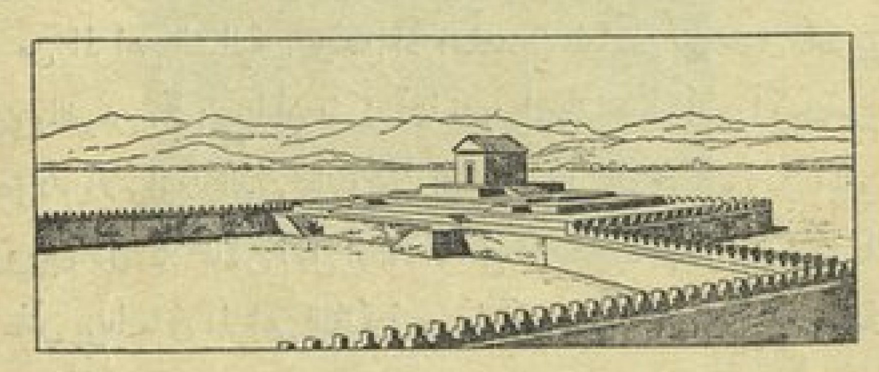
وبعد مرور قرن من الزمان، توجس نبوخذ نصر وخلفاؤه فى بابل خيفة من الميديين الاقوياء، عائدين بأذهانهم دون شك إلى عام ٦١٢ ق. م. حين سارع هؤلاء الميديون إلى الاتحاد مع غيرهم واشتركوا فى مهاجمة نينوى وكان الكلدانيون على نهر الفرات يمثلون زعامة الدم السامى الذى قدم أهله من المراعى الجنوبية، ولكن هذه الزعامة كانت على وشك التخلى عن مكانها لزعامة الدم الهندو ـ أوروبى القادم من المراعى الشمالية، ونحن اذ نشاهد الكلدانيين يفسحون الطريق أمام الميديين والفرس، يجدربنا أن نذكر أننا نشهد انقلابا خطيرا بين الأجناس المختلفة وأن هؤلاء الايرانيين الذين على وشك السيطرة على الشرق كانوا من ابناء عمومة الأوروبيين لأن كلاهما من نسل الرعاة الرحل أو الشعب الهندو ـ أوروبى الأول، الذى عاش يوما ما فى المراعى النائية فى وسط آسيا، منذ خمسة آلاف سنة مضت على وجه التقريب.

وكان لجميع هؤلاء الايرانيين ديانة جميلة آلت اليهم منذ العهود الآرية القديمة التى سبقت هجرتهم. وبعد جيل من سقوط نينوى ـ وربما كان ذلك قرابة عام ٥٧٠ ق.م ـ ولد نبى ميدى يدعى زرادشت [١] وشرع هذا النبى فى تأمل حياة

---

١ ـ كان هناك خلاف فى الرأى فى تحديد وقت ظهور زرادشت وقبل الكثيرون تواريخا متتالية فى القدم، ولكن اتفقت آراء الباحثين اخيرا على أنه عاش فى القرن السادس ق.م

الناس بغية الوصول إلى ديانة جديدة تلائم حياتهم وتسد حاجتهم ، تأمل زرادشت الصراع المستمر بين الخير والشر ، هذا الصراع الذى كان يراه حوله أينما سار والذى رآه ممثلا فى ديانة الشعب الميدى وفى عقائدهم وفى آلهتهم القدماء . وبدا له أن هذا الصراع قائم بين مجموعة من قوى الخير ومجموعة من قوى الشر ، واعتقد أن الخير ليس إلا كائناً إلهياً أطلق عليه اسم مازدا Mazda ، الذى كان إسماً لأحد الآلهة القدامى أو « أهورا مزدا » Ahurmazda ومعناها « رب الحكمة » الذى رأى فيه أنه هو « الله » وكان يحيط بأهورا مزدا جماعة من الأعوان يشبهون الملائكة وكان أعظمهم مكانة هو « النور » ويدعى « مثرا » Mathra ، ويقف ضد أهورا مزدا وأعوانه جماعة شريرة ترأسها روح شريرة قوية أطلقوا عليها اسم « أهريمان » Ahriman وهو الذى أخذه اليهود ثم المسـيحيون من بعدهم وعرفوه تحت اسم « الشيطان » .



شكل ٧٧ ـ أقدم معبد فارسى ، كما كان يوم تشييده

كشف الاستاذ هرتزفلد Herzfeld عن بقايا هذا المعبد فى مدينة بازار جاده Pasargadae ويعتقد أن الملك قورش Cyrus هو الذى شيده ، ويقوم هـذا المعبد على مقربة من قصر الملك وقبره فى تلك المنطقة (عن هرتزفلد Herzfeld)

وهكذا نشأت عقيدة زرادشت من الصراع القائم فى الحياة عينها . ولذا أصبحت قوة هائلة فى هذه الحياة . وكانت هذه الديانة من أنبل الديانات التى ظهرت فى العالم ، دعت هذه الديانة كل إنسان وأهابت به أن يختار أحد الطريقين ـ إما أن

يملأ قلبه بالخير والنور أو ينغمس فى الشر والظلمة وسواء اتخذ الانسان هذا السبيل أم ذاك ، فإنه سيلاقى جزاءه ويحاسب على ما أتاه . وكانت هذه العقيدة أقدم ديانة ظهرت فى آسيا تقول بالحساب بعد البعث . ولم تكن دعوة زرادشت إلا سموا بالعقائد القديمة التى كانت منتشرة بين أهله ورفعاً لآلهتهم القديمة إلى المثل الأعلى . ولهذا أبقى زرادشت على احترام الآريين للنار وعبادتهم لها على أنها رمز ظاهر للخير والنور كما احتفظ أيضاً بفكرة الكهنة مشعلى النار .

ولما لم يستطع زرادشت أن يؤثر فى قومه بدعوته الجديدة هجر الميديين وذهب إلى الفرس يدعو إلى دينه الجديد ولعله لم يجد فى السنوات الأولى إلا القليل من الاستجابة اليه ، إذ تتضح آماله ومخاوفه فى تلك المجموعة الصغيرة من التراتيل التى تركها ، وهى ـ على الأرجح ـ كل ما وصل الينا من أقوال ذلك النبى ، ونحن نعرف شدة شغف الآريين بتربية الخيل، ولهذا لا ندهش عندما نقرأ أن زرادشت استطاع أخيراً أن يجعل أحد الملوك الأقوياء يؤمن به عندما شفى جواداً كسيحاً كان الملك يعتز به . وقبل أن تحين ساعة هذا النبى كانت عقيدته الجديدة قد لاقت نجاحا كبيرا وثبت قدمها ، ولم يحل عام ٥٠٠ ق . م حتى كانت الزرادشتية هى الديانة الأولى بين الإيرانيين ، كما قبلها أباطرة الفرس أيضاً . وليس من المستبعد أن يكون الملك دارا شيد مقبرة هذا النبى . ولسنا نعرف من أقوال زرادشت غير التراتيل التى ذكرناها آنفاً وإلى جانبها بعض تعاليمه التى احتفظت بها بعض المؤلفات التى جمعت فى العهد المسيحى المبكر بعد وفاة هذا النبى بعدة قرون . ويجمع هذه التراتيل كتاب الأبستا (الابستاف) Avesta الذى يمكننا أن نسميه « إنجيل الفرس » .

قيام الأمبراطورية الفارسية

لم يتحمس شعب من الشعوب لديانة زرادشت كما فعلت مجموعة القبائل الايرانية التي نسميها « الفرس ». وقد آلت الينا عن طريقهم معلوماتنا عن هذه الديانة. سقطت دولة العيلاميين على إثر غزو الأشوريين لها فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد فتعرضت عيلام للغزو الخارجى ، وتمكن الفرس من احتلالها ، وعند سقوط نينوى عام ٦١٢ ق . م . كان الفرس ينعمون بالاستقرار فى المنطقة التى تقع فى الطرف الجنوبى لجبال زاجروس ، وشمال الخليج الفارسى وشرقه مباشرة . وشواطىء هذه المنطقة لا تبعد كثيراً فى طبيعتها عن حال المناطق الصحراوية بيد أن الوديان التى تتخلل الأراضى الجبلية البعيدة عن الساحل كانت وديانا غنية اخصبة . وفى هذه الوديان احتل الفرس منطقة تبلغ الأربعمائة ميل طولا وكانو أهل جبال أقوياء تغلب عليهم الفظاظة ويحيون حياة زراعية مستقرة لا توجد فيها أية منظمات جديرة بالاعتبار ، ولم يكن لديهم فن أو كتابة أو أدب ، ولكن أذهانهم كانت ملأى بذكريات ماضيهم ، فبينما كانوا يقومون بحرث حقولهم أو رعى قطعانهم كانوا يقصون قصصاً يروون فيها أعمال أسلافهم وتقص تاريخ عقيدتهم القديمة التى كانوا يؤمنون بها .

وقبلوا أن يكونوا تحت ولاية أبناء عمومتهم الميديين الذين كانوا يسيطرون على البلاد الواقعة فى شمالهم الغربى ، ثم جاء الوقت الذى نظمت فيه إحدى القبائل الفارسية التى كانت تقطن جبال عيلام أمورها وأصبحت مملكة صغيرة اسمها « أنشان » Anshan . وبعد أن مر ستون عاما تقريباً على سقوط نينوى كان يحكم أنشان ملك فارسى يدعى قورش Cyrus ، استطاع أن يجمع شمل القبائل الفارسية الأخرى فى أمة واحدة . وهكذا ثار قورش على حكم الميديين . فجمع

جنوده الفلاحين واستطاع بعد ثلاث سنوات أن يهزم الملك الميدى وأن يجعل من نفسه سيداً للمناطق الميدية بأسرها . ولفتت أعمال قورش أنظار الغرب وأخذوا يرقبونه وقلوبهم ممتلئة بالاعجاب والخوف .

كانت الحيوية المتدفقة فى هـذا الفاتح الجديد لا ينضب لها معين . أما حيوية جنوده الفلاحين فقد كانت متدفقة طاغية لا يستطيع صدها أحد ، ويبدو أن الفلاحين الفرس كانوا رماة مهرة ، وكانت الغالبية العظمى فى الجيش الفارسى من الرماة ، الذين كانت عاصفة سهامهم التى يطلقونها على العدو من مسافة كبيرة تغمر الأعداء قبل أن يلتحموا بهم ويقاتلوهم يداً بيد . وبعد ذلك تتقدم فصائل الفرسان الفارسية المدربة ، التى كانت تبق حول جانبى الجيش ، فإذا جاءت لحظة الهجوم هجموا وأكملوا القضاء على العدو ، وقد تعلم الفرس هذه التنظيمات من الأشوريين ، أعظم من عرفهم الشرق كجنود محاربين .

وعقدت الدول العظمى ، بابل (كالديا) ومصر ، وليديا ، تحت حكم الملك كروسس Croesus فى غرب آسيا الصغرى . وحتى إسبرطه فى بلاد الأغريق ، فيما بينها تحالفاً قوياً ضد هذا الخطر المفاجىء الذى ظهر وكأنه نور شهاب ثاقب فى سماء الشرق . ولم يضيع قورش لحظة واحدة فباغت كرسس بهجوم مفاجىء فى ليديا ، لأنه كان صاحب الفكرة فى إنشاء هذا الحلف ، ثم تتابعت انتصارات الفرس فسقطت ساردس Sardes عاصمة ليديا عام ٥٤٦ ق . م ووقع كروسس أسيراً بين يدى قورش . واستولى قورش أيضاً على الشواطىء الجنوبية فى آسيا الصغرى . وهكذا امتدت سيادة المملكة الفارسية الصغيرة فأصبحت فى مدى خمس سنوات صاحبة الصدارة فى العالم الشرق ، وأصبحت تحكم المنطقة من جبال عيلام حتى البحر الأبيض المتوسط بما فى ذلك آسيا الصغرى أيضاً .

وعندما اتجه قورش شرقا ، لم يجد عناء فى هزيمة الجيش الكلدانى الذى كان

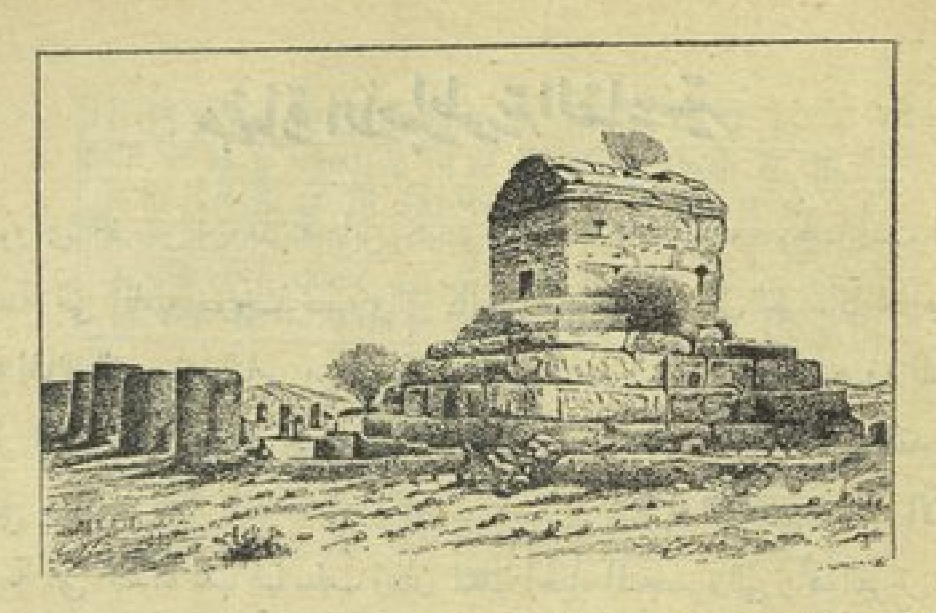
يقوده ولى العهد الشاب « بلشاصر » Belshazzar ، الذى ورد اسمه فى سفر دانيال (الإصحاح السابع) وأصبح اسماً معروفاً لكل شخص فى العالم المسيحى . أما الأسوار الضخمة العالية التى أقامها نبوخذ نصر لحماية بابل فإنها لم تدفع عنها غائلة الهجوم ، وسقطت المدينة عام ٥٣٨ ق.م. أمام هجمات الفرس دون مقاومة تذكر .

وهكذا ، لم يمض على سقوط نينوى إلا أربعة وسبعون سنة فقط حتى نشب الصراع بين سكان الأراضى العشبية الشمالية وأهل الأراضى العشبية الجنوبية ، وانهار الشرق السامى تماماً أمام زحف القوى الهندو — أوروبية .

وأسس قورش عاصمته وأقام قصره عند بازارجاده Pasargadae حيث تم الكشف عن بقايا قصر هذا الفاتح العظيم . فنجد على إحدى الصور البارزة التى عثر عليها الجزء الأسفل من صورة الملك ، وعلى طيات لباسه نرى نقشاً مكتوباً بالعلامات المسمارية نقرأ فيه الكلمات الآتية : « قورش ، الملك العظيم » .

وفى هذا المكان أيضاً أقام قورش معبداً للديانة التى نادى بها زرادشت الذى كان مازال حياً فى أيام قورش وبعد مضى تسع سنوات على سقوط بابل ، خر قورش ، أول فاتح عظيم من الجنس الهندو — أوروبى ، صريعاً فى ميدان الوغى (عام ٥٢٩ ق.م.) أثناء قتاله مع البدو القاطنين فى شمال إيران ، ووضع جثمانه بما يليق به من احترام وإجلال فى مدينة بازارجاده فى قبر ضخم يؤثر فى نفس الناظر إليه ببساطة عمارته ، وقد رآه الإسكندر الأكبر فى ذلك المكان بعد انقضاء مائتى سنة .

صار غرب آسيا بأسره فى قبضة الملك الفارسى . وفى عام ٥٢٥ ق.م. أى بعد أربع سنوات فقط على وفاة قورش غزا ابنه قمبيز أرض مصر ، وبعد انتصار الفرس على آخر دولة قويه فى الشرق ، أصبحت حدود الأمبراطوريه الفارسيه مشتملة على الشرق المتحضر كله من دلتا النيل حتى البحر الإيجى بما فى ذلك جميع البلاد



شكل ٧٨ : مقبرة قورش فى بازار جاده
من المحتمل أن يكون قورش نفسه شيد هذه المقبرة على مقربة من معبده وقصره، وظل جثمانه فيها مايقرب من مائتى سنة عندما جاء الاسكندر الاكبر فوجد الجثة ملقاة على أرضية المكان بعد أن جردها السارقون مما كان عليها من حلى . وامر الاسكندر ، فوضعوا الجثة فى مكانها واغلق باب حجرة الدفن ، ولكن اللصوص عادوا فنهبوها ، وهى الان خالية من كل شىء (عن رسم بالريشة للمصور جورج بلاومان (George T. Plowman

التى حول الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، وامتدت من هذه الحدود الغربية صوب الشرق حتى كادت تصل إلى الهند ، ولم يستغرق هذا العمل الضخم سوى خمسة وعشرين سنة منذ اليوم الذى قهر فيه قورش جموع الميديين . وقد كان للإمبراطورية الآشورية الفضل فى تمهيد الطريق لهذا العمل العظيم إذ أن الفرس بدأوا يقتبسون الكثير عمن سبقهم من الحضارات .

حضارة الامبراطورية الفارسية

ورأى الفرس أن مدينة بابل كانت مدينة عظيمة فخمة وحولها أسوارها الضخمة التى أقامها نبوخذنصر والتى كانت تمتد من النهر إلى النهر . كما شاهدوا مبانيه الهائلة التى يراها الناس من مسافة بعيدة فى السهل البابلى . وكانت هذه المدينة المركز التجارى الأول فى غرب آسيا وكانت أعظم سوق عرفه الشرق القديم . أما على ضفاف النيل فقد حكم الأباطرة الفرس المدن الرائعة التى تزخر بالآثار العظيمة التى تحدثنا عنها فيما سلف وكان لتلك الحياة المتحضرة التى رآها الفرس على ضفاف النيل وما رأوه أيضا على ضفاف الفرات أثر كبير عليهم كما سيتضح لنا .

وكانت اللغة الآرامية وهى اللغة التى كان يتكلم بها التجار الآراميون الذين كانوا يملأون الأسواق البابلية ، قد أصبحت فى ذلك الوقت لغة الهلال الخصيب بأسره . وكانت الوثائق التجارية تكتب بالآرامية بالقلم والمداد على أوراق من البردى ، إذ كانت الرقم الفخارية فى طريقها إلى الزوال شيئا فشيئاً . ولهذا رأى الموظفون الفرس أنهم مضطرون لتأدية أعمالهم الحكومية ، مثل جمع الضرائب باللغة الآرامية فى جميع أنحاء النصف الغربى للامبراطورية الفارسية ، وكانوا يبعثون برسائلهم الحكومية إلى بلاد النيل وغرب آسيا الصغرى باللغة الآرامية ، لأنها كانت اللغة العالمية فى جميع الأعمال الخاصة بالتجارة والإدارة .

ولهذا كانت حكومة الملوك الفرس ، مثلها فى ذلك مثل الإمبراطورية الأشورية ، حكومة ذات لغتين ، أى أنهم كانوا يستعملون لغتين هما الآرامية والفارسية القديمة واستخدم الفرس فى كتاباتهم للغة الفارسية حروفا آرامية ، كما يفعل اليوم من يكتبون الانجليزية بحروف لاتينية بيد أنه كان لهم إذ ذاك حروف هجائية مسمارية ربما أخذوا فكرتها عن الكتابة الآرامية .

ا

ب

شكل ٧٩ : النقشان الفارسيان القديمان اللذان كانا أول النقوش التى حلت رموزها وقرئت

كان من عادة الكتاب الفرس أن يضعوا بعد نهاية كل كلمة شرطة صغيرة مائلة . ونرى فى الرسم أرقاما موضوعة فوق هذه الشرط للمساعدة على تحديد كل كلمة . وقد لاحظ « جروتفند » أن بعض الكلمات تتكرر كتابتها فى كل نقش من النقشين . فمثلا نرى فى النقش العلوى (ا) أن ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٦ هى الكلمة نفسها . وفى النقش الآخر (ب) تتكرر الكلمة نفسها فى ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٧ . ولما كان هذان النقشان فوق رسم ملوك من الفرس فقد ظن جروتفند أن هذه الكلمة التى تتكرر دائما يجب أن تكون هى كلمة « ملك » ، ولما كانت فى كل من النقشين تاتى فى مكان رقم ٢ فتكون الكلمة الاولى اى رقم ١ هى اسم هذا الملك اى يكون بدء النص هو « دارا الملك » ، ووجد جروتفند بعد ذلك أن القاب ملوك الفرس كانت معروفة فى الوثائق الفارسية من العصور التالية . وكان ترتيب ورود هذه الالقاب مساعدا لجروتفند على الظن بأن ترتيب النص كان كالآتى :

١	٢	٣	٤	٥
اسم الملك فارسى	الملك	العظيم	ملك	الملوك

٦	٧	٨	
ملك	اسم الملك فارسى	ابن	... الخ اى أن

٦ ، ٧ ، ٨ تعنى « ابن الملك ... »

واخذ يجرب بعد ذلك أسماء ملوك الفرس وخاصة ماكان عدد حروفه يصلح لان يكون فى المكان المخصص للاسماء ، ووصل الى أن الاسم المحتمل لان يكون فى المكان رقم ١ من النص العلوى هو اسم « دارا » والاسم الذى فى المكان رقم ١ فى النص الاسفل هو « كزركس » وسنرى نتيجة ذلك فى شكل ٨٠

خ شا ى ا ر شا ا

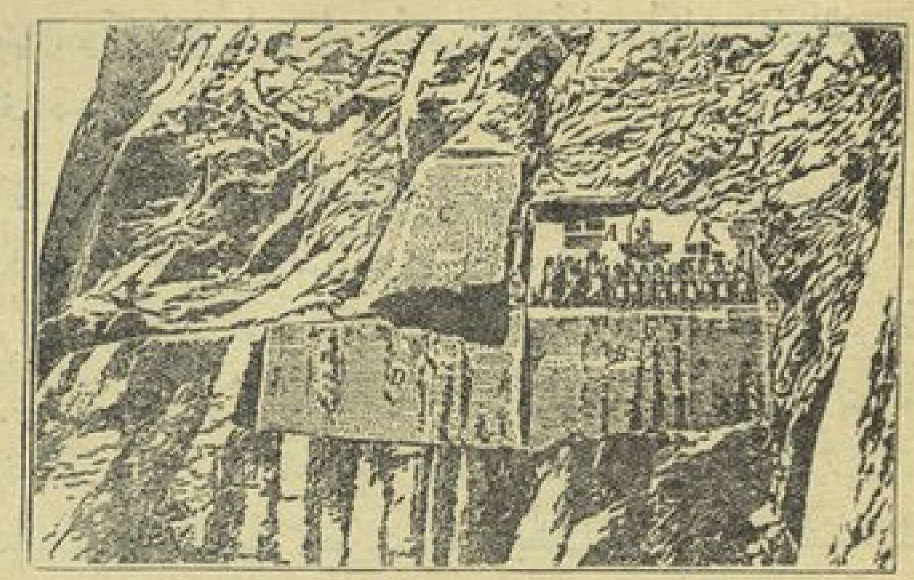
شكل ٨٠ : اسم الملك اكزركس فى الفارسية المسمارية

هذه الكلمة هى أول الكلمات فى شكل ٧٩ (ب) ومعروف أن نطق الاسم اكزركس تحريف للنطق القديم « خشايارشا » ولهذا اعتقد جروتفند أن هذه الحروف السبعة يجب أن تكون لاسم هذا الملك ٠ ورأى أن بعض هذه الحروف توجد فى الكلمة التى يجب أن تكون فى « ملك » فى الفارسية القديمة ، ولهذا حاول أن ينطق الكلمة التى تدل على ملك ٠

ويستطيع القارىء أن يجرب ذلك بنفسه ٠ ولينقل على قصاصة من الورق الحروف الثلاثة الاولى فى الكلمة المظنون أنها تؤدى معنى « ملك » فخذ مثلا كلمة رقم ٢ فى شكل ٧٩ ، وقارنها بالحروف التى فى اسم كركسيس فترى أن العلامات الثلاثة الاولى التى على الورقة هى العلامات الاولى والثانية والسابعة فى كلمة اكزركس ، فاذا حاولنا نطقها فانها تكون حا ــ شا ــ ا ٠ أى أن الكلمة الفارسية القديمة لكلمة ملك يجب أن تبدأ بهذه العلامات ٠ ولما كان لقب ملوك الفرس الآن هو « شاه » فاننا نستطيع ان ندرك أن جروتفند كان فى الطريق الصحيح الى حل رموز اللغة الفارسية المسمارية القديمة ٠

ولقد دلت البحوث الأثرية الأخيرة عند إكباتانا عاصمة الميديين على أن الميديين ابتدعوا حروفا هجائية جديدة تبلغ تسعة وثلاثين علامة مسمارية ، وكانوا يستخدمون هذه الحروف فى كتابة اللغة الفارسية على الرقم الفخارية . كما استخدموها أيضاً كلما أرادوا أن يسجلوا حقائق تاريخية على المبانى الحجرية . وهكذا بدأ الإيرانيون الذين ظلوا فترة طويلة دون علم بالكتابه ، يسجلون حقائق ووثائق تاريخيه لتخلد بعدهم على مر الدهور . وتعتبر هذه الآثار أقدم ما وصل إلينا من وثائق ميدية أو فارسية .

وترجع أهمية المدونات المسمارية الفارسية إلى أنها هى التى مكنتنا من حل رموز وقراءة النقوش المسمارية فى غرب آسيا ، وذلك لأنه بعد أن احتلت الآراميه مكان لغة بابل وأشور جاء الوقت الذى لم يكتب فيه أحد من الناس أى رقم بالكتابة المسمارية ، وآخر ما وصل إلى أيدينا رقيم عليه عبارات كلدانية يرجع تاريخها إلى عام ٧ ق.م. أى أنه قدمضى نحو ألفى سنة على آخر شخص كان يستطيع



شكل ٨١ : نقش النصر ـ نقش الملك دارا الاكبر على صخور بهستون ـ
الذى يمكن تسميته بانه حجر رشيد قارة آسيا

هذا الاثر الفخم هو أهم وثيقة تاريخية فى آسيا • وهى مقسمة الى اربعة أقسام ـ ا رسوم بارزة ، أما ب ، حـ ، ٥ فهى كتابات منقوشة على الصخور ونقش ب مكتوب فى سطور يبلغ ارتفاع كل منها نحو ١٢ قدما ويسجل انتصار داريوس على أعدائه عندما أحدثوا ثورات واسعة النطاق بعد اعتلائه للعرش •

وهذا النقش مكتوب باللغة الفارسية بالابجدية المسمارية الجديدة المكونة من تسعة وثلاثين حرفا التى أوجدها الميديون على مايظن • أما النقشان الآخران (حـ ، ٥) فهما ترجمة للنقش الفارسى (ب) • فاما النقش (حـ) فهو باللغة البابلية فى حين أن النقش الثالث (٥) فهو مكتوب أيضا بالمسمارية ولكنه بلغة منطقة عيلام أى باللغة العيلامية •

وهكذا أراد « الملك العظيم » أن يعلن انتصاره وينشره على الناس مكتوبا باهم اللغات التى يتكلمها سكان المناطق الشرقية ، وأمر بوضع هذه النقوش فى مكان قريب من بهستون على الطريق بين بابل والهضبة الايرانية حيث تمر القوافل فيراها المارون منقوشة على واجهة الصخر على ارتفاع ثلاثمائة قدم ، ونقشها الفنانون بحجم كبير لتسهل رؤيتها اذ تبلغ فى ارتفاعها ٢٥ قدما أما عرضها فهو ٥٠ قدما

ومن الصعب جدا أن يصل الانسان الى مكانها وقد خاطر السير هنرى رولنسون (Sir Henry Rawlinson) بحياته عندما نقل هذه النقوش الثلاثة بين أعوام ١٨٣٥ ، ١٨٤٧ • وعكف على دراستها فساعدته على حل رموز البابلية المسمارية القديمة • وبهذا تكون نقوش دارا هذه هى التى ساعدت العلماء على معرفة لغة وتاريخ بابل وآشور

وقد أدت هذه النقوش لدراسات تاريخ ولغة غرب آسيا ما اداه حجر رشيد للدراسات المصرية (مرسوم من الصور الفوتوغرافية التى أخذتها بعثة المتحف البريطانى) •

قراءتها ، وهكذا ظل تاريخ بابل وأشور مدفوناً تحت أنقاض المدن التى قامت على ضفاف دجلة والفرات .

كانت الكتابة المسمارية الفارسية مكونة من تسعة وثلاثين حرفا هجائيا ولهذا لم تكن صعبة . وقد تمكن جروتفند Grotefond وهو مدرس ألمانى ، فى أوائل القرن الثامن عشر أن يتعرف على اسم دارا واكزركس وبعض الألفاظ الفارسية الأخرى . ثم استطاع عدة باحثين أوروبيين آخرين أن يتوصلوا إلى معرفة أصوات أكثر الحروف الهجائية المسمارية فى اللغة الفارسية ، وأتم السير هنرى رولنسون وهو ضابط بريطانى حل رموز الكتابة المسمارية الفارسية فى عام ١٨٤٧ وأصبح العلماء منذ ذلك التاريخ يستطيعون قراءة النقوش التى كتبت باللغة الفارسية القديمة ، ولكن عدد هذه النقوش كان ضئيلا إذ ذاك وكانت الأهمية الكبرى لقراءة هذه النقوش الفارسية هى أنها ربما كانت وسيلة تساعدنا على معرفة قراءة الكتابة المسمارية البابلية .

فقد لاحظ الباحثون منذ أمد بعيد أن النقش الثالث فى أثر بهستون Behistun العظيم للملك داريوس قد كتب بنفس الحروف المسمارية التى توجد على كثير من الرقم الفخارية وعلى بعض الآثار التى عثر عليها فى بابل فاعتقد الباحثون أنه إذا أمكننا قراءة النقش الثالث فى بهستون ، يصبح فى استطاعتنا قراءة الوثائق البابلية والأشورية القديمة ونجح رولنسون بعد ثلاث سنوات قضاها فى دراسة نقوش بهستون من أن يحل رموز بعض الكتابة البابلية أيضاً المكتوبة بالطريقة المسمارية وعند ذاك بدأت أطلال المدن البابلية وخرائب الدور الأشورية تفصح عما خبأته من أخبار ، وتخبرنا رويدا رويدا عن العصور الثلاثة العظيمة فى تاريخ بلاد الدجلة والفرات . وهى فترة تزيد على ألفين وخمسمائة عام من تاريخ الإنسان فى غرب آسيا ، كان العالم يجهلها جهلا مطبقاً .

ويرجع الفضل فى قدرتنا على قراءة المدونات المسمارية ومعرفتنا لهذه المعلومات الجديدة إلى الوثائق التى خلفها لنا ملوك الفرس .

وكان تنظيم هذه الإمبراطورية الشاسعة . التى تمتد من نهر السند حتى البحر الإيجى (تقرب من طول الولايات المتحدة من الشرق إلى الغرب) ، ومن المحيط الهندى حتى صحراء بحر قزوين ، عملا جبارا ، كانت هذه الإمبراطورية تتطلب مجهوداً فى التنظيم على نطاق واسع ، أعظم من أى نوع من التنظيم حاول أى حاكم آخر أن يفعله من قبل . كان هذا العمل أكبر من أن يتم كله على يدى قورش الذى بدأه ثم أتمه دارا الأكبر (٥٢١ — ٤٨٥ ق . م) الذى سيظل التنظيم الذى وضعه عملا من الأعمال الخالدة المجيدة فى تاريخ الشرق بل فى تاريخ العالم كله .

كان حكم دارا حكما عادلا رحيما مستنيراً ، ولكنه لم يكن لرعاياه من الشعوب أى صوت فى الحكومة . وكان العاهل الفارسى يلقب بالملك الأكبر منذ أيام قورش ، وكان كل ما يقرره الملك الأكبر يصبح قانوناً وعلى الشعوب أن تنحنى أمام كلمته ، ويقول دارا فى نقش بهستون «لقد انصاعت هذه البلاد لأوامرى والحمد لأهورا مزدا ، وكل ما أمرتهم بعمله كانوا ينفذونه » ، ونلاحظ هنا حقيقة هامة نستشفها من هذا النص ألا وهى أن هذا النظام لم يكن محاولة للحكم على نطاق أعظم مما عرفه العالم حتى ذلك الوقت فحسب ، بل كان حكومة فى قبضة رجل واحد . ولم ينس العالم القديم المثال الذى وضعته الإمبراطورية الفارسية الشاسعة التى حكمها فرد واحد .

وفى سبيل إتمام هذا التنظيم العظيم عمل دارا على أن يولى نفسه ملكا فعليا على كل من مصر وبابل ، ثم قسم باقى الإمبراطورية إلى عشرين ولاية ، وكانت كل

ولاية من هذه الولايات تعرف باسم « ساتربيه » Satrapy لأن كلا منها كان تحت إمرة وال أو حاكم يدعى ساتراب Satrap يعينه الملك الأعظم . وأنه وإن كانت هذه التنظيمات شبيهة بما كان متبعا فى امبراطوريات الكلدانيين وآشور ومصر إلا أنها تعد خطوة تقدمية فى نظام حكم الولايات تحت إمرة الحكام . وفى الواقع كانت الإمبراطورية الفارسية بنظامها الجديد ، المثال الأول فى التاريخ لمجموعة من الشعوب الخاضعة التى تحكم كأقاليم ، ويمكن أن نطلق على هذا النظام « أنه نظام إقليمى » . وتمتعت الأمم الخاضعة أو بالأحرى الأقاليم الواقعة تحت الحكم الفارسى بقسط كبير من الاستقلال فى إدارة شئونها المحلية طالما كانت تقدم للملك الأكبر الجزية المفروضة عليها ، وطالما كانت ترسل لجيشه جنودا . ولقد عول الملك الأكبر فى سبيل الوقوف على أسرار أى ثورة محلية ومنعها ، كثورة حاكم أو شعب ضد الحكم الفارسى ، على تعيين موظفين يقيمون فى كل دولة من الدول التابعة له . وكان يطلق على هؤلاء وفقا لعادة مصرية قديمة : « آذان الملك أو عيونه » ، وكانت مهمتهم تنحصر فى إبلاغ الملك أية قرينة على العصيان ، وكانت كل هذه التنظيمات تحسينات أدخلها الملك الأكبر على نظام الحكم فى الإمبراطورية الأشورية .

كانت الأراضى الزراعية مقسمة إلى إقطاعات شاسعة فى حوزة نبلاء أقوياء ، أو بعض ملاك الأراضى الأغنياء ، فلم يكن هناك إلا عدد ضئيل من الزراع الذين يملكون أراضيهم ، وكانوا جميعا يدفعون ما عليهم ، لتقدم مع الجزية التى كانت مفروضة على جميع أنحاء الإمبراطورية وكانت هذه الجزية تجبى عينا فى المنطقة الشرقية من الإمبراطورية ، وذلك وفقا للتقليد القديم .

أما فى المنطقة الغربية من الإمبراطورية ولاسيما ليديا والمستعمرات الإغريقية فى غربى آسيا الصغرى حيث كانت العملة المعدنية معروفة منذ عام ٦٠٠ ق . م .

فإن الجزية كانت تدفع بالعملة . أما الأقطار الشرقية، مصر وبابل، وبلاد الفرس نفسها فلم تكن بعد قد اقتبست هذه الطريقة ، وعلى أية حال فقد شرع دارا فى سك عملة ذهبية كما سمح لولاته أن يسكوا عملة فضية ، وكانت النسبة ١٣ : ١ ، أى أن الذهب كان يعادل ثلاث عشرة مرة قيمة الفضة وكان للعملة المسكوكة فضل كبير فى تيسير التبادل التجارى بين الأمم ولهذا أصبح استعمالها عاما وأكثر انتشارا فى الشرق الأدنى خلال العهد الفارسى .

ويمكننا أن نقول بوجه عام أن دارا مثله فى ذلك، كمثل اليابانيين فى العصر الحديث، أظهر مهارة فائقة فى اقتباس خير ما فى الحضارات العظيمة التى تحيط به لكى يطبقها فى حكومته ، فلقد أدرك سريعا الخير الذى يعود من استخدام التقويم المصرى الذى يقسم السنة إلى إثنى عشر شهرا كل منها ثلاثون يوما ، فأمر باقتباس هذا التقويم فى الحكومة الفارسية، وأعجب دارا إعجابا شديدا بما وصل إليه المصريون فى الطب . فأمر بإعادة أحد رؤساء الكهنة الذى كان على جانب عظيم من المعرفة ، وكان أسيرا فى بلاد الفرس ، فأصدر إليه تعليماته ليذهب إلى صا الحجر، وهى مدينة تقع فى غربى الدلتا ، وأن يعيد بناء مدرسة طبية مصرية كانت قد تهدمت مبانيها ؛ ونحن نقرأ تلك القصة على قاعدة تمثال لهذا الكاهن الكبير فى مجموعة متحف الفاتيكان بروما ونعرف منها كيف نفذ هذا الكاهن أوامر دارا وأعاد بناء دارى المدرسة ، وكانت إحدى الدارين تختص بالمدرسة نفسها ، أما الأخرى فيرجح أنها كانت المكتبة ، وجمع لها الطلبة من أرقى العائلات ليدرسوا فيها ، وهيأها بما يلزمها من « الآلات » التى كانت تستخدم على الأرجح فى العمليات الجراحية : ويستطرد النقش قائلا « لقد فعل صاحب الجلالة (أى دارا) ذلك لإدراكه قيمة هذا الفن (الطب) لينقذ حياة كل من أصابه السقم » . وهكذا أسس هذا العاهل الفارسى الكبير أقدم مدرسة طبية كمؤسسة ملكية .



شكل ٨٢ : جنود من الفرس

بالرغم من أن هؤلاء الجنود كانوا يحملون الحراب عند تأديتهم عملهم كحرس في القصر ، الا أنهم كانوا من الرماة كما نرى من كنانة السهام المعلقة فوق ظهورهم والقوس المعلق على الكتف اليسرى . وكان من عادة جنود الفرس أن يشرعوا حرابهم وهم ملتفون حول الملك فى ساحة القتال ، تأمل الملابس الفخمة التي يلبسها حراس القصر .

هذا الرسم مأخوذ من أصل زاهى الالوان على قوالب مزججة وهو فن اقتبسه الفرس عن الاشوريين واستخدموه فى تجميل جدران القصور .

وفى عهد دارا . أيضا قام عالم الفلك الكلدانى « نبوريمانو » Naburimannu بأبحاثه الفلكية فى بابل ، كما أن هناك دراسات أخرى من هذا النوع قام بها «كيدنو» Kid'nnu فى عهد الحكم الفارسى أيضا .

وليس أدل على حنكة دارا الأكبر السياسية من حرصه على أن يجعل من بلاد الفرس دولة ذات قوة بحرية عظيمة ، ولم يكن يسيرا على أمة تقطن قلب

اليابسة ومكونة من جماعات من الرعاة والفلاحين ، وتفصلها عن الماء شواطىء صحراوية أن تسيطر على البحر وتسوده . واضطر دارا إلى استخدام ملاحين من الأجانب ، ومن أعماله أنه بعث بملاح ماهر من ملاحى البحر الأبيض المتوسط يدعى « سكيلاكس » Scylax ليكتشف نهر السند فى الهند . ثم أمره دارا بعد ذلك أن يبحر إزاء شواطىء أسيا من مصب نهر السند متجها صوب الغرب حتى خليج السويس . فكان سكيلاكس أول بحار غربى عرفناه أبحر بإزاء هذا الشاطىء الجنوبى لآسيا ، ذلك الشاطىء الذى كاد أن يكون مجهولا لدى الشعوب الغربية وكان ذلك حوالى عام ٥٠٠ ق . م .

وفى السويس أعاد دارا حفر القناة المصرية القديمة التى كانت تربط النيل بالبحر الأحمر ، وكانت قد ملئت بالطمى والرمال منذ زمن غير يسير . وقد عثر على قطع متناثرة للوحات حجرية كبيرة ، وكان دارا قد أقامها على طول الطريق القديم لهذه القناة . وتحمل هذه اللوحات نصا يتحدث عن إعادة حفر هذه القناة . وهذه هى بعض كلمات « الملك العظيم » : « أمرت بحفر هذه القناة من مجرى الماء الذى يوجد فى مصر والمعروف باسم النيل حتى البحر (البحر الأحمر) الذى يمتد من بلاد الفرس ، تم حفر هذه القناة كما أردت ، وأبحرت السفن من مصر إلى بلاد الفرس عن طريق هذه القناة ، وذلك وفقا لمشيئتى » . ومن الواضح أن دارا كان يراوده أمل أثبتت الأحداث خطأه وهو جعل الشاطىء الجنوبى لبلاد الفرس يساهم فى النشاط التجارى المطرد بين الهند وعالم البحر الأبيض المتوسط .

فكما كانت بلاد الفرس فقيرة فى صغار الملاك للأراضى كانت تفتقر أيضا إلى التجار الصغار الطموحين الذين ربما ظهر منهم مغامرون ينهضون بشؤون التجارة .

وأحسن دارا معاملة المدن الفينيقية ، ولم يفعل مافعله الأشوريون ونجح فى إعداد أسطول حربى فينيق ضخم . وسوف نرى أن ابن دارا ، اكزركس Xerscus (خشيارشا) ، استطاع أن يعتمد على المئات من السفن للأعمال الحربية وللنقل فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وعندما دعت الحاجة إلى استخدامها فى غزو أوروبا . وهكذا حقق الملوك الفرس المستنيرون مالم يحققه الأباطرة الأشوريون وأصبحت فارس أعظم قوة بحرية فى آسيا .

وحافظ الأباطرة الفرس على طرق المواصلات بشقهم طرقا صالحة تمتد فى جميع أنحاء الإمبراطورية من أقصاها إلى أقصاها ولعل هذه الطرق أسدت للامبراطورية الفارسية ماتسديه لنا الآن السكك الحديدية ولكن على نطاق ضيق بالطبع .

وكان للرسل الملكيين نظام بريدى أدق وأسرع مما كان متبعاً فى الإمبراطورية الأشورية ، وكان هؤلاء الرسل يمتازون بسرعة مدهشة ، ولكن نقل البضائع كان يحتاج إلى وقت أطول . فمثلا من سوسا Susa أو برسبولس Persepolis إلى البحر الإيجى كان يتطلب من الوقت ما يعادل ما نحتاجه الآن لنطوف حول العالم ومما يدل على فائدة تلك الطرق انتشار ذلك النوع من القوت الذى ينمو فى البيت ألا وهو الدجاج . فقد كانت فى الأصل دجاجة برية تعيش بين الأدغال فى الهند ثم استأنسها الهنود الشرقيون ولم تصبح منتشرة فى منطقة البحر الأبيض المتوسط حتى جاءت بها وسائل المواصلات الفارسية من الهند إلى البحر الإيجى .

كانت مدينة سوسا العيلامية القديمة التى تقع فى جبال زاجروس هى العاصمة وفيها كان يقطن الملوك ، بيد أن هواء بابل المعتدل اجتذب العاهل الفارسى أثناء الشهور الباردة فى السنة فكان يرحل إلى قصور الإمبراطورية الكلدانية البائدة ليقيم بها . وقد حرص ملوك الفرس الأوائل على أن يقيموا فى وطنهم الفارسى

القديم ، رغم بعده ولقد رأينا أن قورش قد أقام قصراً فخماً عند بازارجاده على مقربة من المكان الذى هزم فيه الميديون وأن دارا قد بنى أيضاً قصراً رائعاً عند برسبولس التى تبعد نحو الأربعين ميلا جنوب قصر قورش . وبالقرب من أطلال برسبولس توجد مقابر دارا واكسركسيس وغيرهم من الأباطرة المتأخرين . لأنهم كانوا حريصين على أن يدفنوا فى موطنهم الأصلى فى فارس :

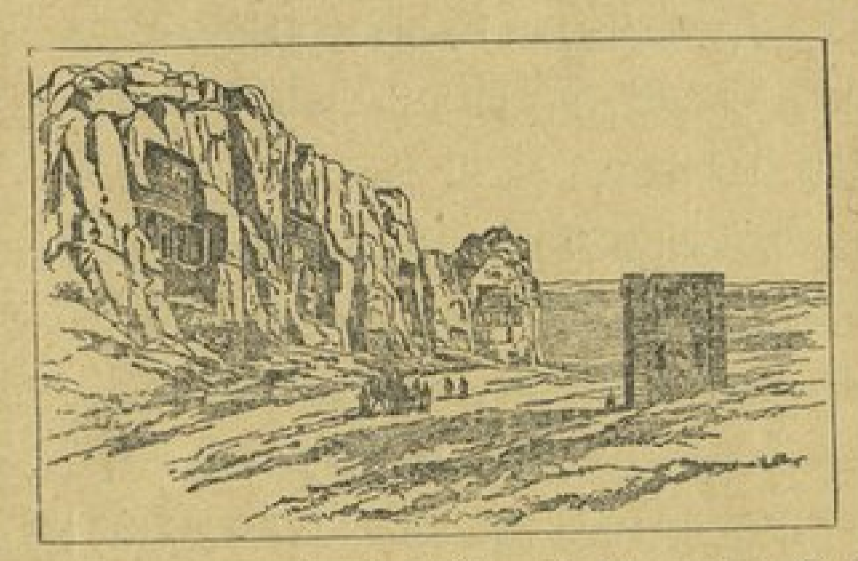
وأخذ البناءون الفرس يتعلمون فن المعمار من الشعوب الشرقية القديمة التى أصبحت خاضعة لإمبراطوريتهم . فاقتبسوا المدرجات الهائلة التى كانت تقوم عليها القصور الفارسية عن البابليين . كما اقتبسوا الثيران المجنحة التى تقوم أمام أبواب القصر والسلالم المؤدية إليها عن آشور . أما بواكى الأعمدة التى تمتد أمام القصور وتملأ أبهاءها والتى كانت أقدم ردهات ذات أعمدة بنيت فى آسيا ـ فإنهم اقتبسوها من مصر إذ كانت تقوم على ضفاف النيل منذ اكثر من ألفين من السنين قبل ذلك التاريخ [1] وكذلك جدران القصور الزاهية الألوان والتى بنيت من طوب مزجج فإنها جاءت إلى بلاد الفرس من الغرب . وهكذا اندمجت الحضارات العظيمة التى حكمها الأباطرة الفرس فى حياة إمبراطوريتهم .

وأدى اندماج تلك الحضارات القديمة التى نشأت فى الشرق الأدنى تحت نظام شامل إلى إيجاد حالة جديدة لها خطرها الكبير فى تاريخ أوروبا فقد رأينا قورش وكيف وصلت انتصاراته إلى شواطىء البحر الإيجى ورأينا المدن الإغريقية التى تقع فى غربى آسيا الصغرى وقد أصبحت تحت الحكم الفارسى . وهكذا امتدت تلك الإمبراطورية العظيمة على طول جنوبى أوروبا . وإذا تأملنا خريطة للعالم ووضعنا فى أذهاننا أن تقدم الإمبراطورية نحو الغرب قد امتد فى النهاية تحت حكم دارا

---

١ ـ مما يلفت النظر أن الفرس لم ينقلوا العقد فى البناء عن البابليين . فان جميع الابواب فى قصر دارا تعلوها قطعة حجرية افقية هى ماتسميها « العتب » وقد نقلوا ذلك من الابواب المصرية

فشمل الأراضى الاوروبية حتى نهر الدانوب، فإننا ندرك أن وقوع اصطدام حربى بين الإمبراطورية الفارسية وبين بلاد الأغريق أصبح أمراً لا مفر منه . وسيكون لهذا الموقف فيما بعد أثر أعظم ، عندما يؤدى إلى اندماج أقوى بين حضارات الشرق الأدنى وبين الحياة فى أوروبا الغربية إلى درجة لم تكن ميسورة من قبل . ولم تكن تلك الحروب بين بلاد الفرس وأوروبا ذات أهمية كبرى بالنسبة لبلاد الفرس ، ولكنها كانت العامل الاساسى فى تطور تاريخ بعض الامم الصغيرة مثل الاغريق .



شكل ٨٣ : مقابر ملوك الفرس الاوائل على مقربه من مدينة برسبوليس (تخت جمشيد)

بعد موت قورش وابنه قمبيز ، بدأ ملوك الفرس منذ عهد دارا الاول فى نحت مقابرهم فى واجهة هذا الصخر على مسافة يسيرة من مدينة برسبوليس . وهنا مقابر دارا الاعظم واكسركسيس ودارا الثانى وارتا كسركسيس الثانى وارتا كسركسيس الثالث ودارا الثالث وكلها منحوتة فى الجبل خلف قصور برسبوليس ولو أضفنا عليها مقبرة كورش (شكل ٧٨) يصبح لدينا مقابر جميع الملوك الفرس التسعة ماعدا قمبيز الذى غزا مصر فان قبره لم يعثر عليه حتى الآن . وأمام كل مقبرة تقوم بضع أعمدة يفتح وسطها الباب . وفوق الاعمدة نرى مربعا منحوتا فى الصخر فيه رسم الملك يتعبد للاله أهورامزدا أمام مذبح للنار وقد فتحت هذه المقابر وسرقت محتوياتها كما حدث لمقبرة كورش وجميع هذه المقابر لاتحوى شيئا الآن اللهم الا التوابيت الحجرية الضخمة الموضوعة فى أماكن معدة لها فى الجدران، تلك التوابيت التى دفن فيها دارا واكسركسيس وغيرهم من الملوك وعائلاتهم .

كان الحكم الفارسى بالنسبة للعالم الشرقى على وجه العموم فترة رخاء وسلم استمرت نحو قرنين من الزمان (انتهت حوالى ٣٣٠ ق.م) .

ومع تقدم الزمن لم يعد ملوك الفرس فى قوة قورش أو دارا أو مهارتهما ، فقد أحبوا الترف وركنوا إلى الدعة وألقوا كثيراً من مهام الحكم على عاتق ولاتهم وموظفيهم ، وترتب على ذلك أن أصبحت الحكومة فى حالة فساد وعجز ، وكان مصيرها إلى الضعف والاضمحلال .

وكتب المتأخرون وخاصة الاغريق عن الحكام الفرس وصوروهم لنا كطغاة شرقيين قساة القلوب غير متحضرين ولكن هذا الوصف ملىء بالتحامل وخاصة إذا تحدثنا عن الحكام الفرس الأولين . فلقد شعر بعض هؤلاء الأباطرة الفرس شعوراً عميقا بواجبهم فى أن يهيئوا حكومة عادلة لأمم الأرض . فيقول دارا الأكبر فى نقش بهستون « ولهذا مد أهورا مزدا يد المساعدة لى ... لأنى لم أكن شريراً ، ولم أكن كذوباً ولم أكن طاغية ، وما كان أحد من أجدادى هكذا . لقد حكمت طبقاً لقواعد العدل » .

ولا ريب فى أن الامبراطورية الفارسية . أعظم امبراطورية شهدها العالم القديم تمتعت بحكومة عادلة رحيمة لم تعدلها أى حكومة سبقتها فى بلاد الشرق .

وتدل كثير من هذه التصريحات مثل تلك التى وردت فى نقش دارا وأشرنا اليها منذ لحظة على أن الحكام الفرس كانوا أتباعاً مخلصين لتعاليم زرادشت . وقد ساعدتهم قوتهم على نشر هذه العقيدة النبيلة فى جميع أنحاء غربى آسيا الصغرى .

وهنا ظهر متراس ، الذى كان زرادشت ينظر اليه على أنه أحد أعوان أهورا مزدا ظهر على أنه بطل النور ، وفى آخر الأمر إلهاً للشمس ، وطغا اسمه على اسم أهورا مزدا شيئاً فشيئا . وانتقل متراس من آسيا الصغرى إلى أوروبا ، وزاد انتشار عبادته فيما بعد فى جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية ، وأصبحت بعد ذلك منافساً خطيرا

للديانة المسيحية لأنه فيما يتعلق بالديانات ، وبالنسبة لكثير من الأمور الأخرى ، أتمت الامبراطورية الفارسية تحطيم الحدود الدولية ، وكان ظهورها بداية فترة طويلة من الزمن تنافست فيها الديانات الرئيسية فى الشرق لنيل مركز الصدارة بين جميع الأمم .

كانت بلاد الفرس آخر قوة عظيمة عرفها الشرق الأدنى القديم . وقد آن الأوان لنوجه أنظارنا صوب الغرب لنشهد تقدم الحضارة فى بلاد أوروبا، ولكن لنقف هنيهة لنتذكر ما حققته الشعوب الشرقية القديمة . لقد اخترع الشرق الأدنى لأول مرة فى التاريخ مجموعة كاملة من المخترعات التى لم تتفوق عليها مخترعات أخرى سوى مخترعات العالم الحديث . كانت الشعوب الشرقية أول من ابتدع الفن والهندسة والأدب والعلوم . وكان لدى الشرقيين أقدم القوانين المكتوبة وتمت بينهم اقدم عقيدة نادت بوحدانية الله ورعايته الأبوية لجميع البشر .

وإلى جانب ذلك فقد قبل الشرق دائماً فكرة الملكية كأمر طبيعى ولم يخطر فى ذهن أحد أن يؤخذ رأى الناس فى الطريقة التى يحكمون بها . ولم يعرف الناس ما نسميه الآن الحرية كما نفهمها فى عصرنا الحالى ، ولم يحلم أحد بالنظام الذى يجعل الناس أصحاب الكلمة فى حكم أنفسهم وهو ما نسميه بالديموقراطية .

وكما قبل الشرقيون حكم الملوك بدون مناقشة فأنهم آمنوا بحكم الآلهة . فاعتقدوا أن أى عاصفة تثور تسبب فيها إله من الآلهة وأن كل كسوف للشمس كان من عمل إله غاضب أو روح شريرة ، ولم يهتم الشرقيون كثيراً ليعرفوا الأسباب لحدوث هذه الظواهر ولهذا لم تتقدم بينهم العلوم الطبيعية تقدما ذا شأن ، أما الديانة فشوهتها الخرافات وحرم الفن والأدب من بعض مصادرهما الأساسية اللازمة للتطور والالهام .

وكان ما زال أمام الناس أشياء كثيرة لا حصر لها ، وكان عليهم ان يصلوا اليها ، وذلك فى إدارة الحكومة وفى التفكير فى دنيا الطبيعة ، وفى إدراك ما فى الطبيعة من غرائب وجمال ، وفى التعمق فى الفن والأدب وفى غيرهما من الميادين وقدر لهذا التقدم أن يتم مستقبلا فى أوروبا ، التى تركناها عند حديثنا عن العصر النيوليتى فى آخر الفصل الثانى .

ويجب علينا أن نتتبع الآن سير الحضارة وهى تتنقل من الشرق الأدنى القديم مارة بشرق البحر الأبيض المتوسط لتصل إلى سكان أوروبا ، وذلك منذ أربعة آلاف وخمسة آلاف سنة .

« انتهى »

فهرس الاعلام

ا

ب

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ز

س

ش

ط

ظ

ع

غ

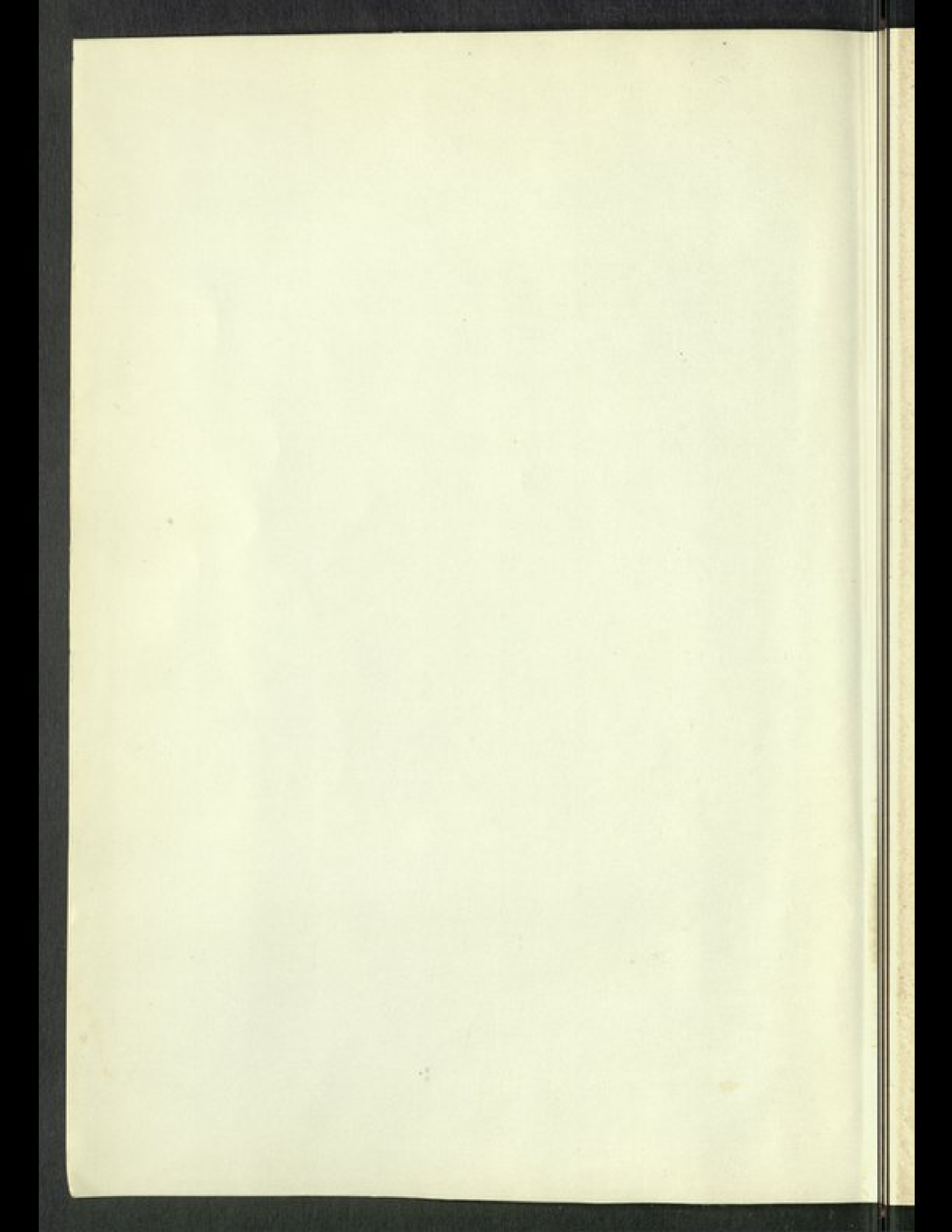
ف

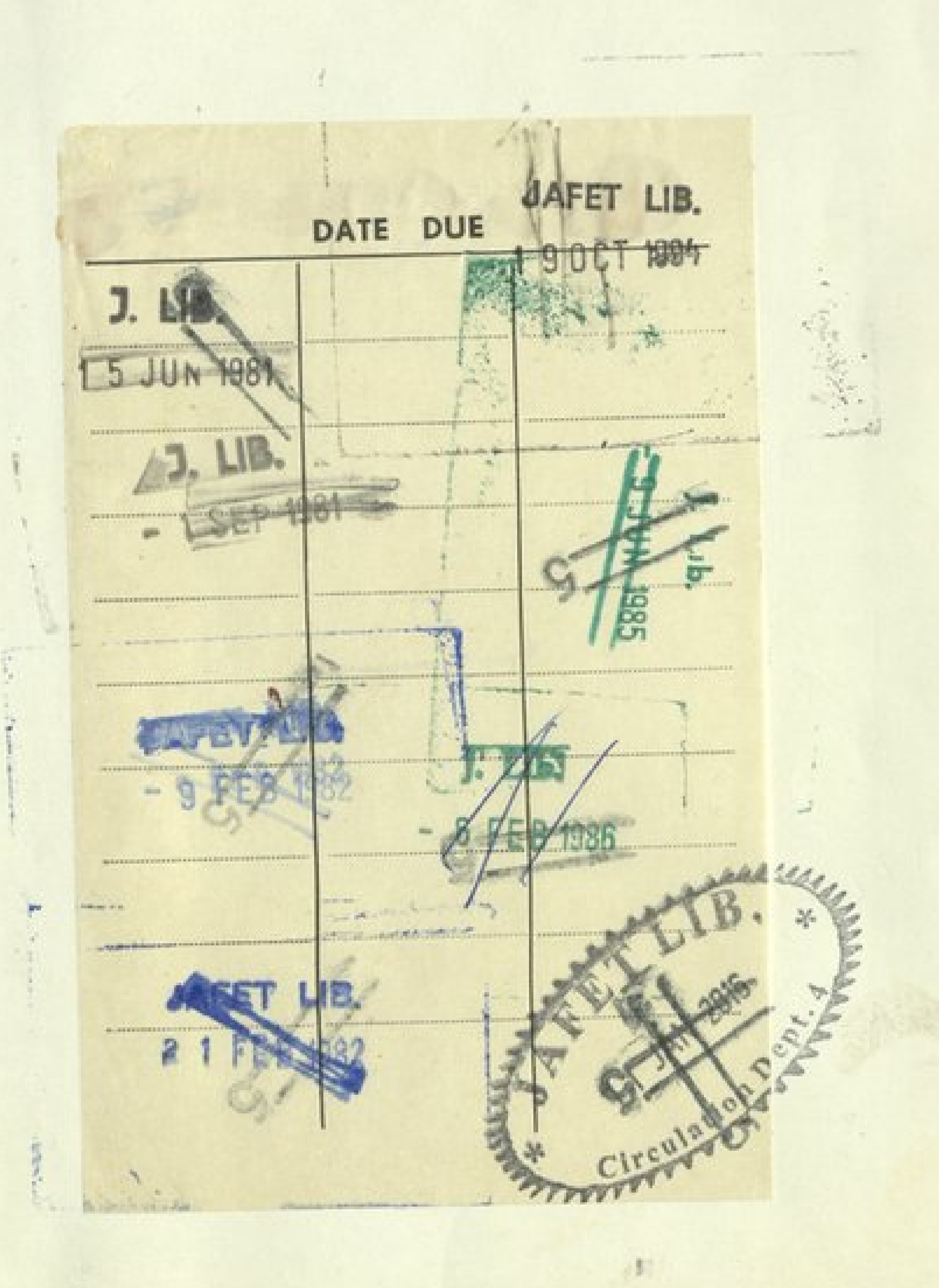
ق

ن

هـ

دار المستقبل بالقاهرة ٧٨١٢٧




DATE DUE
JAFET LIB.
19 OCT 1984
J. LIB.
15 JUN 1981
J. LIB.
- 1 SEP 1981
JAFET LIB.
- 9 FEB 1982
J. LIB.
- 8 FEB 1986
JAFET LIB.
21 FEB 1982
JAFET LIB.
Circulation Dept. A

